منتدى مكتبة الاسكندرية

ألكسي دوتوكفيل

المرشد الى الديمقراطية

جوزيف إبستاين

ترجمة : سمية ممدوح عادل

مراجعة أسماء محمد عادل

ألكسي دوتوكخيل

ألكسي دو توكفيل

المرشد إلى الديمقراطية

تأليف: جوزيف إبستاين

ترجمة: سمية ممدوح الشامي
مراجعة: أسماء محمد عادل

ألكسي دو توكفيل
المرشد إلى الديمقراطية

جوزيف إبستاين

Alexis De Tocqueville
Democracy's Guide

Joseph Epstein

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ-٢٠١٠م
رقم إيداع ٢٨٨٥ / ٢٠١٠
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١+ **فاكس:** ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

إبستاين، جوزيف
ألكسي دو توكفيل: المرشد إلى الديمقراطية / جوزيف إبستاين . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٠.
١٨٤ص، ١٤,٥×٢١,٠سم .- (سير العظماء)
تدمك: ٩ ٥٢ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- دو توكفيل، ألكسي شارل هنري كلير، ١٨٠٥
٢- فرنسا - تاريخ - الثورة الفرنسية
٣- الديمقراطية
أ- العنوان

٩٤٤,٠٤

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copyright © 2010 Kalimat Arabia
Copyright © 2006, Joseph Epstein
All Rights Reserved.
Published by arrangement with Eminent Lives, an imprint of HarperCollins Publishers.

إلى موريس روزنفيلد
(١٩١٤–٢٠٠٥)

الذكاء هو القدرة على رؤية الأشياء في الماضي والحاضر والمستقبل كما كانت وتكون وستكون.

— جورج سانتايانا
خطاب إلى هوراس ماير كالين
١٥ مارس/آذار ١٩١٧

مقدمة

تُرى أي رأي كان الكونت ألكسي دو توكفيل (١٨٠٥–١٨٥٩) سيُبديه في «ظاهرة توكفيل» لو كان لا يزال حيًّا؟ بالطبع أقصد بالظاهرة تمتع توكفيل بشهرة مستمرة ومتصاعدة. فعندما يقرأ قارئ اليوم عن أمريكا أو عن الديمقراطية أو الحرية أو البيروقراطية أو المساواة، أو عن أي جانب من جوانب السياسة — أو ما يتعلق بالآفاق الواسعة للطبيعة البشرية وهي تتبدى في سياق سياسي — سيصادف توكفيل عاجلًا أو آجلًا. كذلك غالبًا ما يدرك من يكتب عن تلك الموضوعات أن توكفيل سبقه منذ عهد بعيد إلى صياغة ما كان يريد أن يُعرِب عنه، وأن صياغته في العادة أفضل من تلك التي كان سيتوصل إليها بنفسه. قد يفكر المرء في إعادة صياغة أفكار توكفيل أو حتى في سرقتها، لكنه في نهاية المطاف يجد أن الحل المعقول هو أن يقتبس أفكاره ثم يمضي وحسب.

ظل الناس يقتبسون أفكار توكفيل طوال ما يقرب من قرنين بلا توقف. وفي أيامنا هذه يظهر اسمه في خطابات متحمسة تُرسَل إلى صحيفة نيويورك تايمز *New York Times*، فيها عبارات على شاكلة: «ومع ذلك ينبغي أن نتذكر أن توكفيل حذّر من ...» كما يستعين به بعض الأشخاص لتأييد أو دحض كل أنواع التحليلات التي كان هو نفسه غالبًا ما سيُبدي القليل من الاهتمام بها، فعلى سبيل المثال كان «توكفيل وكرة قدم الكليات» هو عنوان مقال عن الرياضة في الكليات، نُشر في عدد جريدة ويكلي ستاندارد *Weekly Standard* الصادر في ٢٩ ديسمبر/كانون الأول

عام ٢٠٠٣. ونجد أن علماء الاجتماع والعلماء السياسيين والرؤساء الأمريكيين مولعين بالاستشهاد بآرائه لتأييد حججهم ومواقفهم؛ فكتب عالم الاجتماع هربرت جانز Herbert Gans مؤخرًا يقول: «ربما اتفق توكفيل أيضًا معي أنه في دولة تهيمن عليها الاتحادات كأمريكا لن يَسَعَ التوجهُ الذي يتبناه الصحفيون في إيصال الحقائق إلى المواطنين أن يفعل الكثير للحفاظ على ديمقراطيتنا النيابية». كما استشهد بينيديكت السادس عشر Benedict XVI بأقوال توكفيل في بداية توليه منصب البابا. لا أحد يعرف، فربما يكون الرب نفسه قد استشهد بأقوال توكفيل.

وتوكفيل من دائرة الكتاب النخبويين الذين تُقتبس أقوالهم أكثر مما تُقرأ أعمالهم، حتى إن أحد الاقتباسات الشائعة المنسوبة خطأ له — وهو «أمريكا عظيمة لأنها صالحة، فإذا ما بعدت عن الصلاح ستبعد عن العظمة» — استشهد به عضو مجلس الشيوخ الأمريكي جون كيري John Kerry، والرئيس السابق بيل كلينتون Bill Clinton وعدد كبير من السياسيين الجمهوريين.

كتب أحد النقاد الأدبيين في مجلة نيويورك تايمز بوك ريفيو *New York Times Book Review* التي صدرت في ٥ يونيه/حزيران عام ٢٠٠٥ مشيرًا إلى بداية العدول عن ذلك التوجه فقال: «من القواعد السليمة التي استقيتها من خبرتي في تقييم الكتب السياسية الاجتماعية أنه كلما تكرر ظهور اسم «توكفيل» كان الكتاب مملًّا وسطحيًّا». دعونا نأمل ألا يكون هذا الرأي صحيحًا، وإلا فمن البديهي أن يكون الكتاب الذي بين أيديكم عقيمًا.

عندما نُشر الجزء الأول من كتاب توكفيل «الديمقراطية في أمريكا» *Democracy in America* عام ١٨٣٥ حقق نجاحًا سريعًا في فرنسا أولًا، وبعد هذا أحرز نجاحًا بترجمته إلى الإنجليزية. وعادة ما دُرس ضمن الكتب المدرسية في الولايات المتحدة لأنه يبدي آراء إيجابية جدًّا عن أمريكا. أما الجزء الثاني من الكتاب الذي نشر عام ١٨٤٠ فكان أكثر نقدًا، وتوسع توكفيل في موضوعاته كثيرًا، لتشمل المشكلات التي نتجت عن انتشار المساواة، ولم

يحصر تطبيق النظريات التي أوردها فيه على أمريكا وحدها، لكن الكتاب لم يحقق نجاحًا نقديًّا أو تجاريًّا. وبدا بعد وفاة توكفيل أن الكتاب سيئول إلى مصير معظم الكتب، ألا وهو الوقوع تدريجيًّا في هوة النسيان، مع أنه ظل يُنشر. لكن في عام ١٩٣٨ بدأت حركة إحياء أعمال توكفيل، ولعل بعض الفضل في ذلك يرجع إلى اكتشاف مجموعة كبيرة من مخطوطاته وأوراقه؛ كان من بينها يومياته، والملاحظات التي دونها أثناء سفره، والخطابات التي أرسلها إلى وطنه فرنسا من أمريكا. وبدت تطبيقات الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» بنقده البارع لروح المساواة، وملاحظاته الانتقادية على البيروقراطية، واهتمامه بجوانب النقص المتأصلة في الديمقراطية؛ أكثر صلة بالمجتمعات الحديثة. حازت كتابات توكفيل مزيدًا من الاهتمام بعد أن تبناها وشرحها مفكرون مثل ريمون آرون Raymond Aron في فرنسا، وبُعِثت شهرته بعثًا لا يشوبه ضعف.

ترجع شهرة توكفيل إلى قوة تحليله ووضوح صياغته. فذات مرة قالت امرأة في لقائها الأول بهنري جيمس Henry James إنها لم تر أبدًا رجلًا «يتمتع ببصيرة» كبصيرة توكفيل. إلى جانب هذا كانت تغمر توكفيل رغبة عارمة — ربما تكون كلمة «حاجة» هي الأدق في هذا السياق — في تحليل كل النظم الاجتماعية والمؤسسات السياسية التي مرت عليه، وهو أمر فعله بدرجة عالية جدًّا من دقة الفهم. غير أن دقة الفهم وحدها لا تكفي، إذ إن كمال فن التفكر لا يستلزم الإدراك فحسب، وإنما أيضًا نَظْم ما يدركه المرء بإيجاز وقوة في صيغة معبرة سهلة التذكر. نذكر مثلًا أن توكفيل قال: «في السياسة غالبًا ما تسود قاعدة أن عدو عدوي صديقي». وكتب أن: «التاريخ هو معرض لوحات، فيه القليل من اللوحات الأصلية، والكثير من اللوحات المقلدة.» وكتب متعجبًا: «أحيانًا يساهم اقتران العقل العظيم بروح ضعيفة في زيادة ضعفه! إذ إن المَلَكات الرائعة للعقل تُلبس جبن الروح زينةَ المبررات وتضفي عليه البريق»؛ هل يمكننا الاتفاق على أن هذا تعليل لاتسام الآراء السياسية لكثير من المفكرين بالحماقة؟ كما يُقال أصاب توكفيل مرة بعد الأخرى!

اشتهر توكفيل بعدد من العبارات التي أصبحت نبوئية، مع أن هناك ادعاء بأن دوره النبوئي قوبِل بأكثر مما يستحق. دُحِضَت بعض نبوءاته، وبقت الدقة الشديدة التي يتسم بها البعض الآخر تُدهشنا، ومنها ملحوظته الشهيرة الآن التي كتبها في نهاية الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» عن أن الولايات المتحدة وروسيا هما الدولتان اللتان من المرجح أن تتصارعا على الهيمنة على الدول في القرن القادم.

> في الوقت الحاضر توجد في العالم دولتان عظيمتان تسيران إلى نفس النهاية، مع أنهما بدأتا من نقطتين مختلفتين؛ أشير بهذا إلى روسيا وأمريكا ... إذ يبدو أن كل الدول الأخرى وصلت تقريبًا إلى أقصى ما يمكنها أن تصل إليه، وهي مشغولة بالحفاظ على قوتها فحسب. أما هاتان الدولتان فلا تزالان في طور النمو، في حين أن كل الدول الأخرى توقف نموها، أو تواصل النمو بصعوبة شديدة، وهما تتقدمان بيسر وسرعة في مسار لا ترى له أعين البشر نهاية ... ومع أن نقطتي بدئهما مختلفتان ومساريهما متباينان، فاختارت مشيئة السماء كلًّا منهما لرسم قدر نصف الكرة الأرضية.

أصاب توكفيل مرة أخرى.

يرجع بعض الفضل في احتفاظ شهرة توكفيل بقوتها إلى حقيقة شيقة؛ وهي أنه لم يستطع أحد بعد كل هذه السنوات تحديد الفئة الفكرية التي ينتمي إليها أو الجزم بانتمائه الفكري. فهل كان عالمًا سياسيًّا، أم عالمَ اجتماع، أم مؤرخًا فلسفيًّا، أم مفكرًا مهتمًّا في المقام الأول بالمناورات الفكرية، أم سياسيًّا (فاشلًا تمامًا، كما سنرى) موهوبًا أدبيًّا؟ وهل كان نابغة يتمتع بحيادية نزيهة أم أرستقراطيًّا ساخطًا استطاع بالكاد أن يخفي تحت أناقة النثر الذي كتبه خيبة أمله من الأحداث العالمية؟ ألكسي هو هؤلاء جميعًا، هذا ما كتبه المؤلفون الذين درسوا أعماله وكتبوا عنه منذ بداية نجاحه عند نشر الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا»، وهو في الثلاثين من عمره.

لا يوجد أي إجماع على ميول توكفيل السياسية؛ فكل حزب سياسي يدعي انتماء توكفيل إلى معسكره، بالضبط كما يدعي انتماء جورج أورويل George Orwell — وهو أقل وزنًا من توكفيل — إليه. فالليبراليون يرونه ليبراليًّا، والمحافظون يرونه محافظًا، والتحرريون يرونه تحرريًّا، وهكذا. كتب جون لوكاش John Lukacs أنه «يمكن جمع قائمة شيقة بأسماء من يؤكدون أن توكفيل محافظ وليبرالي ومؤرخ وعالم اجتماع وأرستقراطي وبورجوازي ومسيحي ولا أدرِيّ (يؤمن بأنه لا يوجد سبيل إلى معرفة حقيقة القضايا الغيبية)، إذ إن هناك العديد من الأمثلة التي يناقض فيها المعلقون أنفسهم، وفي بعض الأحيان نجد أن توكفيل نُسب إلى فئات متناقضة في نفس الكتاب أو المقال أو العمل النقدي».

في معظم الأحوال يصبح توكفيل شخصًا شبيهًا بالكاتب الذي يصفه، أو على الأقل بما يعتقد الكاتب نفسه عليه، وهذا يعود بنا إلى الوقت الذي كان المؤلفون فيه يكتبون كتبًا عن السيد المسيح ثم يكتشفون — ويا للعجب! — أن السيد المسيح أول رجل إعلان عظيم إذا كان المؤلف رجل إعلان (كما في كتاب بروس بارتون Bruce Barton)، أو أن السيد المسيح هو أول صحفي عظيم إذا كان صحفيًّا (كما في كتاب لورد بيفربروك Lord Beaverbrook). على سبيل المثال يصف جون لوكاش توكفيل بأنه «مفكر مسيحي عظيم له قلب نبيل»، أما أنا فأرى أنه يتمتع بحس أدبي جميل وذهن حاد على نحو فريد، غارق في قلق وشك يهودي.

كُتب الكثير عن ألكسي دو توكفيل، بما في ذلك ثلاث سير مستفيضة نُشرت بالإنجليزية (نُشر أحدثها في عام ٢٠٠٦ بقلم هيو بروجان Hugh Brogan)، وتناول الباحثون في علم الاجتماع كل جانب تقريبًا من جوانب حياته وفكره بالتفصيل. فماذا سيقدم مؤلف هذا الكتاب الذي لا ينتمي إلى فئة الباحثين ولا علماء الاجتماع؟ لم أكن أنا نفسي واثقًا من الإجابة حتى صادفت جملة كتبها توكفيل عن كتاب يدور حول نابليون، خطط لكتابته، لكنه لم يعش ليتمه، هذه الجملة هي: «كل ما يلقي بالضوء على أفكاره واهتماماته وذاته الحقيقية يجذب انتباهي». وما أرمي إلى تحقيقه

فيما يتعلق بتوكفيل هو أن أحاول فهم ما جعله كاتبًا رائعًا؛ وهذه ليست بمهمة عسيرة التحقيق. ما الذي حدث في ماضيه وجعله يتناول موضوعاته هكذا؟ في هذا الكتاب آمل أن أستطيع فهم طبيعة ذلك العقل الرائع الذي كتب «الديمقراطية في أمريكا» وغيره من الأعمال. وبهذا آمل أن أتوصل إلى فهم أفضل للأسباب التي جعلت ألكسي دو توكفيل أحد أكثر الشخصيات جاذبية في تاريخ الفكر، وفهم ما جعله يحتفظ بجاذبيته حتى في وقتنا هذا.

الفصل الأول

ولد ألكسي شارل هنري كليرل دو توكفيل Alexis-Charles-Henri Clérel de Tocqueville في باريس يوم ٢٩ من شهر يوليه/تموز عام ١٨٠٥، وجاء إلى عالمنا بشق الأنفس، لا بسبب صعوبات واجهها أثناء ميلاده وإنما لأنه قبل مولده باثني عشر عامًا كاد «عهد الإرهاب» — حسبما يُطلق على العنف المنظم الذي انفجر في أعقاب الثورة الفرنسية — أن يقضي على والديه.

تزوج إيرفيه دو توكفيل Hervé de Tocqueville — والد ألكسي — من إحدى حفيدات كريتيان جييوم دو لامواينو دو مالشيرب Chrétien-Guillaume de Lamoignon de Malesherbes. ومالشيرب هو المحامي الذي دافع دفاعًا غير موفق عن الملك لويس السادس عشر Louis XVI المتهم بالخيانة أمام مجلس الثورة؛ وهو المحكمة التي شكلتها حكومة فرنسا الثورية لمحاكمة أعداء الدولة الجديدة. أما قبل الثورة فكان مالشيرب معروفًا في المقام الأول بأنه رجل الثقافة، الذي أعطى الموافقة الرسمية على طباعة «الموسوعة» الفرنسية العظيمة في عهد الملك لويس الخامس عشر Louis XV. وكان يراسل جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau ويرعاه. وأثناء عهد الإرهاب أُرسل مالشيرب وأخته وابنته وزوج ابنته وحفيدته وزوجها إلى المقصلة.

أطبق الثوار على إيرفيه دو توكفيل — الذي كان يبلغ واحد وعشرون عامًا — وزوجته لويز Louise وأعضاء أسرته في عزبة مالشيرب مساء ١٧ ديسمبر/كانون الأول عام ١٧٩٣ وسجنوهم في باريس. شاهد إيرفيه ولويز

دو توكفيل أعمامهما وعماتهما وأبناء عمومتهما يُساقون إلى «الحلاق» — كما عُرفت المقصلة — وقام الحظ بدوره في أن أفلتا من هذا المصير، بفضل الجدول الزمني لقائمة الدعاوى وسقوط روبيسبيير Robespierre من الحكم الذي جاء في وقت مناسب (لهما)، وأُعدِم روبيسبيير نفسه بالمقصلة في ٢٨ يوليه/تموز عام ١٧٩٤.

كان من آثار هذا الحادث المُرعِب — كما أشار كل من تناول سيرة توكفيل — أن اشتعل رأس إيرفيه دو توكفيل شيبًا وهو في العشرينيات من عمره. بعد انقضاء عهد الإرهاب اعتاد إيرفيه أن يغفو كل يوم من الساعة الثالثة حتى الرابعة عصرًا، لينسى ذكرى الساعة الثالثة والنصف؛ وهو وقت استدعاء الأرستقراطيين للمثول أمام المحكمة الثورية للاستماع إلى حكم إعدامهم. حطمت تجربة السجن أعصاب زوجته، ومع أنها حاربت لاستعادة صحتها فإنها لم تنجح أبدًا في استعادة توازنها العاطفي التام. كتب أندريه جاردان André Jardin — كاتب سيرة توكفيل الماهر — يقول: «في الروايات المتعددة التي وصلتنا عن [لويز دو توكفيل] نراها شخصية متقلبة وغير صبورة، كما يتضح أن لديها نزعة للإسراف، وأنها وقعت فريسة لنوبات صُداع نصفي، وعانت كآبة عميقة دائمة؛ كآبة بدت شائعة بين الناجين من عهد الإرهاب». لكن حتى في هذه الحالة الكئيبة كانت لويز تحاول أن تؤدي واجباتها تجاه الأسرة، وعُرِف عنها أنها كانت تساعد الفقراء. ورث ألكسي دو توكفيل عن والدته الكآبة التي غالبًا ما خيمت على روحها، وورث أيضًا نوبات القلق وضعف الصحة.

أصبح شباب ألكسي وشباب أخويه الكبيرين — إيبوليت Hippolyte وإدوار Édouard — مُعتمًا بسبب الثورة، وطاردته أشباحها وهو في مرحلة الرجولة؛ فكان يتساءل: لماذا قامت الثورة؟ وما الذي جاءت به؟ وما هي بالضبط آثارها الباقية على الحياة الفرنسية؟ كانت هذه التساؤلات من أبرز الموضوعات التي اهتم بها توكفيل في كتاباته.

كانت أراضي أسرة توكفيل وتاريخها راسيان منذ زمن بعيد في نورماندي. وكما هو الحال في المجتمعات الأرستقراطية قبل الثورة أيد إيرفيه

دو توكفيل الإصلاح الجذري للقوانين مع الحفاظ على الولاء لأسرة بوربون Bourbon الملكية واحترامها، فكان ينتمي إلى الحزب الموالي للسلطة، وخدم العرش في المدة التي استعادت فيها أسرة بوربون الحكم بين عامي ١٨١٤ و١٨٣٠؛ وكان هذا على حسابه الشخصي إلى حد بعيد. لكن في عاصفة الإرهاب العاتية لم يغفر التعاطف مع الإصلاح ذنب الانتماء إلى أسرة أرستقراطية. عندما نتفقد أسماء من أسلمتهم شفرة المقصلة إلى حتفهم نكتشف أن طريق العربات التي كانت تسوق الأرستقراطيين إلى المقصلة كان ممهدًا بنوايا نبيلة.

في خواطر ألكسي دو توكفيل العديدة حول نظام الحكم الأرستقراطي Ancien Régime (في العصر السابق للثورة الفرنسية) خص بالذكر الأرستقراطيين الذين تخلوا عن كل مسئوليات القيادة التقليدية المتعارف عليها في طبقتهم، محافظين فقط على امتيازات المكانة الأرستقراطية وادعاءاتها الفارغة ومتمتعين بها. لم تكن أسرته من هذا النوع من الأرستقراطيين، فعمل والده بالحكومة المحلية وقام بدور فعال فيها. كان من أقارب زوجة ألكسي الكاتب والدبلوماسي فرانسوا رينيه دو شاتوبريان François René de Chateaubriand، مؤلف «مذكرات ما وراء القبر» *Mémoires d'outre-tombe* وغيرها من الأعمال. سبق شاتوبريان ألكسي إلى زيارة أمريكا، وفي عهد الإمبراطورية عمل في روما دبلوماسيًّا ممثلًا للمصالح الفرنسية، وذلك في ظل حكومة نابليون (الذي هاجمه بعد ذلك ببراعة وبلا هوادة)، وبعد عودة الملكية عمل في حكومة لويس الثامن عشر Louis XVIII وشارل العاشر Charles X. كان شاتوبريان يرى أن الأرستقراطيين يمرون بثلاث محطات؛ محطة الواجب ومحطة الامتياز ومحطة التفاهة. لم يترك ألكسي دو توكفيل محطة الواجب أبدًا — مثله في ذلك مثل والده — إذ قام بمهام في مختلف الجمعيات التشريعية كلفته بها الحكومة، وعمل وزيرًا للخارجية لمدة قصيرة في عهد لوي نابليون Louis-Napoléon.

ولأن ألكسي هو الابن الأصغر ذو الصحة المتوعِّكة فقد شملته أسرته بحبها (يقول البعض إنه حتى مرحلة متأخرة من حياته كان يحمل ذلك الطفل المدلل بداخله.) أحب والده حبًّا لم تعكر صفوه المشاكل، بالرغم

من اختلاف وجهات نظريهما السياسية وتباين المناهج التي اتبعاها في كتابة التاريخ. كتب إيرفيه دو توكفيل عملين تاريخيين هما: «تأريخ فلسفي لعهد لويس الخامس عشر» *A Philosophical History of the Reign of Louis XV* و«دراسة لعصر لويس الخامس عشر» *Survey of the Reign of Louis XV*، وترك كتابًا يحتوي على مذكراته. توجد في مكتبة باينكي للكتب والمخطوطات النادرة Beineke Rare Book and Manuscript Library في جامعة ييل Yale صورة للوسيم إيرفيه دو توكفيل، يظهر فيها بشعره مصففًا إلى الأمام على الطريقة السائدة في عصره، مرتديًا وسام فيلق الشرف الفرنسي وواقفًا أمام مكتبه، وابنه الصغير ألكسي خلفه جالسًا على المكتب، ربما ليكتب ما يمليه عليه والده. توفي الكونت إيرفيه دو توكفيل وهو في الرابعة والثمانين من عمره، أي قبل وفات ابنه بثلاثة أعوام فقط.

كان الحديث عن الكتب والأفكار جزءًا لا يتجزأ من الجو العام في أسرة توكفيل. كانت الدقة في استخدام اللغة من الأشياء التي غرستها الأسرة في ذهن أبنائها منذ نعومة أظافرهم، ولم تتزعزع جذور هذا الغرس عند توكفيل أبدًا؛ فكان دائمًا ناقدًا يقظًا للغة واستخداماتها، وأصبح فيما بعد سوطًا يضرب على العبارات الفارغة والمصطلحات السياسية الخادعة التي لا تخدم إلا مصالح قائلها.

وفي ظل عودة الملكية البوربونية شغل إيرفيه دو توكفيل منصب الحاكم أو المسئول الإداري الأول في ديجون Dijon وميتز Metz وآميز Amiens وفرساي Versailles وغيرها من المدن. عندما كبر ألكسي لحق بوالده في بعض هذه المناصب، فتعلم منه مباشرة الكثير عن التفاصيل العملية لإدارة شئون البلاد اليومية. ويعد فهم توكفيل لتفاصيل آلية عمل الحكومة المعقدة أحد الميزات التي تضعه في مرتبة أعلى من كثير من المؤرخين الذين أرخوا للحكومات على مدار العصور، إذ إن افتقار هؤلاء المؤرخين إلى الخبرة العملية يجعلهم ليسوا إلا واضعي نظريات.

كان ألكسي مبكر النضج؛ فهو من الصبيان الذين يقرءون كتبًا تفوق عمرهم كثيرًا ويفهمونها. نال أثناء دراسته العديد من الجوائز التي تحتل

مكانة القلب في نظام المدارس الثانوية الفرنسية. لم يكن مبكر النضج أو تلميذًا جيدًا فحسب، بل كان أيضًا عميق التفكير منذ نعومة أظافره. قال الناقد الأدبي الفرنسي العظيم سانت بوف Sainte-Beuve إن توكفيل من ذوي العقول التي «تفكر قبل أن تتعلم». في المرحلة التالية من حياته نجد أن قوة إدراكه وقدرته على التأمل المكثف مكنتاه من المثابرة على دراسة ما رآه وقرأه، حتى أصبح قادرًا على استخراج إجابات مقنعة للأسئلة التي تطرحها عليه مشاهداته.

يعد التعليم الذي تلقاه ألكسي على يد الأب ليسيور Abbé Lesueur الذي عمل مدرسًا له، وكان من قبل مدرسًا خاصًّا لوالده؛ من العوامل التي أدت إلى العمق الذي أظهره في وقت مبكر وتميز به بين مختلف المفكرين. وبالرغم من رقة الأب مع تلميذه الصغير، فإنه نجح في أن يجعل ألكسي يعي درس الخطيئة الأصلية، ويتشبع بإدراك عميق لحقيقة أن فعل الصواب يتطلب التحلي بالصفات الأخلاقية. وفيما بعد استنتج ألكسي عند تأمله للصلات بين المجتمعين السياسي والمدني أن التحلي بالصفات الأخلاقية لا غنى عنه إذا كان الإنسان يطمح إلى ممارسة الحرية على نحو مستنير وشريف. كان الأب ليسيور يجمع بين رقي السلوك وتطرف الآراء؛ ففي الدين كان يؤيد سيادة البابا المطلقة، وفي السياسة كان يؤيد الملكية بتعصب. فاستقى توكفيل من الأب رؤيته المتشائمة للطبيعة الإنسانية وإيمانه الراسخ بأن كرامة الإنسان لا تسمو إلا إذا بذل جهدًا دءوبًا.

عندما توفي الأب ليسيور كتب ألكسي إلى أخيه إدوار يقول: «كان دائمًا ما يشاطرنا مشاكلنا ومشاعرنا وهمومنا، مع أنه لم يكن هناك ما يربطه بنا سوى رغبته [في الارتباط بنا. كان رجلًا] يكرس كل أفكاره ومشاعره لنا وحدنا، وبدا أنه يحيا من أجلنا فقط.» يعتقد البعض — ومنهم شاتوبريان — أن الأب أفسد ألكسي. كان الأب يرى فيه ملكاتٍ عظيمة حتى وهو في سن صغيرة، وبالطبع لم يكن مخطئًا في هذا.

استقى ألكسي أفكاره عن الدين من الأب ليسيور ومن والدته، التي وجدت في الدين مأواها الوحيد في عالم غير آمن ما فتئ يحوم حوله خطر

الإرهاب. في كتابات ابنها نرى أن الدين عامل أساسي في تحريك المجتمعات التي تؤدي وظائفها أداءً جيدًا؛ إذ لا يمكن إنكار الدور الذي يضطلع به بصفته البوصلة الأخلاقية للإنسان. أما عن آراء ألكسي الدينية الخاصة فكان يتأرجح بين الإيمان والإلحاد؛ فنجده في بعض الأوقات يميل إلى تبني الرؤية اللأدرية حيال وجود إله، وفي أوقات أخرى يميل إلى أن يعيد الدين مركزًا لحياته.

لو أن ألكسي دو توكفيل نشأ في أسرة تتمتع باستقرار مادي أكبر، فربما أصبح مؤرخًا أقل عظمة. لم يضطر توكفيل أبدًا إلى العمل من أجل توفير نفقاته الخاصة، لكنه لم يكن أبدًا واسع الثراء. فبعد خروج إيرفيه دو توكفيل من السجن وجد أن أغلب ثروة عائلته استنزفها الاحتيال الثوري، الذي نهب البيوت وسرق البضائع واستنزف الأراضي وصادرها. كان ألكسي شاهدًا على كفاح والده المرير لإعادة عائلته إلى حالة مادية جيدة، ذلك الكفاح الذي لم يثمر إلا بعد أكثر من ربع قرن من الكياسة الشديدة والتعامل اللبق مع أعضاء أسرته المولعين بالخلاف. وفي كتابات ابنه نجد أن الأمور المادية البسيطة — كالضرائب والترقي في الوظائف والكماليات الابتزازية — تقوم بدور مهم في القرارات السياسية الحاسمة وما يتبعها من أحداث خطيرة. على سبيل المثال كان توكفيل يرى أن تحقيق المصالح الشخصية يمثل لأغلب الأشخاص دافعًا أقوى للثورة من دافع الفوز بالحرية التي يَعِد بها التغيير السياسي الجذري. سيكتب بعد ذلك ويقول: «فرنسا هي وطن المهمومين، لكل إنسان فيها رغبات وأحلام تافهة أكثر مما لديه من أموال (تساعده على تحقيقها)»، وهي ملاحظة لم تفقد شيئًا من صحتها حتى يومنا هذا.

كانت روح الولاء للملكية تخيم على منزل توكفيل، إذ يذكر أندريه جاردان أن توكفيل كان يتذكر أسرته وهي تغني أغنية عن القبض المُؤسف على لويس السادس عشر، وذلك بعد سنوات من مصرعه، تجعل كل من في الحجرة يبكون. كانت أسرة توكفيل تدين بالولاء لأسرة بوربون وترى أن أسرة أورليان House of Orléans غير جديرة بالتأييد، واعتادت لويز دو توكفيل أن تشير إلى الملك الأورلياني لوي فيليب Louis-Philippe

باسمه المجرد «فيليب» احتقارًا له. كانت والدة ألكسي أكثر والديه ميلًا إلى الأورثوذوكسية في تفكيرها والأكثر تشددًا في كاثوليكيتها والأشد ولاءً للملكية.

لم يؤثر أخوَي ألكسي الأكبر منه سنًّا عليه تأثيرًا عميقًا كما يفعل الأخوة الكبار عادة. فكان أخوه الأكبر — إيبوليت الذي يكبره بثمانية أعوام — نموذجًا فرنسيًّا للفتى الجنوبي الصالح؛ كان رجلًا عسكريًّا، ثم أصبح مغامرًا سياسيًّا يغير آراءَه كما يغير ملابسه دون تردد مع أنه دائمًا ما كان مخطئًا. أما عن مزاجه وعقليته فكان يمثل توجهًا عكسيًّا — إن لم يكن مضادًا — لتوجه ألكسي. هكذا كان ألكسي أقرب إلى أخيه إدوار الذي كبره بخمس سنوات وتميز بفكر أعمق من فكر إيبوليت، وهذه ليست بمنزلة فكرية يصعب الوصول إليها على أي حال. في الأعوام التالية كتب إدوار في الهندسة الزراعية، وكان حريصًا على الحفاظ على التوافق بين مبادئه المسيحية ومصالحه وأحلامه الاقتصادية (تزوج امرأة غنية جدًّا). اهتم ألكسي — الذي لم يمن الله عليه بنعمة الأبناء — اهتمامًا كبيرًا بأبناء إدوار وبتعليمهم وبحياتهم المهنية. وكانت علاقته بإدوار حميمة، غير أننا لا نملك دليلًا على أن تلك الحميمية كان لها تأثير ملموس على تطور عقله؛ ومع هذا علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن العباقرة — وأعتقد أن توكفيل أهل لأن يكون عبقريًّا — غالبًا ما يتأثرون بالمؤثرات الغريبة والعرضية أكثر من المؤثرات التقليدية.

في مرحلة ما استقرت لويز دو توكفيل في باريس كي توفر لأسرتها محل إقامة دائم، بينما سافر زوجها سعيًا خلف وظائفه القيادية المختلفة. وفي عام ١٨٢٠ طلب إيرفيه دو توكفيل — الذي كان في ذلك الوقت حاكمًا على ميتز — بدافع من حنينه إلى أسرته أن يَلحَق به ألكسي، أكثر أبنائه ذكاء. في المدرسة الثانوية في ميتز درس ألكسي مادة البلاغة على يد مسيو موجان Mougin الذي كان يؤكد على أهمية تعلم الأدب الكلاسيكي — الإغريقي والروماني — ووجه تلميذه الموهوب إلى دراسة التاريخ. كان من ثمار ذلك بالطبع أن أصبح ألكسي أحد أعظم المؤرخين

الفرنسيين؛ فهو مؤرخ فلسفي لا يهتم بقصص التاريخ بقدر اهتمامه بمغزاها، مؤرخ قامت الأفكار الكلاسيكية العظيمة عن الطموح والحرية والفضيلة العامة والطغيان والمساواة بتشكيل اهتماماته وميوله الفكرية. بعد سنوات طويلة حينما كان توكفيل يكتب بحثًا عن كتابه الذي يتناول الثورة الفرنسية (والذي لم ينهه أبدًا) انتقد كاتبًا يدعى هوكثوزان Hauxthausen كان يكتب عن روسيا، قائلًا إن عقله: «عقل بلا عمق ولا إنصاف»، أما عقل ألكسي دو توكفيل فقد تدرب منذ نعومة أظافره على اكتساب هاتين الصفتين.

لا نعرف الكثير عن حياة توكفيل الطلابية في ميتز، فكل ما نعرفه يتلخص في أنه جُرِح في مبارزة مع زميل له وهو في الثامنة عشرة من عمره، لكن لا علم لنا بسبب تلك المبارزة. ونعرف أيضًا أنه دخل في علاقة غرامية استمرت مدة خمس سنوات مع شابة مفعمة بالحيوية تدعى روزالي ميل Rosalie Mayle، وكانت أسرة الفتاة تنتمي إلى طبقة اجتماعية أقل من طبقته، لذا كان زواجهما سيُنظَر إليه على أنه زواج غير متكافئ للغاية.

وأثناء المدة التي قضاها توكفيل في ميتز مر وهو في السادسة عشرة من عمره بأزمة فكرية، بل وروحية حكاها في مرحلة متأخرة من حياته لآن صوفي سويتشين Anne-Sophie Swetchine، وهي مواطنة روسية كانت تقيم صالونًا أدبيًّا في باريس وأصبحت أمينة سره. تتمثل الأزمة في أن الشكوك داهمت روحه أثناء قراءته في مكتبة الحاكم، حيث وقعت في يده مؤلفات فولتير Voltaire وبافون Buffon وغيرهما من الفلاسفة، فهاله ما رآه في كتبهم. وإذا بالصبي الذي تربى تربية جيدة بحيث يثق في إيمانه بالكنيسة ويحترم الملكية وكل شيء في عالمه على ما يرام؛ يكتشف فجأة أن كل ما كان يؤمن به ليس راسخًا كما كان يظن، وأن المؤسسات الاجتماعية ليست مقدسة ولا مبجلة بحكم التقاليد، لأنها من صنع الإنسان ولذا يسهُل عليه أن يفككها. واكتشف أن الدين ما هو إلا اختراع من اختراعات الإنسان وأحد العراقيل أمام العقل، وأن العلم وحده يحتفظ بكل أسرار الكون الهامة، «وفجأة وجدت نفسي في خضم ذلك الشعور الذي

يعايشه من هم بقلب زلزال، إذ ترتعد الأرض تحت أقدامهم والجدران من حولهم والأسقف فوق رءوسهم والأثاث أسفل أيديهم وكل مظاهر الطبيعة أمام أعينهم. فاجتاحتني كآبة، تلاها استياء شديد من الحياة»، هذا ما كتبه لمدام سويتشين وهو في الحادية والخمسين من عمره.

ضيقت الشكوك الخناق على الشاب ألكسي، وطاردته في جميع أوقاته وهو المفكر الذي يبدو أكثر ثقة في آرائه من بين كل المفكرين، وغالبًا ما تحول الشك تدريجيًّا إلى قنوط. كان لتوكفيل عقل يفترس نفسه افتراسًا يتسم في بعض الأحيان بضراوة شديدة تجعله يظن أنه جُن. فكتب إلى صديقه العزيز جوستاف دو بومون Gustave de Beaumont الذي صاحبه في رحلته إلى أمريكا؛ أنه كان يمر بلحظات يشعر فيها بعذاب أليم، وأنه لا يكاد يتحكم في نفسه. وكان ألكسي يعتبر الشك ثالث أعظم أهوال الحياة بعد الموت والمرض مباشرة.

كان توكفيل دائمًا ما يبث شكوكه إلى لوي دو كيرجورلي Louis de Kergorlay، الذي كان أحد أعز أصدقائه، وكانت تربطهما صلة قرابة بعيدة. كان توكفيل يكنّ احترامًا عظيمًا لعقل كيرجورلي، فهو مفكر له قدرة عقلية عظيمة على حل المشكلات وإن لم يتسن له أبدًا إتمام أي مُؤَلف خاص به، ولهذا لجأ إليه توكفيل أكثر من مرة ليساعده في حل مشكلاته. تعد الصداقة من الأشياء المهمة لتوكفيل، فكتب عن «شعور الصداقة الجميل» وهو يفكر في كيرجورلي، مضيفًا أنه كلما تقدمت به السن ازداد إيمانه بأن الصداقة — كما فهمها — تستطيع بالفعل أن تحيا وأن تحافظ على مميزاتها، ليس بين جميع البشر بالطبع وإنما بين البعض.

ساهمت الأزمة التي مر بها توكفيل وهو في السادسة عشرة من عمره في أن يتشبع، وهو لا يزال في مستهل عمره؛ بفهم فريد في دقته لأحوال الحياة. فكتب إلى شارل — شقيق صديقه أوجين ستوفل Eugène Stoffels — عندما كانت تعصف به كآبة شديدة يقول: إنه يعرف ما يمر به شارل لأنه سار في نفس الطريق الأسود. ويتابع قائلًا إن معظم الأشخاص يأملون الحصول على الكثير من الحياة أو يخافون الكثير مما تجئ به، لكن القليل منهم

يعيشون سعداء أو تعساء إلى الأبد. «لذا فالحياة ليست رائعة ولا كريهة، لكنها — إن صح التعبير — شيء «وسط» بين الصفتين جامع لهما. فيجب على الإنسان ألا يتوقع الكثير منها ولا يخشى الكثير أيضًا، وإنما يحاول أن يراها كما هي — بلا ازدراء لها ولا حماس — مثلما ينظر إلى الواقع الحتمي الذي لم يتسبب في حدوثه، ولن يستطيع أن يمنعه، وإنما عليه أن يتحمله، وهذا هو الأهم.» ويقول توكفيل إنه لم يتوصل إلى تلك النظرة «دون المرور بصراعات داخلية عنيفة»، وإنه أيضًا لم يستطع التمسك بها طوال الوقت، لكن تحليله النهائي هو أن «الحياة ليست فرحة ولا حزنًا؛ لكنها أمر جاد نتحمل مسئوليته، ويتمثل واجبنا نحوه في أن نبذل قصارى جهدنا»، هذا ما كتبه توكفيل عام ١٨٣١ وهو في السادسة والعشرين من عمره.

تسببت الأزمة التي مر بها توكفيل في ميتز في أن يتزلزل إيمانه الديني الراسخ، مما خيب أمل الأب ليسيور كثيرًا. وعندما قرأ للمفكرين الأحرار اهتزت ثقته في رفعة قيم الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، وهي الطبقة الأرستقراطية الفرنسية. وبالرغم من ذلك فإن تلك الأزمة كانت مفيدة — وإن كان مروره بها وهو في مرحلة المراهقة جَهَنميًّا — إذ حولت ألكسي الشاب إلى رجل كرس نفسه لدراسة آلية عمل مجتمعه دراسة استغرقت حياته كلها. لم يعد يسلم بصحة أي هيكل اجتماعي أو حدث سياسي؛ لأنه آمن أن الله أرسى بعض النظم التي تضبط حياتنا، وحدد المعالم الرئيسية لمصير الإنسان، لكنه ترك الكثير من الأمور في يد الإنسان، مانحًا له خيار توجيهها إلى الأفضل أو إلى الأسوأ. فكرس توكفيل حياته لمحاولة التأكد من أن الإنسان سيوجه تلك الأمور إلى الأفضل لا إلى الأسوأ، وسَخَرَه التفاعلُ اللانهائي بين القوانين والأعراف والمصالح والمؤسسات التاريخية والأحداث التي تضفي على كل مجتمع صفاته المميزة وبالتالي شخصيته. وأصبحت شخصية المجتمعات الموضوع المهم الذي شغل توكفيل، وأصبح فهم تعقيداتها الغنية عمل العمر.

الفصل الثاني

لأن ألكسي دو توكفيل ينتمي إلى عائلة أرستقراطية كانت التقاليد تقضي بأن يشغل وظيفة عسكرية كما فعل أخواه الأكبران، غير أن والده كانت له أحلام أخرى بشأن أصغر أبنائه وأعمقهم فكرًا؛ فكان يحلم بأن يشغل ابنه وظيفة سياسية. كان من شروط الحصول على عضوية المجلس الوطني في عهد حكومتي الملك لويس الثامن عشر وأخيه شارل الخامس اللتان تشكلتا عقب الهزيمة النهائية لنابليون؛ أن يبلغ المرء الأربعين من العمر. في ذلك الوقت كان ألكسي يدرس القانون، لكنه أقدم على هذا بلا حماس. بعد استيفاء متطلبات دراسة القانون ساعد نفوذ والده على تعيينه قاضي استماعٍ ملحقًا بمحكمة في فرساي في عام ١٨٢٨، وهو في الثانية والعشرين من عمره.

كان نظام المحاكم الفرنسية قائمًا على التسلسل الهرمي الذي يعتمد على الأقدمية، ويأتي على رأسه رئيس المحكمة أو القاضي الرئيسي يليه نائبه، ثم سبعة قضاة آخرون يتلونه في الدرجة الوظيفية، ثم ثلاثة مدّعون عموم، وفي النهاية يأتي أربعة قضاة استماع. لم يكن قضاة الاستماع يتقاضون راتبًا، وكانت مسئولياتهم تتراوح ما بين القيام بمهام الكاتب وعمل التحقيقات، وبين مراجعة حافظة المستندات والقيام مقام القضاة.

كانت المحاكم تفتتح أعمالها كل عام بخطبة يلقيها قضاة الاستماع حول قضية عامة. وفي الخطبة التي ألقاها توكفيل تناول قضية المبارزة. قال أندريه جاردان إن ألكسي الشاب أوضح في خطبته أنه لا يُرجى أن ينجح القانون في القضاء على المبارزة ما دامت الأعراف القومية تحبذها،

أي ما دامت الكرامة الشخصية لا تزال تُرى على أنها أهم من قضاء عقوبة بسبب قتل إنسان. ولأن توكفيل مؤمن بأنه من غير المحتمل أن يتم القضاء على هذه العادة، حتى يأتي الوقت الذي ينجح فيه الدين في حث الناس على عدم تسوية خلافاتهم بالعنف، فقال: «أَعِد صنع الإنسان قبل أن تُعيد صنع المواطن ... حينها سيصبح لديك قوانين فعالة». مع أن توكفيل كان في بداية حياته العملية عندما ألقى هذه الخطبة، فإنها كانت مميزة للغاية وتوكفيلية، إن صح التعبير. فالقوانين عادة ما تفقد معناها إن لم يكن لها ما يؤيدها من الأعراف؛ وبالتالي تفقد أهميتها.

لم يكن توكفيل يتمتع بموهبة فطرية تعينه على العمل في القضاء؛ فكان يفتقر إلى موهبة الفصاحة الطبيعية، الأمر الذي سيخذله بعد ذلك في مواقف أكثر حسمًا في حياته المهنية عندما سيصبح سياسيًّا في البرلمان. ولأن توكفيل اتصف بالخجل والتحفظ والميل إلى السخرية، فقد كانت تصرفاته تُفسر على أنها غير ودية، حتى إن الرسومات والصور التي تعود إلى هذه المدة تُظهر فمه رفيع الشفتين وتبدو عليه أمارات الازدراء. وزادت عدم قدرته على شغل نفسه بالأمور التي اعتبرها تافهة من مشكلة عدم تحليه بالود، فهو مفكر نخبوي حتى النخاع، ليس من طبعه التظاهر بالاهتمام بالناس الذين يرى أنهم عاديون.

أما عن القانون فلم يهتم توكفيل بالتطبيق المجرد لمبادئ القانون بقدر اهتمامه بتطبيق الأحكام الأخلاقية، وهو ما مهّد لظهور الطابع الأخلاقي في كتاباته الناضجة. أصبح يزدري مهنة المحاماة قليلًا؛ فأشار ذات مرة إلى المحامين على أنهم «أرواح حذرة ذابلة مختفية تحت أردية سوداء». كان أداؤه في محكمة فرساي ضعيفًا جدًّا، حتى إنهم تخطوه عندما حان وقت ترقيته إلى منصب نائب المدعي العام، وعندما اعتزل القضاء بعد ذلك بأربع سنوات، عندما عاد من رحلته الشهيرة إلى أمريكا الشمالية؛ كان العمل في القضاء لا يدر عليه إلا دخلًا ضئيلًا.

كان المكسب الحقيقي الذي جناه توكفيل من هذه المهنة هو الصداقات التي عقدها مع زملائه من قضاة الاستماع، وخاصة تلك الصداقة التي

نمت بينه وبين جوستاف دو بومون، وهو رجل تمتع بموهبة أدبية ومهارة عالية في الرسم، وكان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية مثل ألكسي وتزوج حفيدة لافاييت Lafayette. تنتمي أسرة بومون إلى الطبقة الدنيا من النبلاء التي نشأت على تحمل المسئولية؛ كان والده الكونت جول دو بومون Jules de Beaumont عمدة مدينة سارت Sarthe التي تقع في غرب فرنسا. كان لجوستاف دو بومون صدرًا رحبًا ووجهًا سمحًا جذابًا، وهو رجل اجتماعي ينسجم مع أية صحبة، له بنيان ضخم قوي وطبع حسن سهل، وبهذا يختلف طبعه اختلافًا تامًّا عن طبع توكفيل المنطوي المتحفظ. غير أن العلاقة بينهما نشأت في الحال، واستمر إخلاص أحدهما للآخر طوال حياتيهما.

كتب هاينرش هاينه Heinrich Heine في كتابه «الألمانية والفرنسية» *Allemands et Français* عن صداقتهما في مرحلة متقدمة من علاقتهما، فقال: «إن السيد بومون يتمتع إلى حد بعيد بما يفتقده توكفيل في الجانب العاطفي من شخصيته؛ فهذان الرفيقان المتلازمان اللذان دائمًا ما نراهما معًا في أسفارهما وفي عالم الكتب وفي مجلس النواب يكمل أحدهما الآخر على نحو رائع؛ فأحدهما المفكر الصارم والآخر رجل المشاعر المتدفقة. وهما منسجمان كما ينسجم الخل والزيت.» قد يكون ذلك التشبيه الذي يستحضر صورة توابل السلطة مبالغًا في تصوير جفاء توكفيل وصرامته وتحفظه، وهذا ما يؤكده عمق الصداقة بينه وبين جوستاف دو بومون.

ومع أن بومون كان يكبر توكفيل بثلاثة أعوام، فإن نموهما السياسي كان يسير في خطى متوازية تقريبًا، وفي ذاك الحين كان ما تبقى من ولاء الرجلين للطبقة التي ولدا فيها قد بدأ يخر أمام الليبرالية الصاعدة، فحاولا معًا أن يشقا بالقراءة والتفكير طريقهما خارج المأزق الذي أوقعتهما فيه مرحلة الاضطراب السياسي الكبير.

كوّن توكفيل وبومون مجموعة دراسة من شخصين، وقرءا معًا في التاريخ الإنجليزي والاقتصاد السياسي، وحضرا محاضرات ألقاها فرانسوا جيزو François Guizot في باريس عام ١٨٢٨ عن الحضارة الفرنسية،

أكد فيها أن الطبقتين الوسطى والدنيا اللتين تشكلان الطبقة الثالثة — أما الطبقتان الأولى والثانية فهما طبقتا النبلاء ورجال الدين على التوالي — تقطعان خطى ثابتة في الطريق إلى توطيد عرى المساواة في فرنسا. وفي الرؤية التي يطرحها جيزو نجد أن النواة المُشكّلة للتاريخ هي الارتقاء، وهذا يتطلب إلغاء الامتيازات وتوزيع السلطة بين الجميع. وغمرت سعة إدراك جيزو كلًّا من توكفيل وبومون؛ وخاصة توكفيل. كان جيزو يرى أن كل إنجازات الإنسان من مؤسسات سياسية وقوانين وفنون وتركيبات فكرية وتأثير الدول الأجنبية عليه ما هي إلا حنطة لطاحونة التاريخ.

في ذلك الوقت أجبر التاريخ توكفيل وبومون على إبداء موقفهما من ثورة يوليه/تموز في فرنسا. اندلعت تلك الثورة نتيجة للحماقة الشديدة لشارل الخامس؛ فبعد أن وضع قائمة بوزراء ملكيين يبغضهم الشعب فرض ما عرف بالأربع قرارات الشهيرة؛ التي يقمع بموجب أولها حرية الصحافة، ويحل بموجب ثانيها مجلس النواب، ويعدل بموجب ثالثها القوانين الانتخابية لتلائم مصلحته، ويحدد بموجب رابعها موعدًا للانتخابات يسبق الموعد الذي كان محددًا. أدى هذا إلى حدوث انقلاب، ووُضِعت المتاريس في شوارع باريس، وبعد ثلاثة أيام من العصيان المسلح — من ٢٨ حتى ٣٠ يوليه/تموز — حُسم الأمر، ولم يفلح الرجوع عن تلك القرارات في إنقاذ شارل الخامس، فغادرت مركبته باريس في أوائل شهر أغسطس/آب والطين يلطخ شعار النبالة البوربوني المعلق على بابها. راقب ألكسي دو توكفيل بنفسه ذاك المشهد بمشاعر شديدة التباين.

كان خلَف شارل الخامس هو دوق أورليان الذي أصبح الملك لوي فيليب، ولم تعد الملكية في فرنسا «عقيدة»، كما قال شاتوبريان قريب توكفيل. فاختيار لوي فيليب وإعفاء شارل الخامس عنى أن الفرنسيين فضلوا رجلًا برجوازيًّا على ملك أرستقراطي، كما أن هذا الملك لم ينل الرضى إلا بعد أن وافق على طلبات الطبقة الثالثة كشرط لاعتلائه العرش. كانت الملكية التي أرستها ثورة يوليه/تموز ملكية دستورية؛ أي أن الملك لم يعد المصدر الأوحد للسلطة، بل إنه أصبح للمرة الأولى في التاريخ الفرنسي

يتصرف حسب رغبة الشعب الفرنسي. ولم تعد الملكية وراثية، وتمتعت المجالس التشريعية بنفس سلطة الملك في سن القوانين، وأُلغي قرار جعل الكاثوليكية الديانة الرسمية للدولة، وتم التوسع في منح حقوق التصويت على نحو كبير. بل إن اختيار اسم لوي فيليب الأول بدلًا من فيليب السابع أشار إلى الانفصال عن الماضي وإعادة توزيع الأوراق.

مثّل تولِّي لوي فيليب السلطة مشكلة لتوكفيل وبومون؛ إذ إن عائلتيهما كانتا تكنان ولاءً راسخًا لأسرة بوربون، وكانتا تريان أن عائلة لوي فيليب — أسرة أورليان — هي موضع ريبة شديدة. فأسرة أورليان تعاطفت مع الثورة الفرنسية — إن لم تكن قد انحازت لها تمامًا — وحقيقة أن والد لوي فيليب أُعدم آخر الأمر بالمقصلة في عصر الإرهاب لا ينفي ذلك. في الواقع لعب لوي فيليب دور زعيم الثورة، وهو ما يعني أنه كان زعيمًا للبرجوازيين الأغنياء الذين جاءت زيادة نفوذهم مصاحبة لاعتلائه العرش.

لكي تُحكِم الحكومة الجديدة قبضتها على الحكم طالبت كل من يعمل لديها بأن يقسم بولائه لها، بما في ذلك قضاة الاستماع الذين كان من بينهم توكفيل وبومون. فصار عليهما أن يقفا على منصة ويحلفا القسم علانية. كان توكفيل يرى أن حماقة شارل الخامس السياسية جعلته يستحق أن يفقد منصبه، ومع أن موقفه الجديد كان يميل أكثر إلى الليبرالية، فإن ضغط الأسرة عليه جعل حلف القسم أمرًا ليس باليسير. كان إيرفيه دو توكفيل قد استقال من منصبه عندما أصبح لوي فيليب ملكًا، وقامت أسرة ألكسي وأصدقاؤه بمطالبته بالامتناع عن الحلف، لكن أحلامه المهنية كانت مهددة. لذا رضخ هو وبومون في النهاية، وكتب إلى ماري موتلي Mary Mottley — وهي المرأة الإنجليزية التي كان يتودد إليها وتزوجها في النهاية — يقول: «حلفت القسم أخيرًا، وضميري لا يؤنبني، لكنني لا أزال أشعر بجرح عميق، وسأعد ذلك اليوم من أتعس أيام حياتي ... إذ إنني في حرب مع نفسي، وهذه حالة جديدة عليَّ تملؤني بالرعب.»

غير أن توكفيل وجد أن التعهد بالولاء للوي فيليب أسهل كثيرًا من العمل الفعلي لديه، وكان الوقت يبدو مواتيًا لأن يبعد نفسه — ولو مؤقتًا — عن

ساحة الحكومة. فجاء هو وبومون بفكرة حاذقة وهي السفر إلى أمريكا الشمالية لدراسة نظام العقوبات في الجمهورية الجديدة، الذي قيل إنه يمثل دليلًا مرشدًا في طريق المستقبل. كانت السجون في فرنسا موضعًا للكثير من النقد؛ فهي ملجأ نموذجي للمجرمين ومكان لتخزينهم، وبذلك أصبحت تربة خصبة للجريمة. أما في أمريكا فكانت المؤسسات العقابية مهتمة في المقام الأول بإعادة تأهيل وتهذيب نزلائها، لذا لاقت فكرة إرسال هذين القاضيين الشابين ليكتشفا سبل تطبيق ذلك في الولايات المتحدة قبولًا لدى الحكومة الجديدة. ودارت مناقشات كثيرة حول من سيتحمل نفقات الرحلة، وكان توكفيل وبومون قد وافقا في الأصل على تحملها لحرصهما على الخروج من البلاد، وحينما طمعا بعد ذلك في أن تسدد الحكومة فواتيرهما لم ينالا ما أرادا، ووافقت الحكومة في النهاية على السماح بحصول توكفيل وبومون على إجازة لمدة ثمانية عشر شهرًا للبحث في طرق معاملة المجرمين في أمريكا وكتابة تقرير عنها.

في خطاب كتبه توكفيل لشارل ستوفل — وهو خطاب يرتفع فيه صوت الذات وهي تتحدث إلى نفسها — واقتبسه أندريه جاردان؛ يُقدر توكفيل القيمة المنتظرة من الرحلة التي يخطط للقيام بها إلى أمريكا قائلًا: «إن الرحلة في حد ذاتها تأخذك [يقصد نفسه بالطبع] بعيدًا عن الطبقة الاجتماعية التي اعتدت عليها، فما تتعلمه في هذه الدولة الشهيرة يميزك عن الآخرين. لكنك في هذه الرحلة تتعلم ماهية الجمهورية الكبيرة، ولماذا يمكن تأسيس النظام الجمهوري في مكان ولا يمكن ذلك في مكان آخر، وتدرس مختلف مناحي الإدارة العامة كلًّا على حدة، وعندما تعود إلى فرنسا ستشعر بقوة لم تكن تتمتع بها عندما غادرتها. وإذا كان الوقت مناسبًا فربما يؤدي مؤلف تنشره إلى لفت أنظار العامة إليك، وإلى لفت انتباه الأحزاب [السياسية التي نشأت حديثًا] إليك».

كان ألكسي دو توكفيل يهتم دائمًا اهتمامًا بالغًا بحياته المهنية، وكان السفر إلى أمريكا بزعم دراسة السجون بمنزلة ما يمكن أن نقول عليه اليوم نقلة جيدة في حياته المهنية. فتلك الرحلة التي أثمرت كتاب «الديمقراطية

في أمريكا» ستصنع شهرته، جاعلة منه لما تبقى من حياته مفكرًا يحتل مكانة عالية بين من يشغلون فكرهم بمشاكل الحكومة المعقدة في أوروبا والعالم.

الفصل الثالث

سافر توكفيل وبومون إلى شمال أمريكا في ٢ أبريل/نيسان عام ١٨٣١. وأبحرا من مدينة لو هافر Le Havre على متن سفينة أمريكية بطاقم يضم ثمانية عشر شخصًا و١٦٣ راكبًا، لم يحصل على مقصورات منهم سوى واحد وثلاثين شخصًا (من بينهم توكفيل وبومون).

أحضر الشابان المبعوثان — كما عُرِفا رسميًّا — ملابس ملائمة للأحوال الجوية المختلفة، من بينها المعاطف وكل أنواع الأحذية وملابس يرتديانها في حضرة المجتمعات الراقية، وأخذا معهما الكثير من المفكرات الصغيرة وبنادق خفيفة للصيد، و(أحضر بومون معه) مزمارًا وأقلام رصاص وكراسة رسم. وحمل الاثنان أكثر من سبعين رسالة تعريف لعدة مسئولين وأشخاص مهمين. أعطى الأب ليسيور — الذي كان في الثمانين من عمره في ذلك الوقت — كتاب الصلوات لتلميذه الشارد والمحبوب، وكتب عليه إهداءً يعرب فيه عن أمله في أن يلتقيا يومًا ما في الجنة.

أصيب توكفيل بدوار البحر في الأيام القليلة الأولى التي قضاها بعيدًا عن الشاطئ بسبب سوء الأحوال الجوية. وفي رحلة سابقة إلى جزيرة صقلية أبحر توكفيل مع أخيه إدوار في عاصفة بلغ عتوها حدًّا جعل الركاب يعتقدون أنها ستنهي حياتهم. ولأن توكفيل كان يفتقر إلى الإيمان الديني كقوة حافظة للحياة، فقد اعتصر قلبه الشعور بقوة الطبيعة العاتية في مقابل عجز الإنسان أمام ما أسماه قوة السماء القهارة. حكى في كتاب «الديمقراطية في أمريكا» عن زيارة قام بها لجزيرة مهجورة في نيويورك

كان رجل وزوجته قد عاشا فيها ذات مرة لكنها أُعيدت إلى براثن الطبيعة ثانية، وقال: «تعجبت لبعض الوقت في صمت من القدرة الخلاقة للطبيعة ومن ضعف الإنسان، وعندما اضطررت في النهاية إلى الرحيل عن هذا المكان المسحور، غمغمت لنفسي بحزن قائلًا: يا للعجب! أصبحت خرابًا بالفعل!» أشار توكفيل مرة أخرى إلى قوة الطبيعة العاتية المرعبة عندما اجتاز غابات ميتشيجان الشمالية Michigan الكثيفة، مؤكدًا على ضعف الإنسان المثير للشفقة أمام قوة الطبيعة. تتكرر تلك الفكرة في كتاباته، إذ يقول إن قوة الطبيعة جبارة وبنية الحضارة هشة.

استغرقت الرحلة البحرية ثمانية وثلاثين يومًا؛ أي وقتًا أطول بأيام قليلة مما تستغرقه رحلات المحيط الأطلنطي عادة، وكان نصيب الركاب من الضجر قد وصل في النصف الأول من الرحلة إلى درجة عالية للغاية. لا نملك قائمة كاملة بأسماء ركاب السفينة، لذا فنحن لا نعرف أسماء جميع من سافروا مع توكفيل وبومون، لكن ما نعرفه هو أن توكفيل وبومون استغلا الأمريكيين الذين ركبوا معهما السفينة في إثراء معلوماتهما الضئيلة عن الجمهورية الجديدة التي يتوجهان إليها. كان من بين الركاب رجل إنجليزي كان عضوًا في مجلس العموم، وبيتر شيرمرهورن Peter Schermerhorn الذي كان ينتمي إلى أسرة هولندية عريقة من التجار تعيش في نيويورك، عملت بالتجارة في لوازم السفن، ثم اشتغلت بعد ذلك في تجارة العقارات والاستثمار العقاري. وساعدت شابة أمريكية تدعى الآنسة إدواردز Miss Edwards توكفيل وبومون في تعلم اللغة الإنجليزية، التي اكتشفا أنهما لا يجيدانها كما كانا يتخيلان، وأمدهما رجل يدعى بالمر Palmer بمزيد من المساعدة في هذا الصدد (كتب بومون إلى والديه يقول: «نحن في أمس الحاجة إلى إجادة الحديث بالإنجليزية.») ومما حدث في هذه الرحلة أن ربح توكفيل في مسابقة رماية، كان الهدف فيها برميلًا أُلقي في البحر ليطفو بحرية.

عندما لم يكن الشابان يتناولان الطعام أو يمارسان التمارين على ظهر المركب كانا يدرسان في مقصورتهما الصغيرة ويقرآن ما كتب عن

المؤسسات العقابية والكتب التي أحضراها عن الاقتصاد الأمريكي والإدارة السياسية الأمريكية. (في وقت لاحق حصلا وهما في أمريكا على نسخة من «الوثيقة الفدرالية» *The Federalist* وكتاب كينت Kent «عن القانون الأمريكي» *Commentaries on American Law* بناءً على نصيحة محام واسع الثقافة، وكان الكتابان مفيدين للغاية.) وهكذا بدأا ببطء في تكوين أفكار أولية عن البلد الذي هم بصدد زيارته.

من الأمور البسيطة المدهشة في هذه الرحلة الشاقة أن هذين الشابين لم يسأما أبدًا من ملازمة أحدهما للآخر بالرغم من اختلاف طباعهما اختلافًا جوهريًّا؛ فكتب بومون إلى والدته من أمريكا يقول: «إن توكفيل شخص مميز بالفعل، إذ إن أفكاره سامية وروحه في غاية النبل، وكلما ازدادت معرفتي به زاد حبي له.» وبالمثل كان توكفيل غالبًا ما يتحدث عن حسن الحظ الذي جمعهما، وكتب في وقت لاحق إلى بومون يخبره بأنه كان «الرجل الوحيد في العالم الذي أستطيع أن أعتمد على رأيه وأنا مطمئن.»

تدل شواهد من خطابات توكفيل وبومون ويومياتهما على أنهما كانت لهما — منذ البداية — خطط أكبر من دراسة نظم السجون في أمريكا فقط؛ إذ إن توكفيل كتب إلى أوجين ستوفل قبل رحيله يقول: «سنسافر بغرض إجراء بحوث قائمة على العناية بالتفاصيل واتباع المنهج العلمي بقدر المستطاع، تتناول كل آليات المجتمع الأمريكي الكبير الذي يتحدث عنه الجميع ولا يعلم عنه أحد أي شيء. وإذا منحتنا الظروف الوقت الكافي فسنعود بمقومات «عمل جيد»، أو على الأقل عمل جديد؛ فهذا الموضوع لم تتناوله أية دراسة بعد.» وتعد الجملة الأخيرة من قبيل المبالغة؛ فما كان يعنيه توكفيل هو أنه لا توجد أعمال جيدة عن الحياة في الجمهورية الأمريكية الشابة.

في ذلك الحين كتب بومون إلى والده يقول إنهما يفكران في مشاريع عظيمة. فمع أنه أقر بأن مسئوليتهما الأولى هي إعداد تقرير عن السجون، فقد واصل حديثه قائلًا إنه وتوكفيل سيزوران سكان (أمريكا) ومدنها ومؤسساتها وجماركها، وسيتعرفان على الآلية التي تعمل بها حكومتها

الجمهورية. ثم تساءل: ألن يكون من الرائع أن نؤلف «كتابًا يقدم مفهومًا دقيقًا عن الأمريكيين، ويرسم شخصية أمريكا بقلم جريء، ويحلل ظروفها الاجتماعية، ويصحح الآراء الكثيرة الخاطئة حول هذا الموضوع؟» كتب بومون إلى أخيه جول Jules من نيويورك يقول: «إننا نرسي حجر الأساس لعمل عظيم سيكون السبب في شهرتنا في يوم ما.»

غير أن هذا العمل العظيم تسبب في شهرة توكفيل في المقام الأول، كما نعلم الآن. كتب بومون عن المشروع الكبير مستخدمًا ضمير الجمع، لكن في نهاية الأمر تحولت «نحن» إلى «أنا»، و«أنا» هذه عادت على ألكسي دو توكفيل، الذي أضاء اسمه السماوات بما يحيط به من هالة وميض ذكائه السياسي، بينما بقي بومون المرح طلق المُحيَّا لاعبًا ثانويًّا، أو عازف كمان من الدرجة الثانية؛ ظل غير معروف خارج فرنسا إلا لمن درسوا حياة توكفيل. (لحق بومون بتوكفيل في عضوية مجلس النواب خلال معظم أربعينيات القرن التاسع عشر، وعمل سفيرًا فرنسيًّا في لندن وفيينا، وحرر أعمال توكفيل التي نُشرت بعد وفاته، غير أن شهرته ظلت مرتبطة بشهرة توكفيل.)

رست سفينة المبعوثين في نيوبورت Newport بجزيرة رود Rhode Island في ٨ مايو/أيار عام ١٨٣١، وركبا على الفور باخرة إلى مدينة نيويورك، التي وصلا إليها بعد ثلاثة أيام ليجدا أن إعلانًا سبقهما إلى هناك، ليعلن أن قاضيين فرنسيين شابين وصلا إلى أمريكا ليدرسا نظام العقوبات بها. نُشر الإعلان في صحيفة «ميركنتايل أدفيرتايزر» *Mercantile Advertiser* التي تصدر في نيويورك، ثم أعيد نشره في صحف أخرى في ولايات بوسطن Boston وفيلادلفيا Philadelphia وبالتيمور Baltimore وغيرها.

ولدهشتهما أُستقبلا في نيويورك كما يُستقبل أصحاب المقام الرفيع والمسئولون ذوو الأهمية والثقل وصغار المشاهير، وشملهما صفوة مجتمع ذلك الوقت برعايتهم. ترجع أهمية هذا الاستقبال إلى أن الكثير ممن زاروا أمريكا من الأجانب عادوا إلى أوروبا ليكتبوا كتابة تنقد هذا البلد، وينطبق هذا على الإنجليز خاصة، وأشهرهم السيدة فرانسيس ترولوب Frances

Trollope (في كتابها «العادات الوطنية للأمريكيين» *Domestic Manners of the Americans* المنشور عام ١٨٣٢)، وفي وقت لاحق تشارلز ديكنز Charles Dickens (في رواية «مارتين تشزلويت» *Martin Chuzzlewit* وغيرها)، وغيرهما من الشخصيات الأقل شهرة. لم يكن العداء لأمريكا قد اصطبغ بالصبغة السياسية بعد، وإنما كان ذا طابع استعلائي في المقام الأول.

عندما وصل توكفيل وبومون إلى الولايات المتحدة كان عدد سكانها يبلغ نحو ١٣ مليون نسمة (ومليونين من العبيد) موزعين على أربع وعشرين ولاية. وكانت التنمية فيما وراء نهر المسيسبي Mississippi River منعدمة تقريبًا، فأغلب ولايتي ميتشيجان الشمالية وأوهايو Ohio لا تزالان قفرًا. كان الرئيس أندرو جاكسون Andrew Jackson في العام الأخير من الفترة الرئاسية الأولى، وأبراهام لينكون Abraham Lincoln في الثانية والعشرين من عمره، وإمرسون Emerson في الثامنة والعشرين، وثورو Thoreau في الرابعة عشر، وملفيل Melville في الثانية عشر. حينها بلغ تعداد سكان نيويورك ١٢٠ ألف نسمة، ومع أن البلد لم يكن وليدًا، فإنه لم يكن قد قطع شوطًا كبيرًا في طفولته بعد.

وجد توكفيل وبومون أن التدفق والحركة والسريان هي السمات الغالبة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، مما جعل مهمة الإلمام بشخصية المجتمع الأمريكي ليست باليسيرة. فكتب توكفيل إلى صديقه إيرنيه دو شابرول Ernest de Chabrol يقول: «تخيل يا صديقي العزيز — إن استطعت ذلك — مجتمعًا يضم كل دول العالم الإنجليزية والفرنسية والألمانية؛ أناسًا مختلفين في اللغة والمعتقدات والآراء، باختصار، مجتمع لا جذور له ولا ذكريات ولا تعصبات ولا روتين ولا أفكار مشتركة ولا شخصية قومية، لكن السعادة التي ترفرف عليه أعظم من السعادة التي ترفرف على بلادنا بكثير جدًّا.»

للوهلة الأولى على الأقل رأى توكفيل أن السعادة مرتبطة إلى حد بعيد بما ظن أنه التوجه المغالي في الوطنية، الذي لم يكن مشهورًا في أنحاء العالم وتبناه الأمريكيون الذين قابلهم في نيويورك. ولأن توكفيل كان دائمًا غير

ودي مع الأشخاص الذين رأى أنهم لا يراعون حقوق الآخرين، فلم يكن يطيق صحبة هؤلاء الأشخاص مهما كانت طبقتهم الاجتماعية أو جنسيتهم. (فعلى سبيل المثال سخر توكفيل في وقت متأخر من تلك الرحلة من قنصل فرنسي في نيو أورليانز New Orleans لأنه كان رجلًا «يتصف بهذا الذكاء المتبجح الذي يتحدث لكن لا يدخل في حوار، ويجد المتعة في تأمل أفكاره».) اعتقد توكفيل أن الأمريكيين ليسوا — في معظم الحالات — مميزين على المستوى الشخصي، ولا يتمتعون برقي السلوك. لكن شذ عن هذه القاعدة ألبرت جالاتين Albert Gallatin وزير المالية الأسبق، وهو شخص سويسري الأصل تولى الوزارة في ظل حكومة جيفرسون Jefferson؛ قابله توكفيل في نيويورك ووجده رجلًا غزير الثقافة، يستطيع التحدث معه هو وبومون بفرنسية لا تشوبها أخطاء.

ومع أن تعليم الأمريكيين كان في المتوسط أفضل من تعليم الأوربيين، فكان فيهم «شيء مبتذل وغير مصقول على نحو كريه»، أو ذاك كان الانطباع الأول الذي كونه توكفيل. لم يكن قد صادف بلدًا يعتمد على الطبقة الوسطى إلى هذا الحد من قبل — وأذهلته حقيقة أن حاكم ولاية نيويورك كان يقطن لوكاندة — وشعر أن الطموح الأمريكي لم يتجاوز السعي خلف المصلحة الشخصية بكثير، أو بعبارة أخرى لم يتجاوز السعي خلف جمع المال. غير أن كل تلك الآراء تمثل انطباعات أولى — كما ذكر آنفا — ستتغير بدرجات متفاوتة خلال الأشهر التسعة التالية.

بلغت مجمل المدة التي قضاها توكفيل وبومون في أمريكا ٢٧١ يومًا، بالإضافة إلى خمسة عشر يومًا أمضياها في التجول في كندا، وأضاعا جزءًا كبيرًا من وقتهما في شق طريقهما في الغابات وعلى الطرق التي تغطيها الثلوج، وعلى متن بواخر معطلة وسط أنهار متجمدة. في ذاك الوقت المحدود أثمرت ملاحظاتهما ومشاهداتهما — وهي مزيج من أفكار الرجلين صُقِلت على نحو رائع في ذهن توكفيل — عن عمل من الطراز الأول يتناول العلوم والفلسفة السياسية، قال عنه هارفي سي مانسفيلد Harvey C. Mansfield وديلبا وينثروب Delba Winthrop في مقدمة ترجمتهما الإنجليزية لكتاب

«الديمقراطية في أمريكا» (٢٠٠٠) إنه «أفضل كتاب كتب على الإطلاق عن الديمقراطية، وأفضل كتاب كتب على الإطلاق عن أمريكا.»

ومع أن توكفيل كان ذكيًّا وبومون كان سمجًا، فلم يتخل أي منهما عن استعلاء العالم القديم. أخبر توكفيل الأب ليسيور العزيز أن إعداد الطعام وتقديمه في أمريكا يذكرنا بـ«مرحلة ما قبل نضج الفنون؛ فهم يقدمون الخضر والسمك قبل اللحم، ويختمون طعامهم بالمحار، باختصار إنها البربرية التامة!» وخافا على نفسيهما من أن يسكرا حتى يذهب عقلهما من كثرة ما شرب الناس نخبهما في الولائم العديدة التي أقيمت على شرفهما. كان بومون دائمًا ما يعلق على رداءة الموسيقى التي تعزف في البيوت الأمريكية، فقال إن عزف مضيفته على البيانو وغناءها جعله يتأرجح بين الملل المفرط والنفور الشديد. وبالمثل وصف توكفيل أغلب الغناء بأنه «نباح» و«مواء». كان بومون يحلم بمستوى ضيافة «لم يُسمع عنه في أمريكا». ونظر الاثنان بعين التقدير إلى جمال الأمريكيات، مع أنهما قالا إن الشابات في الولايات المتحدة يفتقدن فنون المغازلة والمكر الراقي؛ فعلاقتهن بالرجال تفتقر إلى اللمسة البارعة اللطيفة. وفي بداية الرحلة جاءت في خطابات توكفيل وبومون إلى عائلتيهما وأصدقائهما ملاحظة بغيضة عن زيارات اجتماعية للأحياء المتدنية.

زار توكفيل وبومون ١٧ ولاية من الولايات الأمريكية الأربع والعشرين التي كانت موجودة في تلك المدة، مجتازين نحو ٧٣٠٠ ميل في تلك المنطقة. انطلقا من مدينة نيويورك متجهين إلى الشمال في زيارة استغرقت تسعة أيام لسجن سِنج سِنج Sing Sing، الذي كان يضم تسعمائة سجين يحرسهم ثلاثون حارسًا. عمل السجن وفقًا لنظام أوبرن Auburn system الذي فرض الصمت التام على السجناء، وعاقبهم بعقوبة بدنية (هي الجلد) عند خرق أي من قواعد السلوك التي شدد عليها القانون.

وبسبب الشهرة الطاغية التي حققها كتاب «الديمقراطية في أمريكا» صار هناك ميل إلى افتراض أن توكفيل علّامة لا يفوته شيء. لكن في الحقيقة كانت هناك الكثير من الأمور المهمة التي لم تثر اهتمامه، مثل البواخر والاتجاه

المبكر إلى التصنيع والتطور المادي بمختلف أنواعه والاتجاهات الاقتصادية العامة. كان اهتمامه الأساسي منصبًا على رصد الأحوال الاجتماعية والسياسية؛ كيف يعيش الناس وما الذي يؤمنون به وكيفية التخطيط للآلية التي تدار بها الحكومة وكيفية عمل تلك الآلية. وعمومًا لو كان توكفيل قد اهتم بكل شيء، فربما لم يكن ليكتب كتابًا رائعًا كهذا.

بعد جولة توكفيل وبومون في سِنج سِنج عادا إلى مدينة نيويورك، ورتبا لرحلة بالباخرة إلى مقاطعة ألباني Albany، غير أن الباخرة التي تسمى نورث أمريكا *North America* دخلت في سباق مع سفن أخرى والشابان الفرنسيان على متنها، مما تسبب في عدم وقوفها في ويست بوينت West Point التي كان توكفيل وبومون يتطلعان إلى زيارة الأكاديمية العسكرية بها. بعد قضاء يومين في ألباني — مقر حكومة الولاية — توجها إلى منطقة فينجر ليكس Finger Lakes ممتطيين الجياد والعربات التي تجرها جياد إلى أوبرن Auburn وبافالو Buffalo. وفي الطريق وطوال الرحلة كانا يريان الكثير من الهنود؛ من قبيلة إيروكوا Iroquois. في عام ١٨٣٠ أُقر قانون ترحيل الهنود بدعم كبير من الرئيس جاكسون، ونص على إجبار الهنود على الرحيل إلى الغرب، فتعاطف بومون مع محنتهم تعاطفًا تامًّا وفوريًّا، وأعرب عن رغبته في تكريس جل طاقته الفكرية لدراسة أحوالهم؛ أما توكفيل فقد أعجب بالجلال الأرستقراطي الذي تجلى في الجلد الذي أظهره الهنود بالرغم من انحطاط أحوالهم، لكنه أدرك أنهم شعب هالك لا محالة.

ثم انطلقا من بافالو — التي كان يعتقد أنها ستحظى بمستقبل صناعي عظيم — مواصلين رحلتهما إلى كليفلاند Cleveland ومنها إلى ديترويت Detroit، حيث قضيا يومًا واحدًا. كان بومون — الذي شُغل بصحة توكفيل — قلقًا جدًّا من السرعة الكبيرة التي تحركا بها، في حين لم يكن عليه أن يقلق، فما كان ليستطيع أن يوقف شريكه إن أراد. ومع كل مظاهر ضعف جسد توكفيل كان يتمتع بقدرة داخلية عظيمة على التحمل، مع أنه وهو يصطاد في أحد الأيام حاول السباحة فيما جعله قِصَرُ نظره يظن أنه جدول ضيق، فأشرف على الغرق.

في ٢٣ يوليه/تموز امتطى الاثنان الجياد على طريق ساجيناو Saginaw Trail متجهين إلى مقاطعة ساجيناو بولاية ميتشيجان. كان الطريق وعرًا، وزادت أسراب الناموس التي لا تهدأ من صعوبة السير، مما جعل من الرحلة كابوسًا، وكان رفيقهما الوحيد دليلًا هنديًّا لم يستطيعا التواصل معه. لكنهما قابلا بعض العائلات التي تقيم على الحدود، وأذهلت توكفيل بسالة اكتفائهم الذاتي كثيرًا. لاحقًا تناول توكفيل هذا الجزء من الرحلة في مقال بعنوان «خمسة عشر يومًا في البرية» *Quinze jours au désert*.

بعد عودتهما إلى ديترويت ركبا باخرة أخرى — تسمى سوبيريور *Superior* — للقيام برحلة في البحيرات العظمى Great Lakes في الشمال قاصدين جزيرة ماكيناك Mackinac، ومدينتي سولت سانت ماري Sault Sainte Marie وجرين بي Green Bay بولاية ويسكُنسِن Wisconsin. وعندما وجدا أنهما توغلا باتجاه الشمال قررا زيارة كندا، حيث نزلا في مونتريال Montreal وكوبيك Quebec، واسترعى انتباههما انتشار الثقافة الفرنسية التي ضربت بجذورها في العالم الجديد. في هذه المرحلة من الرحلة شاهدا شلالات نياجرا Niagara Falls، وأرهبت قوتها توكفيل، مثلما أرهبته دائمًا المناظر التي تعكس قوة الطبيعة الجليلة غير المبالية.

رأى توكفيل أن العزلة التي لمسها في البرية الأمريكية تشبه تلك التي عرفها في جبال الألب السويسرية، مع أنه وجد أن للعزلة الأمريكية طابعًا مختلفًا. كتب وهو في أمريكا يقول: «حين يتجول المرء في تلك البرية المزهرة — المستعدة تمامًا لاستقبال البشر كما وصفها ميلتون Milton في قصيدة «الفردوس» *Paradise* — لا يكتنفه سوى إعجاب ساكن بها ونفور غامض من الحياة المتمدنة وإحساس عذب حزين، كأنه شعور غريزي جامح يجعل المرء يفكر بحزن في أن تلك العزلة الباعثة على السرور سرعان ما ستتغير [بفعل الغزوات الأخرى التي يشنها الرجل الأوروبي الأبيض].»

لكن في مرات أخرى كثيرة كتب مشيرًا إلى «ذلك الإحساس بالعزلة والهجر، الذي بدا ثقيلًا على صدورنا ونحن في إقليم الأطلسي الأوسط، [والذي] وجدت أنه ربما يكون أكثر قوة وإثارة في عزلة العالم الجديد.» في

البحر يبعث الأفق الأمل، لكن ضخامة الغابة الأمريكية لا تبعث إلا على مزيد ومزيد من الوحدة اللانهائية؛ «فأنت تقطع آلاف الأميال في ظلها، وتتقدم دون أن تشعر أنك غيرت مكانك.» وأدى تأمل توكفيل لهذه الضخامة القاسية إلى شعوره بالرعب الشديد ليلًا.

كان توكفيل وبومون محظوظين في رحلتهما؛ لأنهما قابلا رجالًا اعتصرا منهم معلومات عن المؤسسات السياسية وعادات الأمريكيين الاجتماعية. سجل توكفيل نتائج هذه الاستجوابات بعناية في مفكراته العديدة، التي أطلق عليها المفكرات المحمولة. انهمرت أسئلة توكفيل وبومون على جون كانفيلد سبنسر John Canfield Spencer في نيويورك، وجويل بوينست Joel Poinsett في كارولينا الجنوبية South Carolina، وأب يدعى مالون Mullon قابلاه على متن باخرة، وجون لاتروب John Latrobe وتشارلز كارول Charles Carroll (أغنى رجل في ماريلاند Maryland)؛ بشأن وجهات نظرهم عن التوجهات الأمريكية فيما يتعلق بالدين والميراث والضرائب وغير ذلك من القوانين؛ والمحاكمات التي تتم بواسطة هيئة المحلفين والصحافة والعبودية وغيرها من القضايا. ويبقى سيل المعلومات المفيدة الذي حصلا عليه شاهدًا على طيبة من تحدث إليهما من الأمريكيين وجاذبية الشابين الفرنسيين اللذين نجحا في كسب قلوبهم.

كانت مدينة بوسطن — وهي ذات أهمية خاصة للكتاب الذي كان توكفيل سيكتبه — هي المحطة التالية في برنامج رحلتهما، حيث وجدا عددًا هائلًا من مجيبي الأسئلة. ففيها قابلا جون كوينسي آدامز John Quincy Adams — الذي كان حينها قد ترك الرئاسة قبل عامين فقط — ودانيال ويبستر Daniel Webster وإدوارد إيفريت Edward Everett وجوزيا كوينسي الابن Josiah Quincy Jr. (رئيس جامعة هارفارد) والناشر جورج تكنور George Ticknor والكاهن جيرد سباركس Jared Sparks، الذي كان الأكثر نفعًا لأبحاثهما، إذ كانت لديه مجموعة كبيرة من أوراق جورج واشنطن George Washington، وكان هو نفسه بحرًا من المعلومات عن صعوبات الحياة الاجتماعية والسياسية الأمريكية.

وفرت مدينة بوسطن للشابين مناخًا فكريًّا أكثر رفعة من مناخ مدينة نيويورك، مما جعل توكفيل يعيد النظر في الرأي الذي كونه في نيويورك عن أن هَمَّ الأمريكيين الأول هو جمع الثروة. قضى الشابان ثلاثة أسابيع ونصف في بوسطن، وفتح لهما نموذج إدارة مدينة نيو إنجلاند New England مدخلًا هامًّا إلى القوى السياسية القائمة على المشاركة وطبيعة الحكومة الأمريكية. وقابلا في بوسطن فرانتس ليبر Franz Lieber، وهو مثلهما باحث أجنبي دءوب في الشئون الأمريكية، سيترجم في يوم من الأيام «الديمقراطية في أمريكا» إلى الألمانية.

في ٩ سبتمبر/أيلول عام ١٨٣١ علم توكفيل وهو في بوسطن بوفاة حبيبه الأب ليسيور، مما غمره بحزن عميق، وبعدها بقليل أخبرته وزارة العدل الفرنسية هو وبومون أنها قصّرت مدة زيارتهما.

طوال مدة الرحلة وأثناء احتفاظ توكفيل وبومون بيومياتهما والمذكرات التي كتباها لأنفسهما، ظلا يرسلان خطابات إلى أصدقائهما وعائلتيهما في فرنسا. وفي هذه الخطابات دونا ملاحظاتهما عن أمريكا؛ واعتمد توكفيل على تلك الملاحظات فيما بعد عندما بدأ تأليف الكتاب. وكتبا إلى أصدقائهما وعائلتيهما سائلين عن معلومات كانا يجهلانها بشأن أمور معقدة تتعلق بالحكومة الفرنسية المعاصرة وكذلك الشئون السياسية المعاصرة. ربما كان كتاب توكفيل يتناول أمريكا كموضوعه الأساسي، إلا إن توكفيل كتبه وهو يضع القارئ الفرنسي نصب عينيه، مثلما يلاحظ الكثيرون. اعتمد توكفيل دائمًا على المقارنة، فكان يكتب عن الولايات المتحدة دون أن يبعد إنجلترا وفرنسا عن عقله، إذ كتب إلى والده وهو في أمريكا يقول: «الذهن لا يصبح صافيًا إلا بعقد المقارنات.»

كانت محطتاهما التاليتان مدينتي هارتفورد Hartfford وفيلادلفيا، لكن كما فاتتهما زيارة ويست بوينت في نيويورك فاتتهما زيارة جامعة ييل في كنيتيكت Connecticut. وهي مدعاة للأسف، إذ أتذكر أن سانتايانا Santayana كتب بعد ذلك بثمانين عامًا أو نحوها عن الروح المسيحية القوية التي كانت تسيطر على جامعة ييل، مازجة الدين بالحاجة إلى النجاح

في العمل؛ وهي ملاحظة كان توكفيل سيقرها تمامًا. لكنهما زارا السجن الرئيسي في كنيتيكت وسجون بوسطن، وأبهرتهما بشدة الإصلاحية التي كانت تدار وفقًا لخطط تحمل شيئًا من الديمقراطية.

وجد توكفيل وبومون في فيلادلفيا محور دراستهما لنظام السجون؛ فهناك ظهر أثر جمعية الأصدقاء الدينية Quakers في الإصلاحيات على هيئة نظام قوامه العزل؛ فلمدة طويلة لا يكون هناك أي تفاعل اجتماعي بين السجناء، ولا يسمح بالعمل في السجن إلا في مرحلة متأخرة. كانوا يتركون السجناء بمفردهم لفترات طويلة وليس معهم إلا الكتاب المقدس وآثامهم ليفكروا فيها. وفي سجن إيست ستيت East State Penitentiary بفيلادلفيا أجرى توكفيل حوارًا مع عدد من السجناء ليعرف رد فعلهم تجاه هذا النظام، فوجد معظمهم مكتئبين بسبب الوحدة، ويتوقون إلى العودة إلى العمل مع السجناء الآخرين، غير أن السجون الأمريكية كانت قد بدأت تُضجِر المبعوثين الفرنسيين، فكتب بومون إلى أسرته يقول: «دائمًا ما نرى [فيها] نفس الأشياء.»

بعد قضاء أسبوعين في فيلادلفيا أسرع توكفيل وبومون إلى الجنوب، بادئين رحلتهما بزيارة مدينة بالتيمور القريبة، حيث رأيا مشهد العبودية لأول مرة، مما أثر بشدة في بومون، الذي كان شديد الحساسية تجاه المعاناة. ربما يكون بومون قد اتخذ قراره الأولي بتحويل مساره وتركيز جهوده الفكرية اللاحقة على العبودية وقضية الهنود والأقليات الأخرى في أمريكا عند زيارته لبالتيمور. (وبتعاطفه المعتاد مع ضحايا الاضطهاد كان سيكتب فيما بعد عن الأيرلنديين). وذهب هو وتوكفيل إلى حجرة عبد آذاه سيده بشدة حتى فقد عقله، وأصبح يمضي أيامه بين صرخات الرعب والغضب.

بحلول شهر نوفمبر/تشرين الثاني انتقلا من بالتيمور إلى بيتسبيرج Pittsburgh على باخرة تحطمت في نهر أوهايو Ohio River بالقرب من مدينة ويلينج Wheeling في فيرجينيا الغربية West Virginia، وتلك هي المرة الثانية التي يمر فيها توكفيل بتجربة الإشراف على الغرق. بعد أن نجا الشابان من الحطام ركبا سفينة أخرى إلى المدينة المزدهرة سينسيناتي

Cincinnati. في هذه المدينة دخل توكفيل في حوارات شيقة مع سالمون بي تشيس Salmon P. Chase، الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للمالية في عهد لينكون ورئيس المحكمة العليا في الولايات المتحدة. ودخل في حوار مع محام ذكي يدعى جون ماكلين John McClean (حول النظام الانتخابي والقضائي الأمريكي)، ومع تيموثي والكر Timothy Walker، الذي كان في ذاك الوقت حديث التخرج من جامعة هارفارد، وكان ينتظره مستقبل باهر في المحاماة. نبه هؤلاء الرجال توكفيل إلى الخطر الكامن في حكم الأغلبية؛ وهو ما سيشير إليه توكفيل فيما بعد بالمصطلح الشهير إرهاب الأغلبية أو استبداد الديمقراطية. توصل إلى فهم حقيقة محورية عن العبودية في أمريكا؛ فبالنظر إلى الرخاء الذي تتمتع به ولاية أوهايو الحرة في مقابل الركود الذي تعانيه ولاية كنتاكي Kentucky التي يسمح فيها بالعبودية، توصل توكفيل إلى أن «الإنسان لم يُخلق ليستعبد»، وعندما يُخضِع الإنسان إنسانًا آخر لتلك الحالة يعاني الجميع، أسيادًا وعبيدًا.

بعد إقامة مدتها أربعة أيام في أوهايو رحل بومون وتوكفيل إلى نيو أورليانز، لكنهما أُجبرا على التوقف لعشرة أيام في منطقة بين مدينتي ناشفيل Nashville وممفيس Memphis؛ لأن سوء الأحوال الجوية في الشتاء جعل السفر عبر النهر مستحيلًا. ومرض توكفيل — الذي كانت رئتاه الضعيفتان دائمًا ما تعرضانه للخطر — بسبب المشي وسط الثلوج، ومن ثم أقاما في مقصورة خشبية تعصف بها الرياح. لكنه سرعان ما شُفِي وتحسنت صحته بما يكفي ليسافر على متن باخرة أخرى إلى نيو أورليانز في يوم عيد الميلاد. كان ممن ركبوا معه هو وبومون الباخرة مجموعة من الهنود المحرومين المتسخين من قبيلة تشوكتو Choctaw، ورجل من فيرجينيا يدعى سام هيوستن Sam Houston الذي سيشتهر بأنه أول حاكم ورئيس لولاية تكساس Texas.

وصل توكفيل وبومون إلى نيو أورليانز يوم رأس السنة عام ١٨٣٢، ولم يتمكنا من قضاء أكثر من ثلاثة أيام هناك. كان مرشدهما الرئيسي في المدينة القنصل الفرنسي السيد جيلمان Guilleman، الذي أمطرهما بمعلومات عن

النظام الاجتماعي والسياسي للمدينة؛ التي تميزت عن كل المدن الأمريكية الكبيرة الأخرى بكثرة سكانها من الفرنسيين والكاثوليك.

بسبب الرسالة السابقة التي وصلتهما من الحكومة الفرنسية تبلغهما بتقصير مدة مهمتهما، أسرعا بالرحيل راكبين عربة سفر عبر الولايات الجنوبية — وهي ألاباما Alabama وجورجيا Georgia وكارولينا الشمالية والجنوبية Carolinas — وصولًا إلى محطتهما النهائية واشنطن Washington، واضطرا ألا يمرا بمدينة تشارلستون Charleston. وقطعا أكثر من ألف ميل في اثني عشر يومًا، وفاتهما أن يتوقفا ليدرسا بشيء من التفصيل أقصى منطقة الجنوب Deep South، وثقافة المزارع بها؛ أو بمعنى أدق العبودية.

انتهت رحلة توكفيل وبومون بزيارة قوامهما أسبوعين ونصف إلى واشنطن، التي كانت في المرحلة الأولى من التطور، وأجريا مقابلة مدتها خمس وأربعون دقيقة مع أندرو جاكسون، لكن تلك المقابلة التي لم تكن أكثر من زيارة اجتماعية تقليدية لم تبهرهما على الإطلاق. بدا لهما جاكسون ليس إلا رجلًا عسكريًّا بلا ثقافة ولا نهم فكري. ثم زارا مجلسي الكونجرس ورحلا عنهما دون أن يشعرا بالرضا كذلك؛ إذ أذهلهما أن مستوى الحديث هناك أيضًا كان متدنيًّا على نحو يرثى له. وللأسف فشلا في أن يقابلا جيمس ماديسون James Madison الذي كان في الواحدة والثمانين من عمره في ذلك الوقت، وكان بلا شك أعظم واضع نظريات سياسية حينها. بعدما عاد توكفيل إلى فرنسا قرأ المقالات التي نشرها ماديسون تحت عنوان «الوثيقة الفدرالية»، مما عاد بنفع كبير على كتابه.

في ٢٠ فبراير/شباط عام ١٨٣٢ أبحر توكفيل وبومون عائدين إلى فرنسا على متن نفس السفينة التي أقلتهما في رحلة الذهاب — وتدعى ذا هافر The Havre — جاهلين ما الذي سيجدانه على الساحة السياسية الفرنسية المتقلبة، وماذا سيفعلان بالضبط في حياتيهما، وكيف سينتفعان من تلك الكمية الكبيرة من الملاحظات والكراسات واليوميات والمذكرات التي دوناها لنفسيهما وغيرها من المواد. كان كل ما يعرفانه هو أن عليهما

كتابة تقرير عن نظام السجون في أمريكا، إذ كان هذا هو الغرض المزعوم للرحلة.

وإلى جانب المعلومات الواقعية التي كان توكفيل قد جمعها؛ حصل على بعض الحقائق المحورية التي ستنفعه كفيلسوف سياسي؛ إذ كتب إلى والده في بداية زيارته لأمريكا يقول: «كلما درست هذا البلد أجدني مقتنعًا بحقيقة مفادها أنه لا يوجد شيء مطلق في القيمة النظرية للمؤسسات السياسية، وأن كفاءته غالبًا ما تعتمد على الظروف الأصلية والأحوال الاجتماعية للأشخاص الذين يتعامل معهم.» بمعنى آخر فهم توكفيل الشاب أن التجربة العملية والعادات لها حق الصدارة على الأفكار والقوانين، لكن بحبه المعهود للتعقيد ودَّ لو عرف النسبة التي تبرز بها هذه على تلك، «تلك هي المشكلة العويصة التي لا يمكن للمرء أن يتبحر في دراستها، فأنا أؤمن أن العادات تبقى بقاءً دائمًا ومستقلًّا عن القوانين.» سوف ينجح توكفيل في التوصل إلى تلك النسبة وأكثر من ذلك عندما يجد الوقت والهدوء اللذين يمكنانه من أن يعكف على تأليف كتابه العظيم بعد عودته إلى فرنسا.

الفصل الرابع

كتب ألكسي دو توكفيل إلى والده وهو على مشارف إنهاء زيارته لأمريكا يقول: «فكرت كثيرًا فيما يمكن أن أكتبه عن أمريكا. إن محاولة تقديم صورة كاملة عن هذا الاتحاد لهي مشروع من غير الممكن على الإطلاق أن يقوم به رجل لم يقض سوى عام واحد في هذا البلد الكبير. وأنا أؤمن أن هذا العمل سيكون مملًّا وغير ذي قيمة ثقافية. ومن ناحية أخرى قد أستطيع — بواسطة انتقاء الموضوعات — أن أطرح فقط الموضوعات التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا إلى حد ما بأحوالنا الاجتماعية والسياسية [في فرنسا] ... تلك هي خطتي، لكن، هل سيتاح لي الوقت اللازم لتنفيذها؟ وهل سأجد في نفسي القدرة على هذا؟ تلك هي المسألة. وهناك اعتبار دائمًا ما أضعه نصب عيني؛ ألا وهو أنني إن لم أكتب ما أؤمن به فلن أكتب على الإطلاق، لكن «ليس كل ما يُعرف يقال».»

يا لها من فقرة مميزة! فهي تعكس في دفقَة واحدة طموح توكفيل (وهو ليس بالأمر الذي يمكن إغفاله) وشكه (دائم الظهور) وإصراره على التحلي بالأمانة (من بين كل صفاته لم تكن هذه الصفة أبدًا موضعًا للشك). كان شديد القلق حيال كتابة هذا العمل العظيم، فبعد أن ترك أمريكا بعد إقامة دامت تسعة أشهر فقط قال إن كتابة شيء مقنع عن هذا البلد يستلزم الإقامة فيه مدة سنتين على الأقل، لكن طموحه لم يخب؛ فكان يعي جيدًا ما الذي يمكن أن يضيفه تأليف كتاب مهم عن موضوع عظيم لحياته المهنية. مع أن الأرستقراطية كانت في طريقها إلى الانزواء فكان العقل لا يزال ذا

قيمة في فرنسا. لكن كيف يبدأ؟ كيف يُعد هذا الموضوع الضخم ويختصره ويحسن صياغته؟

كان على توكفيل أولًا أن يواجه استياءه — وما يمكن أن نسميه — اكتئابه، كان جزء من هذا الاكتئاب متعلقًا بالموقف السياسي في فرنسا، الذي بدا في حينها في حالة أسوأ من التي كان عليها قبل رحيله إلى أمريكا. فكتب إلى أوجين ستوفل يقول: «أشعر بالحزن والامتعاض والخزي من الحالة التي وجدت بلدي عليها.» وكتب إلى بومون قبل ذلك يقول: «إن عالم السياسة بالفعل حفرة موحلة.» ولأنه كان يخطط للاشتغال بالسياسة وجد تلك الأحوال — إذا أردنا لطف التعبير — محبطة.

ثم جاءت الأخبار أن جوستاف دو بومون فُصل من منصبه كقاض، إذ بدا أن بومون في غمرة إلحاحه للحصول على إجازة للسفر إلى أمريكا كون أعداءً، حاولوا إيذاءه بعدها بإيكال قضية إليه لم تكن لديه رغبة في أن يتولاها (ولم يكن ملزمًا بذلك). بينما كان يناقش أسباب عدم ضرورة توكيل القضية إليه — وهي محاكمة شخص اتهم بالسب والقذف وتصادف أن كان مؤيدًا للملكية البربونية ينتمي إلى حزب بومون — فُصل بسرعة، ولم يعرف بخبر فصله إلا من الصحافة، وهو أمر مخزٍ. عندما علم توكفيل بالأمر سلم استقالته، عازفًا على وتر جرح الكرامة — وكان يجيد هذا — إذ جاء فيها «لأنني مرتبط ارتباطًا وثيقًا بصداقة حميمة مع الرجل الذي أعفي من مهامه، والذي أشاركه أفكاره وأوافق على تصرفاته، لذا أشعر أنني ملزم بربط مصيري بمصيره بملء إرادتي، وأن أترك معه تلك المهنة التي لا ينجح الاجتهاد والاستقامة فيها في حمايتنا من الطرد غير المُستحَّق.»

في تلك الأثناء أُلقي القبض على لوي دو كيرجورلي Louis de Kergorlay صديق توكفيل وهو يدبر مؤامرة مع دوقة بري Berry وبعض البوربونيين المناهضين للثورة لإعادة الملكية البوربونية إلى فرنسا، وإحلالها محل إدارة لوي فيليب الأورليانية، وفي النهاية برَّأت المحكمة ساحة كيرجورلي. كان توكفيل محاميه الثاني وتحدث نيابة عنه، مدافعًا بأن صديقه كان يقوم

بما ظن أن فيه مصلحة البلد، غير أن القضية عكست الاضطراب الثوري المتزايد في فرنسا، وأضعفت من روح توكفيل المعنوية.

غير أن كل هذا لم ينجح في تخليص توكفيل من عجزه عن الكتابة. قد يكون لمثل ذلك العجز المفجع عن الكتابة أسباب مختلفة؛ وفي حالة توكفيل كان بالتأكيد لها أكثر من سبب، أهمها ضخامة المشروع. كان عليه قبل البدء في المشروع أن يوكل إلى بومون العمل الرئيسي، وهو كتابة تقريرهما عن نظام السجون الأمريكية. وأجرى توكفيل مزيدًا من الأبحاث عن سفن السجن الفرنسية، ووفر الكثير من الملاحظات اللازمة لهذه الدراسة، وقام بمهام رئيس التحرير. لكنه شعر كما يبدو بأنه تهرب من واجبه، فكتب إلى بومون يقول: «لم أفعل أي شيء أو فعلت أقل القليل. فعقلي في سبات عميق، ولا أعلم بتاتًا متى سيستيقظ.» نُشر التقرير — الذي جاء بعنوان: عن نظام العقوبات في الولايات المتحدة وتطبيقه في فرنسا *Du système pénitentiaire aux États-Unis et de son application en France* — في يناير/كانون الثاني من عام ١٨٣٣، وحاز جائزة مونتيون Montyon Prize التي تمنحها أكاديمية اللغة الفرنسية Académie Française وقدرها ٣٠٠٠ فرانك. قال توكفيل لمراسل صحفي: «كل ما ساهمت به كان مشاهداتي وبعض الملاحظات، أما السيد دو بومون فكان المؤلف الوحيد بالفعل.» ربما يكون توكفيل قد بالغ عندما قال إن مساهمته كانت ضئيلة للغاية، فقد تناقش هو وبومون كثيرًا عن السجون وتبادلا الأفكار حول الموضوع منذ البداية.

مر عام دون أن يغوص توكفيل في الكتاب الذي أراد أن يكتبه عن أمريكا، وسواءً كان ذلك بسبب التردد الناجم عن عجزه عن الكتابة أو عن شعوره بأنه غير مستعد على نحو جيد للموضوع فقد شعر توكفيل — الذي يعتمد دائمًا على أسلوب المقارنة — أن عليه البحث في الديمقراطية في إنجلترا، فذهب إلى هناك في رحلة مدتها خمسة أسابيع بدأت في أغسطس/آب عام ١٨٣٣. كان توكفيل قد ذهب إلى إنجلترا من قبل، لكنه في تلك المرة سافر وفي ذهنه كل الموضوعات والأسئلة والمشكلات التي أثارها الحكم الديمقراطي، ووضعتها رحلته لأمريكا في طليعة اهتماماته.

إن قراءة الملاحظات التي كتبها توكفيل عن رحلته إلى إنجلترا تكشف لنا القضايا التي شغلته في ذلك الوقت، وكان في مقدمتها مركزية الخدمات الحكومية والقانون. وجد أن إنجلترا محظوظة في هذا الصدد لأنها نجحت في التوصل إلى نظم تتمتع بلامركزية وتنوع أكثر من نظم فرنسا. ورأى توكفيل ميزة أخرى في إنجلترا هي دور الدين، المتمثل في كنيسة رسمية، تنموا حولها طوائف دينية أخرى دون أن تتعرض للأذى. فعندما وقع هجوم على الدين في فرنسا — كما حدث أثناء الثورة الفرنسية — عرف الجميع أن الكنيسة الكاثوليكية ورجال الدين هم محل الهجوم؛ أما في إنجلترا فقد لاحظ أن الدين عندما يُهاجم يأتي الهجوم أكثر ميلًا إلى التشتت والعمومية منه إلى التخصيص، لذا لا يكون مباشرًا وضارًّا كما في فرنسا.

في تلك الرحلة أدهش توكفيل كثيرًا الاختلافُ بين الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا وفرنسا؛ إذ يشير في ملاحظاته إلى أمر غاية في الأهمية، وهو أن المرء لا يمكن أن يصبح أرستقراطيًّا في فرنسا إلا إذا ولد أرستقراطيًّا، أما الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية فتفتح ذراعيها للثروة، بعبارة أخرى يمكن الانضمام إليها بواسطة الزواج أو النقود. هكذا يمكن للمرء أن يصبح نبيلًا إنجليزيًّا لكن لا يمكن أن يصبح نبيلًا فرنسيًّا. ولأن الطبقة الأرستقراطية الفرنسية هي وحدة مستقلة كانت أكثر عرضة للهجوم من الطبقة الإنجليزية، التي لم تجمعها مجموعة موحدة من الآراء، ولذا لم يكن من السهل مهاجمتها. تنبأ توكفيل — لنفسه — أن الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية ستختفي في يوم من الأيام، لكن اختفاءها سيكون أبطأ من اختفاء الطبقة الفرنسية بكثير. الآن وبعد حوالي مائتي عام بدأت هذه النبوءة تتحقق.

بعد وصول توكفيل إلى إنجلترا مباشرة زار مجلس اللوردات House of Lords، الذي لم يكن شديد الاهتمام بالرسميات في عام ١٨٣٣ كما أصبح فيما بعد. فكتب عن المشهد الذي رآه هناك يقول: «لم يكن هناك شيء متسم بالأبهة، فالجو العام يتسم بحسن السلوك والذوق الرفيع اللطيف، وما

يمكن وصفه بـ«شذا الأرستقراطية».» بالرغم من معرفته بأن الأرستقراطية كانت في طريقها إلى الزوال فلم يفقد أبدًا حبه لعظمة الأرستقراطية. كتب يقول: «ليس من الضروري أن نعلق الكثير من الأهمية على تلك الخسارة [للأرستقراطية]، لكن من حقنا أن نحزن عليها.» وختم حديثه بوصف البطل العسكري الإنجليزي العظيم اللورد ويلينجتون Lord Wellington هازم نابليون، الذي اتضح أنه متحدث انفعالي وغير مؤثر.

على العكس من ويلينجتون كتب توكفيل عن رجل وصف نفسه بأنه «عامل في أدنى درجات الصناعة»، تحدث عن تعهد إنجلترا بمساعدة بولندا في نيل استقلالها، فعلق توكفيل قائلًا: «جرفني جسدًا وروحًا بسيل بلاغته الساحرة، وتأثرت عظيم التأثر بالدفء الحقيقي في مشاعره وبقوة إلقائه.» مع أن توكفيل انتمى إلى الطبقة الأرستقراطية فكان بإمكانه أن ينسلخ فكرًا وعاطفة من أرستقراطيته ويعلو عليها عندما اقتضى الأمر. كتب جيه بي ماير J. P. Mayer — أحد أول من ترجموا أعماله: «لم يكن قط خادمًا لطبقة اجتماعية، وإنما دعم دائمًا قدسية الروح الإنسانية التي تتعرض لتهديد كبير بفعل نظام الدولة الحديثة، الذي حلله في بداياته التاريخية.»

كان لرحلة توكفيل إلى إنجلترا آثارها الإيجابية؛ إذ وضعت حدًّا لعجزه عن الكتابة. بحلول شهر أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٨٣٣ مكث في الحجرة العلوية بمنزل أسرته في باريس في شارع فيرنيل Verneuil، وبدأ العمل بجد. لا شك أن ضخامة المواد التي جمعها — ناهيك عما كان لا يزال في حاجة إلى معرفته — مثلت عاملًا من العوامل التي أدت إلى ما سبق واعتراه من تردد. كان توكفيل دءوبًا في تنظيم بحثه، فكان يأخذ الملاحظات ويحتفظ بالدوريات ويدون تعليقات عما يقرأه، وكانت مهمته الأولى هي تنظيم بحثه، وبالفعل أنجز هذه المهمة بسرعة.

استخدم توكفيل شابين أمريكيين مفوضين إلى فرنسا، هما ثيودور سيدجويك الثالث Theodore Sedgwich III وفرانسيس جيه ليبيت Francis J. Lippit. قد يكون هذا أول توظيف فعلي معروف لمساعدي بحث من

خريجي الجامعات. عامل توكفيل كلًّا منهما بأسلوب مختلف؛ فأوكل إليهما إحضار كتب ووثائق من دار المفوضية، لكنه ناقش سيدجويك لمعرفة أفكاره عن تعقيدات الحياة الأمريكية، وأصبح هو وتوكفيل — على حد تعبير جورج ويلسون بيرسون George Wilson Pierson — «صديقين حميمين». أما ليبيت فعامله بتحفظ شديد، حتى إن الشاب لم يعرف أن توكفيل يتحدث الإنجليزية. كتب ليبيت بعد ذلك بسنوات يقول: «كان أكثر الرجال الذين قابلتهم تكتمًا»، فلم يتكلم توكفيل إلى ليبيت سوى مرتين، ولم يعلم أنه يكتب كتابًا عن أمريكا. إن قدرة توكفيل على إظهار هذا البرود هي في حد ذاتها دليل على ميله إلى العجرفة.

كان توكفيل كاتبًا يصوغ أفكاره ويعيد صياغتها باستمرار، لذا كان يحتفظ بما يشبه التعليق المتواصل على كتاباته. وكان يبحث عما أسماه فكرته الأم أو الفكرة المركزية أو المثمرة، التي تُولّد العديد من الأفكار والملاحظات الأخرى. وضع توكفيل المخططات التمهيدية ثم غيّرها، وبدأ بتناول الحقائق التي عرفها خلال زيارته لأمريكا ومنها استنتج أفكاره، وتطلبت منه تلك الأفكار بدورها أن يعرف حقائق جديدة، اكتسب الكثير منها بالقراءة الموسعة. كتب في مقدمته لكتاب «الديمقراطية في أمريكا» يقول: «على حد علمي لم أستسلم أبدًا لإغواء لَيّ الحقائق لتلائم الأفكار بدلًا من ضبط الأفكار لتلائم الحقائق.» وصف توكفيل منهجه في التأليف — إن صح أن نطلق عليه منهجًا — في خطاب أرسله عام ١٨٣٦ إلى جون ستيوارت ميل John Stuart Mill بقوله:

> لا أكون واثقًا أبدًا من الطريق الذي أسير فيه ومما إذا كنت سأصل أم لا. فأنا أكتب وأنا منغمس في الأفكار ولا أستطيع أن أرى نظامها ... أريد أن أجري، لكنني لا أملك سوى أن أجرجر قلمي ببطء. تعرف أنني لا أمسك القلم وأنا أحمل نية مسبقة باتباع نظام ما أو التقدم بعشوائية حتى النهاية، بل أستسلم للتدفق الطبيعي للأفكار، سامحًا لنفسي أن أنتقل من نتيجة إلى أخرى دون الإخلال بعنصر الأمانة.

هذا بالطبع هو نفس النهج الذي اتبعه كل الكتاب تقريبًا الذين يعنون بأسلوبهم دون أن تأسرهم أفكارهم منذ البداية؛ والذين يعتبرون الكتابة رحلة كشفية. لكن في حالة «الديمقراطية في أمريكا» واجهت توكفيل مشكلات أكبر من التأليف فقط، مثل مشكلة تحديد الأسلوب ومستوى العمومية الذي يتطلبه هذا الكتاب، الذي اتسم طموحه المتمثل في وصف وتحليل أهمية المؤسسات السياسية والنظم الاجتماعية لبلد جديد وغير معروف إلى حد بعيد بأنه أكثر من ضخم.

أعلن توكفيل فكرته الأم في الجملة الأولى من مقدمته لكتاب «الديمقراطية في أمريكا» قائلًا: «من بين الأشياء الجديدة التي جذبت انتباهي خلال إقامتي في الولايات المتحدة لم يأسرني شيء بقوة أكثر من المساواة في المراتب.» فجرت كلمة «مساواة» في عقله سلسلة من الأفكار والأسئلة المترابطة؛ فما تأثير المساواة على الحرية والمركزية ومكانة الدين في تأسيس الدول وأهمية الأعراف (أو العادات والمعتقدات والقيم الاجتماعية) وعلاقتها بالقانون ودور الأحداث التاريخية؟ وبالعكس ما تأثير هذه الأشياء على المساواة؟ كتب توكفيل في مقدمة «الديمقراطية في أمريكا» يقول: «أثناء دراستي للمجتمع الأمريكي أصبحت أكثر إدراكًا لأن المساواة في المراتب هي الحقيقة الأساسية التي تتفرع منها كل حقيقة، خاصة وأنها دائمًا ما تظهر لي على أنها البؤرة التي تلتقي عندها كل ملاحظاتي.»

لم يكتب توكفيل للعامة أبدًا بطريقة أكثر كشفًا من التي كتب بها مقدمته لكتاب «الديمقراطية في أمريكا». وعزف على نغمة الدين أكثر من مرة، فقال: «كُتب هذا الكتاب في ظل ضرب من ضروب الإرهاب الديني الذي غمر روح مؤلفه، فور رؤية تلك الثورة العارمة [باسم المساواة] ... نستطيع أن نرى دلائل واضحة على إرادة الله [في ارتفاع مد المساواة ارتفاعًا كبيرًا]، حتى وإن ظل الرب نفسه صامتًا.» يسمي توكفيل «التطور التدريجي للمساواة في المراتب ... حقيقة إلهية ... فهي عامة وخالدة وتثبت كل يوم أن تحقيقها فوق قدرات الإنسان.» يكتب بعد بضع صفحات قائلًا: «بلا أخلاق لا يمكن للحرية أن تسود، وبلا إيمان تختفي الأخلاق.» ويضيف

قائلًا: «أفضل أن أشك في سلامة عقلي عن أن أشك في عدل الله.» وهذه التعليقات ليست شكلية على الإطلاق؛ فهي ليست انحناءة احترام رفيعة من رجل يبتهل إلى الإله كنوع من الالتزام بالشكليات، إذ لم تغب القضية الدينية — الدور الذي يلعبه الإله في شئون الرجال والنساء — عن ذهن توكفيل طويلًا.

أوضح توكفيل في مقدمته أنه في حين أن الكتاب يدور حول الولايات المتحدة فإنه موجه إلى القراء الفرنسيين بصورة أساسية مثلما هو موجه إلى باقي القراء. فتجربة الديمقراطية تجربة أمريكية، لكن الفرنسيين هم من يحتاجون إلى التعلم منها؛ لأن الديمقراطية في فرنسا — من وجهة نظر توكفيل — كانت مشرفة على كارثة إلى حد بعيد. «فالديمقراطية الفرنسية — التي أُعيق تقدمها أو تُركت لتواجه حماسها الجامح بلا مساعدة — أطاحت بكل ما وقف في طريقها، مزعزعةً ما لم تستطع أن تدمره.» أينما نظر توكفيل وجد أنه «لا شيء يثير الحزن والشفقة أكثر مما يحدث أمام أعيننا، إذ يبدو أن الروابط الطبيعية التي تربط الرأي بالذوق والفعل بالإيمان قد كُسرت مؤخرًا. ومن الواضح أن التناغم الذي لاحظناه على مدار التاريخ [الفرنسي] بين مشاعر الإنسان وأفكاره قد قُضي عليه، وأن قواعد القياس الأخلاقي قد أُلغيت.»

يشير توكفيل هنا إلى الضريبة المرهقة التي ظلت الثورة الفرنسية تفرضها، مع أنه مضى على اندلاعها أربعون عامًا. رأى توكفيل أن الثورة التي اندلعت من حيث الترتيب الزمني قبل مولده ظلت جاثمة عليه بآثارها طوال حياته أو هكذا شعر، فالثورة ورثت للشعب عدم استقرار الحياة السياسية الفرنسية وتقلبها وتدهور حالها، ولم يكن لأصدائها منتهى. قال توكفيل لأبناء بلده: «يبدو أننا على استعداد للقناعة بالعيش بين أنقاض المجتمع الأرستقراطي إلى الأبد بعد أن دمرناه.»

إن كان توكفيل قد أعلن عن رغبته في دراسة الديمقراطية «لمعرفة ما يُؤمل منها وما يُخشى»، فإنه لم يصورها هي والأرستقراطية أبدًا على أنهما مثاليتان. إنه يسلم بأن المجتمع الديمقراطي الجديد (الذي لا بد من ظهوره

كما يرى) سيكون أقل تألقًا من المجتمع الأرستقراطي، لكنه سيكون أيضًا أقل تعرضًا للشقاء. ولأن توكفيل لم يكن رجعيًّا ولا متاجرًا بالتقدمية فإنه يؤكد أن فرص تحقيق العظمة في كل المجالات — السياسية والعسكرية والفنية — ستكون أقل في ظل الديمقراطية، وهذا ليس تدهورًا بسيطًا بالنسبة لرجل طموح مثله.

لكن توكفيل اعتقد أنه لا يزال على المرء أن يحيا في الوقت المقدر له، وأن يلعب بالأوراق التي وُزعت عليه، مما كان يعني أن «الواجب الأساسي لقادة المجتمع اليوم» هو «تعليم الناس الديمقراطية، وإن أمكن إحياء معتقداتها، وتطهير أعرافها، وتنظيم دوافعها، وإحلال المعرفة بشئونها محل عدم الخبرة بها، وإحلال فهم المصالح الحقيقية محل الاندفاع الأعمى على أن يتم هذا تدريجيًّا، وتعديل أسلوب الحكم ليتلاءم مع زمانه ومكانه، وتغييره ليواكب الظروف والزمان.» كتب توكفيل يقول إن هذا عالم جديد تمامًا، وهذا العالم «يتطلب علومًا سياسية جديدة». لم يكن توكفيل قد بلغ الثلاثين بعد، وكان بعيدًا كل البعد عن أدنى مظهر من مظاهر القوة الجسدية، وكان — في نواحي كثيرة — ينتمي إلى ذلك النوع من المفكرين الذين يكرسون أنفسهم تمامًا للفكر، ورأى (هل يشك أحد في هذا) أنه أحد القادة الذين سيُعلمون الناس الديمقراطية — خاصة الديمقراطية في فرنسا — وسيفعل هذا بواسطة وضع العلوم السياسية الجديدة التي دعا إليها.

كان طريق توكفيل لتحقيق هاتين الغايتين هو كتابه، الذي لم يبق أمامه سوى أن يكتبه على نحو لائق. ولم يكن عليه أن يدرك التعقيد الشديد في موضوع الكتاب فقط، وإنما كان عليه أيضًا أن يعتمد المستوى الصحيح من العمومية في إعداده. فعلى سبيل المثال عندما شرع في تناول المؤسسات القضائية في الولايات المتحدة أعرب بصراحة عن مخاوفه من عدم وضع الأمور في نصابها، قائلًا: «لكن كيف لي أن ألقي بالضوء على الدور السياسي للمحاكم الأمريكية دون التطرق إلى تفاصيل عن دستورها والإجراءات التي تتبعها؟ وكيف لي أن أخوض بالتفصيل في هذا الموضوع الجاف بطبيعته دون أن أُنفّر القارئ؟ وكيف لي أن أحافظ على الوضوح دون أن أضحي بالإيجاز؟»

يكمل توكفيل بعد أن أتاح له الفاصل بين الفقرات أن يستنشق نفسًا سريعًا قائلًا: «لست أطري على نفسي بأنني نجحت في تجنب تلك المخاطر المختلفة؛ فذوو الخبرة سيجدون أنني ممل، والمحامون سيظنون أنني سطحي. لكن هذا العيب متأصل في الموضوع بصفة عامة، وفي المادة المتخصصة التي أنا بصدد تناولها.»

بحلول الوقت الذي كتب توكفيل فيه ذلك كان قد وجد بالفعل المنهج الذي سيسير عليه، كان منهجًا وصفيًّا وتحليليًّا وفلسفيًّا في نفس الوقت. وتحقيق هذا يتطلب من المرء أن يكون دقيقًا وواضحًا ومتعمقًا وحكيمًا، وهذا ليس بالأمر اليسير، لذا فإن اتباع هذا المنهج ليس في مقدور الجميع. ومع أن توكفيل كان يافعًا عندما كتب الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» فكان في مقدوره اتباع هذا المنهج، بل إن عبقريته تمثلت بشكل أساسي في تمكنه منه.

لنمرَّ مرورًا سريعًا على الصفحات التي كتبها توكفيل عن انتخاب رئيس الولايات المتحدة وإعادة انتخابه، فسنجد أنه بعد أن وصف دور الرئيس الأمريكي ومسئولياته وصل إلى الانتخابات الرئاسية، مشيرًا إلى الجنون الذي تأتي به، فيقول: «مع اقتراب موعد الانتخابات تزداد المؤامرات وتكثر الإثارة وتنتشر، فينقسم المواطنون إلى معسكرات متعددة، كل وراء مرشحه. وتصيب حمى الانتخابات الأمة بأسرها، فتصبح هي المادة الوحيدة التي تهتم بها الصحف العامة يوميًّا، وموضوع المحادثات الخاصة، والغاية من كل نشاط، ومحل كل فكر، وموضع الاهتمام الوحيد في تلك المدة.» ثم تنتهي الانتخابات فـ«تخبو الحماسة، ويعم الهدوء، ويعود ماء النهر سالمًا إلى القاع بعد أن فاض على الضفتين». تبدو الصورة كأنها تصف لنا آخر انتخابات أمريكية، أليس كذلك؟ كما تبدو بلا شك مثل صورة الانتخابات القادمة.

عندما يصل توكفيل إلى موضوع إعادة انتخاب الرئيس يرفع عصى النقد، مشيرًا إلى المزايا التي يختص بها الرئيس الحالي ويسعى إلى إعادة الانتخاب من دون منافسيه، الذين يفتقدون وقوف الحكومة وراءهم بكل سلطاتها. ويلفت النظر إلى أنه «من غير الممكن أن تتابع المسار الطبيعي

للأمور في الولايات المتحدة دون ملاحظة أن الرغبة في إعادة الانتخاب تسيطر على أفكار الرئيس، وأن سياسة إدارته بأكملها موجهة لخدمة هذه الغاية، وكل عمل يقوم به يهدف إلى تحقيق هذا الهدف، وأن ذهنه يركز على مصلحته الشخصية بدلًا من المصلحة العامة، خاصة عندما تلوح الكارثة في الأفق.» في ذاك الوقت الذي يسعى فيه الرئيس إلى إعادة الانتخاب «يخضع لرأي الأغلبية»، ولا يحكم وفقًا لمصلحة الشعب بقدر ما يحكم وفق مصلحته، وكل هذا «يؤدي إلى انحطاط الأخلاق السياسية للأمة، ويُحِل المكر محل الوطنية».

قد يزداد الوضع السابق سوءًا. أما عندما لا يكون على الرئيس أن يقلق بشأن إعادة انتخابه فيصبح مسئولًا أمام الشعب دون أن يكون خاضعًا لهم، حينها يصبح أكثر تمكنًا من اتخاذ سبيل ممهد بين رغبة الأغلبية وسداد الحكم، دون الاضطرار إلى الميل كثيرًا نحو السبيل الأول. إن فكرة اللهث وراء أصوات الناخبين تنتقص كثيرًا من جلال المنصب — وفقًا لما يراه توكفيل — «خاصة في الوقت الحاضر الذي أصيبت فيه الأخلاق السياسية بالانحلال، واختفت فيه الشخصيات العظيمة من هذا المنصب».

كتب توكفيل كل هذا دون أن يشهد تجربة انتخابات الرئاسة الأمريكية بنفسه. ففي وقت زيارته للولايات المتحدة كانت قد أُجريت إحدى عشرة عملية انتخابية فقط، ووصل ذلك العدد إلى اثنتي عشرة وقت تأليفه للكتاب. فكيف توصل إذن إلى تلك المعرفة الدقيقة بروح انتخاباتنا الرئاسية؟ لا شك أن بعض تلك المعرفة جاءته من الأشخاص الكثيرين الذين حاورهم وهو في الولايات المتحدة، والبعض الآخر جاء من «الوثيقة الفدرالية» وبعض القراءات الأخرى. وأنا أظن أن مقدارًا مماثلًا من تلك المعلومات جاء من قوة بديهته وقدرته على الاستنتاج. ويبقى كل هذا — الوصف والتحليل — صحيحًا تمامًا حتى الوقت الحالي.

انبهر توكفيل بصفة خاصة بمستوى التعليم السياسي المتاح في الولايات المتحدة؛ فأدى انتشار حق التصويت (مع أنه لم يكن قد مُنح بعد للمرأة) والتعليم العام إلى رفع الناس إلى مستوى من الوعي السياسي يفوق المستوى

الموجود في أوروبا بصفة عامة. وعزز من ثقافة الأمريكيين العملُ في هيئة المحلفين وخوض الانتخابات، وفوق كل هذا تشكيل الجمعيات التطوعية المتعددة والانضمام إليها. (يوجد اليوم في أمريكا نحو ٤٠٠ فرع محلي لجمعية توكفيل Tocqueville Society، التي ساهم أعضاؤها بعشرة آلاف دولار أمريكي أو أكثر لصندوق التمويل المتحد United Fund التابع لها، وذلك تخليدًا لإعجاب توكفيل بالجمعيات التطوعية لدينا.)

بالنظر إلى الدستور الأمريكي وخلطه الغريب بين الحكومة الفدرالية والدولة كتب توكفيل: «يخترع العقل البشري الأشياء قبل الكلمات، ولهذا يستخدم الناس الكثير من المصطلحات غير اللائقة والتعبيرات غير الملائمة.» كان ما ابتكره صائغو الدستور الأمريكيون نظرية جديدة وشكلًا جديدًا تمامًا للحكومة، «شكلًا ليس وطنيًّا خالصًا وليس فدراليًّا خالصًا. وحتى تلك اللحظة — بحسب ما توصل إليه الجميع — لم تظهر تلك الكلمة الجديدة التي من الممكن أن تعبر عن ذلك الشيء الجديد». ويمكن القول بأنها لم تظهر حتى وقتنا الحاضر. إن قدرة ذاك الزائر الفرنسي الذي عكف على الكتابة بعد زيارة محمومة إلى أمريكا قوامها تسعة أشهر — وهو لم يبلغ الثلاثين بعد — على فهم ما ابتكره الأمريكيون فهمًا تامًّا؛ هي مظهر آخر من مظاهر ذكائه.

كرس توكفيل نفسه للعمل، فأنهى في أقل من عام بقليل ما نُشر تحت مسمى الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا»، وكان ذاك العام متقدًا محمومًا بالنشاط. وبينما كان يكتب أرسل أجزاء من مخطوطاته إلى والده وإلى بومون وإلى أخويه ولوي دو كيرجورلي وأوجين ستوفل وإلى غيرهم من الأصدقاء، لموافاته بتصويباتهم ونقدهم. وأخذ إجاباتهم على محمل الجد، وأجرى تعديلات مهمة في المسودة الأخيرة من كتابه على أساسها.

كتب توكفيل إلى كيرجورلي متحدثًا عن نشاطاته خلال ذاك العام قائلًا: «نظمت حياتي كحياة الرهبان؛ فأنا أحيا حياة فكرية خالصة من الصباح وحتى المساء، وفي المساء أذهب إلى منزل ماري [ماري موتلي Marie, or Mary, Mottley، وهي المرأة الإنجليزية التي تزوجها] ... وفي اليوم التالي

أبدأ ثانية، وأسير على نفس النظام بروتينية مدهشة، لأن كتبي وماري هما كل ما في حياتي منذ أن عدت من إنجلترا، إذ يصعب عليّ أن أعيش للآخرين وأن يعيشوا لي.»

ترى هل كان توكفيل على دراية بأنه يكتب عملًا من الطراز الأول؟ بالنظر إلى ما غلب عليه من اهتزاز الثقة بالذات أظن أن الإجابة هي لا. لكن العالم سرعان ما سيؤكد له أن هذا هو بالضبط ما كان يفعله خلال تلك الأيام الطويلة، وهو يكتب في الحجرة العلوية في شارع فيرنيل.

الفصل الخامس

حقق الكتاب — الذي نُشر في يناير/كانون الثاني من عام ١٨٣٥ — نجاحًا نقديًّا وتجاريًّا باهرًا. كانت هذه مفاجأة لناشره الذي كان قد أصدر ٥٠٠ نسخة من الكتاب في الطبعة الأولى. وعدد النسخ التي بيعت في الأربع سنوات التالية غير معروف، لكننا نعرف أن الكتاب طُبِع سبع مرات. وظهرت ترجمات إنجليزية وألمانية له على الفور. وأجمع النقاد في الصحافة الفرنسية المولعة بالخلاف التي تحركها السياسة؛ على موهبة الكاتب وعمق تحليله والحكمة التي أظهرها. فعلق سانت بوف على كتاب «الديمقراطية في أمريكا» قائلًا: «سيكون على المرء أن يُعيي نفسه بحثًا حتى يجد كتابًا آخر في العلوم والمشاهدات السياسية يثير اهتمام العقول المفكرة ويشبعها إلى مثل هذا الحد.» أصاب سهم توكفيل الفكري هدفه، فرأى الجميع أن الجزء الأول من كتابه الذي يتناول الديمقراطية الجديدة في أمريكا عملًا رائدًا لا أقل، ووعد توكفيل بجزء ثان.

نجح ألكسي دو توكفيل، وأصبح فجأة شابًّا جديرًا بأن تعرفه. ودُعي — بفضل قرابته لشاتوبريان — إلى صالون مدام ريكامييه Récamier الشهير، ونمت علاقاته السياسية في أعقاب العلاقات الاجتماعية، فأصبح صديق وتلميذ بيير بول رورييه كولار Pierre-Paul Royer-Collard، وهو شخصية بارزة في مجلس النواب في مرحلة إعادة الملكية إلى أسرة بوربون. ومنحت أكاديمية اللغة الفرنسية كتاب «الديمقراطية في أمريكا» جائزة مونتيون وقدرها ١٢ ألف فرنك هذه المرة. واختير المؤلف عضوًا في أكاديمية

العلوم السياسية والأخلاقية Academy of Moral and Political Sciences، واختير بعد ذلك للانضمام إلى أكاديمية اللغة الفرنسية في عام ١٨٤١. لا بد أن كل هذا الاهتمام كان مُرضيًا جدًّا، لكن المؤلف الشاب — كما سنرى — كان يتوق إلى التميز السياسي أكثر من التميز الفكري.

في تلك الأثناء تزوج توكفيل، وكان زواجه بماري موتلي بمنزلة لغز لمن تناولوا سيرته؛ فماري امرأة إنجليزية تكبره بتسع سنوات (لم يُعرف سنها بالتحديد)، لا تتمتع بجاذبية خاصة ولا بمكانة اجتماعية أو ثروة كبيرة. وتبقى تفاصيل خطبه لودها وزواجهما غير واضحة، حتى بعد البحوث الموسعة التي أجراها السيد المحترم جاردان وآخرون.

من الواضح أن توكفيل وماري تقابلا عام ١٨٢٨ أو ١٨٢٩، عندما كان توكفيل قاضيًا في فرساي، حيث كانت تعيش مع عمتها التي ربتها؛ السيدة بيلام Belam أرملة صيدلي في بورتسماوث Portsmouth. كان للآنسة موتلي أخوة يعملون في البحرية الإنجليزية، وكانت تنتمي إلى الطبقة الوسطى الإنجليزية، وهو ليس بالأمر السيئ، إلا إذا كان طالب يدها من أسرة فرنسية أرستقراطية. تُظهِر الصور ماري موتلي على أنها امرأة ذات ملامح جميلة، مع أن لها شفة عليا طويلة تغطي ما وصفه أنتوان ريدييه Antoine Redier — وهو مؤلف كتب سيرة توكفيل ولم يكن مولعًا بماري — بأنه أسنان «صفراء». كما وصفها بأن لها «أعين متجهمة». كانت صحتها متوعكة — كصحة زوجها — فعانت من الروماتيزم والتهاب الجلد وبعض الأمراض الأخرى. وغالبًا ما تكررت جمل مثل: «مرضت مدام توكفيل قليلًا في برن Berne» في مراسلات زوجها، دون أن يتغير فيها سوى اسم المكان. كتب جيمس تي شليفر James T. Schleifer في كتابه «حول تأليف كتاب الديمقراطية في أمريكا» *The Making of Democracy in America* يقول عنهما: «من الواضح أنه إن شفي أحدهما مرض الآخر». كان توكفيل يعاني — كما يخبرنا جاردان — من الصداع النصفي وذات الجنب ونوبات التهاب الأعصاب الشديدة وعسر الهضم وتقلصات في المعدة وسل في الرئة؛ وهو المرض الذي يُعتقد أنه تسبب في موته.

رفض توكفيل فكرة أن يرتبط بفتاة من طبقته على طريقة «زواج الصالونات»، مما أشار إلى تمرده، لكنه كان صبورًا في تحمل اعتراضات أسرته وأصدقائه قبل زواجه بالآنسة موتلي، حتى إن المدة بين لقائهما وزواجهما في عام ١٨٣٥ بلغت ست أو سبع سنوات. لم ينفعها أن أصبحت كاثوليكية تقية (وفي بعض الأحيان متعصبة قليلًا، حسبما قيل) في تحسين مكانتها لدى أسرة زوجها. وظلت تتعامل مع أصهارها بتحفظ طوال مدة زواجها. يتذكر اللورد أكتون Acton أن حوارًا أثير حول زواج المرء من طبقة أدنى منه، فأمسك توكفيل بيد زوجته في تلك اللحظة وقال: «أنا أيضًا تزوجت من طبقة أدنى مني، وأقسم أن الأمر كان يستحق العناء.»

تشهد خطابات توكفيل لزوجته بعرفانه بدعمها له، وفهمها لمزاجه المعقد الذي يصعب التعامل معه في كثير من الأحيان. كان توكفيل رجلًا مجروحًا جرحًا غائرًا ذا طبيعة متقلبة، وكتب إلى لوي دو كيرجورلي عن الأثر المهدئ لماري عليه، فقال: «إنها تجعلني أتسامح مع الكثير من الأشخاص والمواقف التي كنت قبل عدة سنوات أحكم عليها أحكامًا غير مخففة». عندما كان قريبه هوبرت Hubert يفكر في الزواج كتب إليه توكفيل يقول: «لا يوجد شيء في العالم رائع وجميل حقًّا كالسعادة العائلية، والمودة التي تشعر بها تجاه زوجة تعرف كيف تفهمك وتساعدك وتدعمك إذا ما احتجت إلى دعمها وأنت تواجه صعوبات الحياة. عايشت ذلك في التجربة التي خضتها، حتى إنني لا أملك إلا أن أقتنع به، وفي الحقيقة لا يمكن للمرء أن يجد التناغم الحقيقي والمستمر إلا مع الأب أو الزوجة.»

كتب توكفيل إلى كيرجولي يقول إن الإنجاب هو «الإحساس الجميل» الوحيد الذي لم يتسنى له أن يعيشه، وأضاف «هذا هو مصدر الأمان الوحيد الذي أراه في المستقبل، وإذا ابتُلينا بألا تصبح ماري أمًّا فسأقنط من حياتي.» لكنهما لم ينجبا، فهي كانت في الأربعين من عمرها عندما تزوجا، ولم يكن هو قويًّا على الإطلاق. فما كان منهما إلا أن صبّا مشاعر الأبوة والأمومة على عدد من كلاب البج.

قال رجل حكيم ذات مرة إن الزواج ليس الحل الملائم ولا العزوبية. (دعونا لا نتساءل الآن عن كنه المشكلة.) من المؤكد أن كليهما لم يكن الحل المناسب لرجل عصبي المزاج واسع الخيال كتوكفيل. إذ يحكي كتّاب سيرته أن زوجته كانت معتادة أن تأكل ببطء شديد، حتى إنه في أحد الأيام فقد قدرته على احتمال ذلك، فقام من مقعده وأخذ طبق الباتيه من أمامها وقذف به على الأرض بعنف. (يُقال إنها — دون أن تتغير تعبيرات وجهها — طلبت طبقًا آخر بلا مبالاة.) اشتكى لبومون من قلة عقل زوجته، فـ«عقلها يعمل حتى مرحلة معينة، وبعدها يقع في دائرة اللامعقول». وتذمر كثيرًا من الضوضاء والفوضى اللتان تسبب فيهما العمال الذين أحضرتهم زوجته لتجديد قصر نورماندي Normandy الذي ورثه عن والدته — كانا يقضيان الصيف والخريف في نورماندي والشتاء والربيع في باريس — مع أنه فيما بعد سُر بالراحة الناتجة عن التغييرات التي قامت بها. كان ألكسي وماري يتحدثان بالإنجليزية وهما على انفراد، ولم تكن امرأة غير مثقفة، إذ كانت تتحدث الألمانية على سبيل المثال بخلافه. عندما تُذكر ماري في صحف ناسو سينيور Nassau Senior، صديق توكفيل الإنجليزي ورجل الاقتصاد السياسي كانت دائمًا ما تتحدث بحكمة وعمق. في كتاب «ذكريات» *Recollections* — الذي يتناول ذكريات ثورة ١٨٤٨ — يشير توكفيل أكثر من مرة إلى ثبات زوجته في وقت الفتن، فيقول: «يمكنني أن أعتمد في البيت على دعم زوجة مخلصة ذات بصيرة نافذة وروح قوية، فروحها النبيلة بالفطرة على استعداد لمواجهة أي موقف وتجاوز أي عقبة.»

مع هذا قرر توكفيل في آخر حياته أن يكتب إلى صوفي سويتشين عن أكبر أحزانه، قائلًا إنه يشعر بـ«عدم ارتياح غامض وإثارة هستيرية لرغباتي، وهو مرض مزمن دائمًا ما عانيت منه». ويتابع قائلًا إنه كان من المفترض أن يشعر بالسعادة، «فالاستمتاع الهادئ بالخير الذي أنعم به حاليًّا أمر مرضٍ لمعظم الرجال»، وربما يكون توكفيل أفضل حالًا من معظم الرجال بالنظر إلى زوجته التي توفر الصفاء في المنزل. لكن هذا الشعور بالسكون والصفاء سرعان ما يهرب منه، ويتركه إلى هذا الاهتياج

الذي لا سبب له ولا معنى، وهذا غالبًا ما يجعل روحه تحاول أن تدير عجلة انخلعت من ترسها؛ على حد قوله. يعلق هيو بروجان قائلًا إن زوجة توكفيل: «كانت أمه وحبيبته وممرضته ورفيقته.» ومع ذلك كتب توكفيل إلى كيرجورلي في ٢٧ سبتمبر/أيلول عام ١٨٤٣، معترفًا بأن غريزته الجنسية القوية أدت به إلى الوقوع في الخيانة عدة مرات، وتركته لشعور بالذنب لا سبيل إلى تخفيف الألم الناتج عنه. كان يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد مع ماري، لكنه لم يكشف لها أبدًا عن شكوكه الدينية، كما قال السيد جاردان.

لا يبقى أمامنا إلا استنتاج أن توكفيل لم يُقدر له أن يكون سعيدًا. فبالرغم من كل مواهبه والمزايا الفطرية التي تمتع بها فإن طموحه دائمًا ما طغى على سعادته وشلها. فالشهرة الأدبية العالمية — حتى بالمستوى الذي وصل إليه — لن تشبعه أبدًا؛ فهو يطمح إلى حياة حافلة بالنشاط السياسي، وتلك الحياة من شأنها أن تمكنه — أو هكذا ظن قبل دخولها — ليس فقط من تطبيق أفكاره السياسية وإنما أيضًا من ملاحقة قدره.

فحتى قيام ثورة يوليه/تموز في صيف عام ١٨٣٠ — التي تسببت في تنازل شارل العاشر عن العرش وصعود لوي فيليب — كان القانون يقضي على أمل توكفيل في الفوز بحياة سياسية نشيطة؛ إذ إنه قبل ثورة يوليه/تموز كان على المرء أن يبلغ الأربعين حتى يتمكن من العمل في مجلس النواب، لكن الثورة خفضت هذا السن إلى الثلاثين، مما عني أنه بحلول عام ١٨٣٥ كان توكفيل مؤهلًا للمنصب، إلا أنه امتنع عن ترشيح نفسه في الانتخابات حتى عام ١٨٣٧.

كان أمام توكفيل الاختيار بين أربعة دوائر انتخابية. يروي جاردان بتفصيل لا يلزم الخوض فيه هنا كيف أنه استقر في النهاية على الدائرة الرابعة، وهي دائرة فالوين Valognes في نورماندي، التي تبعد عشرة أميال عن القصر والعزبة اللذين ورثهما. أما منافسه — الكونت جول بوليدو لو ماروا Jules-Polydor Le Marois ابن المساعد الشخصي السابق لنابليون — الذي كان يشغل منصب النائب — فقد وجهت له تهم فساد عن وجه حق.

حينها وجد ألكسي دو توكفيل — النبيل الذي يضع نظريات عن الديمقراطية — أنفه الرفيعة تحتك بوضاعة السياسة الانتخابية. كان لو ماروا يمتلك الكثير من النقود، التي لم يمانع في إنفاقها على دعوة الناخبين إلى موائد الطعام، وإغراقهم في الخمر في الحانات، وابتكار طرق للتودد إليهم وفقًا لأفضل تقاليد التودد التي تنص عليها سياسة حماية المصالح. وكان للو ماروا صلة — من جهة أسرته — بنائب الحاكم المسئول عن جمع الضرائب؛ وهو ما مكّنه من منح الناخبين وسائل أفضل لدفع الضرائب، تتسم بأنها أكثر بطئًا وأكثر ملائمة لأحوالهم. عرض قريب توكفيل — الكونت لوي ماتيو مول Louis-Mathieu Mole، وهو الوزير الأول للحكومة حينها — تقديم مساعدته في الانتخابات. ولأن توكفيل كان أكثر غرورًا من أن ينتفع من هذا العرض فقد أخبر مول بأنه لا يرغب في أن يدخل مجلس النواب وعلى عاتقه أي ديون سياسية.

ركز لو ماروا حملته الكلامية على القضايا الزراعية، التي كانت أول ما أثار اهتمام الناخبين في تلك المنطقة، مثل سياسة تربية الحيوانات وما يماثلها. سلك توكفيل سبيل الرفعة واعدًا بحماية الحرية، والتصدي لمحاولة القضاء على استقرار الثورة، مدعيًا أنه لا يؤيد الحكم المطلق أو الجمهوري؛ وكل هذا لا عيب فيه من الناحية السياسية، لكن تلك القضايا لا أهمية لها على صعيد السياسة المحلية. ثم طبع رجال لو ماروا منشورات لم يكتبوا عليها اسم كاتبها، صوروا فيها توكفيل على أنه أرستقراطي مغرور (كان شعار المعارضين لتوكفيل «لا للنبلاء»). ولم يُسلِّم رئيس هيئة البريد المحلي أحد الردين اللذين كتبهما توكفيل على هذه المنشورات، فكان يُعتقد أنه أيضًا من رجال لو ماروا. ومع كل هذا لم يخسر توكفيل إلا في الجولة الثانية من الانتخابات، وبفارق سبعة وعشرين صوتًا فقط؛ فحاز ٢٢٠ صوتًا في مقابل ٢٤٧ صوتًا.

عندما حُل مجلس النواب في عام ١٨٣٩ كان توكفيل على استعداد لخوض الانتخابات مرة أخرى. كان موقف لو ماروا قد ضعف، إذ ذاع نبأ تهم الفساد الموجهة إليه. جدّ توكفيل في تعهد ناخبي فالوين بالعناية،

وأحاط به الدعم المحلي. فرد على الاتهام الموجه إليه بأنه رجل أرستقراطي ينأى بنفسه عن الناس قائلًا: «أقول بملء فمي إنه لا يوجد في فرنسا كلها، بل في أوروبا من أعلن مثلي بوضوح أن الأرستقراطية القديمة ماتت»، ودلل على كلامه بما كتبه في «الديمقراطية في أمريكا». في خطاب آخر للناخبين بيّن موقفه موضحًا «ألتزم بمبادئ محددة، لكنني لا أرتبط بحزب ما. أما عن موقفي مع الحكومة فأنا مستقل تمامًا، ولست مرشحًا حكوميًّا ولا أبغى أن أكون كذلك على الإطلاق». فاز في الجولة الأولى من الانتخابات بمجموع أصوات ٣١٨ مقابل ٢٤٠، وعندما أُعلن فوزه مشي معه المزارعون المحليون إلى قصره، الذي أعلن توكفيل من نافذته: «أمضي وقلبي تملؤه ذكرى أصدقائي، وأود أن أقول إنني منذ هذا اليوم نسيت أسماء خصومي المحترمين.»

كان توكفيل يعمل في الجزء الثاني من كتاب «الديمقراطية في أمريكا»، لكن فكرة دخوله دوامة السياسة المائجة في باريس كانت أكثر إغراءً. كتب إلى كيرجورلي يقول: «لا تظن أنني مأخوذ بحماسة عمياء، أو أي نوع من أنواع الحماس للحياة الفكرية؛ فأنا دائمًا ما أضع الحياة المفعمة بالنشاط فوق كل شيء.» وتابع قائلًا إنه يدرك أن الكتابة يمكن أن تكون في حد ذاتها شكلًا فعالًا من أشكال العمل النشط. بعد سنوات عندما رجع بأفكاره إلى المدة القصيرة التي قضاها وزيرًا للخارجية في عهد الجمهورية الثانية في حوار له مع ناسو سينيور قال: «ما آسف على فقده من بين مهامي الوظيفية هو الكد والانهماك في العمل، إذ أسعدني ألا أجد لحظة في اليوم لنفسي، لأنني قد أكون كئيبًا بطبعي، وعندما لا يجد عقلي شيئًا ليفعله يفترس نفسه.»

يا له من نشاط هذا الذي اجتاح كيان توكفيل بسبب وجوده في مجلس النواب! فبعد التفكير الطويل والكتابة عن السياسة وجد توكفيل نفسه أخيرًا في خضم السياسية، يصنعها ويمارسها على أرض الواقع. كان توكفيل أكثر يقظة من أن يفوته فهم التفاصيل الدقيقة للتحالفات السياسية المتعددة في مجلس النواب. لكن ما أثر فيه أكثر — أو بمعنى أدق: أحبطه — هو

عدد زملائه من النواب الذين كانوا لا هَمَّ لهم إلا أن يسعوا خلف مصالحهم الشخصية. لم يفت هذا الشاب — بعقله الذي يعمل بطاقة كبيرة — فهم الكثير مما دار حوله من فساد في مجلس النواب، وسعي كل أعضائه وراء إبرام صفقاتهم الخاصة؛ مما تسبب في تدهور حالته المعنوية.

في الانتخابات السابقة التي خسرها توكفيل بعد أن رفض المساعدة التي عرضها عليه الكونت دو مول لقّنه الكونت درسًا مهمًّا عن الفرق بين الاستقلال والعزلة. بعد أن أصبح توكفيل عضوًا في مجلس النواب واجه خطر عزل نفسه بمحاولة الحفاظ على استقلاله عن الأحزاب. في ذاك الوقت في المجلس كان كل عضو يجلس وفقًا لآرائه السياسية؛ فوضع مقعده — إن جاز التعبير — حيث وجد أفكاره السياسية. وجد توكفيل مقعدًا في اليسار اللبرالي بين الجمهوريين واليسار الحاكم، وتوكفيل ليبرالي في الأساس، لكنه كان لا يزال يؤمن (بلا حماس) بالملكية، ويأمل في نفس الوقت في التحول إلى الديمقراطية بهدوء وثبات. أوضح جاردان بالتفصيل مواقف توكفيل السياسية حين قال: «الفصل بين الكنيسة والدولة، وإصلاح قوانين الانتخاب [بإعطاء حق الانتخاب لنسبة أكبر من السكان]، وتعديل الهيكل الضريبي بما يلائم مصلحة العمال، ومنح المدارس المحلية حرية اختيار مناهجها، والقضاء على العبودية [في الجزائر والمستعمرات الفرنسية]، والتوسع في استقصاء أسباب الفقر بهدف القضاء عليه بإنشاء الجمعيات ... إلخ.»

كانت الحياة السياسية النشيطة فخًّا — ربما يقول البعض إنها زريبة — تحسس فيها توكفيل خطاه بحذر شديد. فكان كما وصفه بلطف العالم السياسي شيلدون وولين Sheldon Wolin «معارضًا دون أن يكون متمردًا». كتب توكفيل فيما بعد قائلًا إنه دخل مجلس النواب «رجلًا جديدًا يتمتع بروح حرة وحب حقيقي عارم للحكومة النيابية ولكرامة الدولة». غير أن تلك الروح لم تجد الرفاق المناسبين بسهولة في عام ١٨٣٩. كان من بين زملائه في المجلس الشاعر ألفونس دو لامارتين Alphonse de Lamartine، الذي اتفق توكفيل مع الكثير من آرائه، لكنه خشي أن تطغى عليه شخصية لامارتين القوية، الذي كان نجمه صاعدًا. رأى توكفيل أن

لوي تيير Louis Thiers وفرانسوا جيزو — وهما اللذان هيمنا على المجلس خلال سنوات نيابته — شخصيتان بغيضتان من وجهة النظر السياسية. فقال إن تيير كان بارعًا لكن لم يكن ذا مبادئ، بينما كان الآخرون جميعًا «بلا براعة ولا مبادئ». في تلك المدة بدا له جيزو — الذي كان توكفيل قد تعلم من محاضراته الكثير — دجالًا سياسيًّا كغيره. مع أن تيير وجيزو كانا بارعين في كل ما فعلاه فإنهما لم يبلغا المستوى المتوقع من العظمة بسبب افتقارهما إلى الرؤية السياسية، ووصما الفترات التي برزا فيها في مختلف المهن التي زاولاها بعدم التميز.

لم يتسبب استقلال توكفيل والمعايير العالية التي أصدر على أساسها أحكامه السياسية في شعوره بالرضا. انتُخِب ستون عضوًا جديدًا في نفس الوقت الذي أُنتخب فيه، وكان يأمل في أن ينضم أكثرهم إليه فيما يشبه حزبًا يناهض التحزب يعمل خارج دائرة النظم القديمة القائمة على المصلحة الشخصية والتحالفات التقليدية. كتب في آخر مدة نيابته إلى نائب زميل يخبره أنه كان يتطلع إلى تكوين «اتحاد من رجال قليلين ذوي موهبة وطيبة قلب، لا يتورطون في المكائد ... وإنما يفعلون ما يجب فعله لا لشيء سوى وجوب فعله». وإن كان هذا ممكنًا لم يكن ألكسي — للأسف — هو الشخص المناسب لتحقيقه، فأسلوبه كان متحفظًا على نحو فاتر — إن لم يكن باردًا — بينما يحتاج تكوين جماعات سياسية قوية إلى حميمية خادعة. قال قريبه شاتوبريان: «إن النجاح في العمل العام لا يعتمد على اكتساب سمات شخصية، وإنما على فقدها.»

كان الكثير مما يتعلق بالحياة السياسية النشيطة غريبًا على طبيعة توكفيل، وسرعان ما اكتشف ذلك، كما قال في كتاب «ذكريات»، الذي يتناول ذكرياته عن السنوات التي قضاها في العمل السياسي: «أفتقر تمامًا إلى فن جمع الرجال وقيادتهم كجسد واحد؛ فأنا لا أُظهر براعتي إلا في الحوارات الثنائية، أما أمام الجموع فأرتبك وألتزم الصمت». ولم يكن اجتماعيًّا على نحو كبير، ولم يحب «التكرار المتواصل» الذي هو جزء من الجدل السياسي. كانت استقامته دائمًا ما تقف في طريقه، وكان يتمسك بما يعتقد أنه الحق

تمسكًا شديدًا، حتى إنه يقول: «فور أن أصل إليه لا أحبذ أن أخاطر بفقده في مجادلة، فهو كالضوء الذي يمكن أن ينطفئ إذا حركته هنا وهناك.» باختصار «سرعان ما اكتشفت أنني أفتقر إلى الصفات المطلوبة للقيام بالدور البارز الذي حلمت به؛ إذ وقفت مميزاتي وعيوبي عائقًا في طريقي.»

لم يكن أحد أقل ودًّا من توكفيل، ولم يكن الترحاب بأي شخص أصعب من الترحاب به، لأنه كان يفتقر إلى القدرة على أن يجعل الناس تحبه بسرعة. ساعد على ذلك ضعفه الجسدي وقصر بصره وامتقاع لون بشرته، التي اعتقد البعض أنها دليل طموحه الفاسد. أضف إلى هذا أسلوبه الساخر (قال رجل بعد أن التقى به لأول مرة: «يمكنني القول بأن كلماته تحمل أكثر من معنى».)

لم يحلم توكفيل بأن يبرز في مجلس النواب بمساعدة موهبة الخطابة، وبالطبع كان النواب يُقدرون الفصاحة أكثر مما يقدرون العمق الفكري بمراحل. تعود مشكلته في التحدث أمام حشد إلى أيام شبابه عندما كان يعمل قاضيًا في فيسيل، حينها كتب إلى لوي دو كيرجورلي عام ١٨٢٧ يقول: «أجد صعوبة في التعود على التحدث أمام الناس؛ فأنا أتحسس كلماتي واهتم كثيرًا بأفكاري. أرى حولي في كل مكان أناسًا سيئي التفكير جيدي الحديث، وهذا يصيبني بالإحباط، إذ يبدو لي أنني أفوقهم، لكن كلما مثلت أمام الناس شعرت بأنني أقل منهم.»

لن تكون القدرة على ارتجال الكلام المقنع نقطة قوته أبدًا؛ فكان ذا صوت واهن ولم يكن له حضور قوي. كان توكفيل عميق التفكير وشديد الحرص على الدقة إلى درجة تفقده قوة التأثير وهو واقف يتحدث. فقدرته على الكتابة بهذه الروعة لم تعمل إلا ضده. قال في محاضرة ألقاها في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية عام ١٨٥٣: «في الواقع إن فن الكتابة يُعوّد عقل من يمارسه مدة طويلة على عادات تضر بقدرته على تصريف الأمور؛ فهي تخضعه لمنطق الأفكار، بينما لا يصغي العامة إلا إلى المشاعر التي تحملها تلك الأفكار. وهي تجعل المرء مولعًا بما هو مرهف ورفيع وبارع ومبتكر، في حين أن العالم تحكمه أشياء شديدة الابتذال.» كتب

توكفيل في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» أن «الصمت هو أفضل خدمة يمكن أن يسديها شخص غير بارع في التحدث للصالح العام»، وربما كان يعني نفسه حينها.

كان صديق توكفيل روييه كولار Royer-Collard نائبًا معتدلًا يؤيد الملكية، نجح بمساعدة ذكائه الشديد ورباطة جأشه وحسه الراقي في أن يحافظ على شرفه ويحظى باحترام كل أعضاء مجلس النواب في مرحلة هي الأكثر قذارة على مدار الحياة السياسية الفرنسية. كان روييه قد حذر توكفيل من السعي وراء عضوية مجلس النواب، قائلًا إنه يدخل الحياة السياسية النشيطة في أكثر الأوقات تقلبًا، وإنه بدون موهبة الخطابة لن يكون ذلك في مصلحته على الإطلاق. كان روييه كولار يكبر توكفيل بأربعين عامًا، لذا كان بمنزلة مستشاره، بل — وغالبًا — كاهن اعترافه خلال السنوات الأولى له في المجلس. (توفي روييه كولار عام ١٨٤٣.)

مع هذا نال توكفيل كثيرًا من الإعجاب في مسقط رأسه فالوين، حيث كان يتعهد الناخبين بعناية مفرطة، وشغل منصب رئيس المجلس الإداري — أو المحلي — ثلاث مرات. في المجلس كان يشغل عقله الكبير بأمور صغيرة، فكان يتجول مخبرًا المسئولين المحليين وملاك الأراضي عن السياسة في باريس. يحكي جاردان قصة جميلة عن أنه في يوم من أيام الانتخابات تعجب أحد الناخبين من أن توكفيل يبدو متعبًا، فكيف يكون متعبًا وهم ضمنوا له النجاح في الانتخابات؛ مشيرًا بهذا إلى أوراق الاقتراع التي سجلوا فيها أصواتهم لصالحه.

إن محاولة فهم موقف توكفيل السياسي والإلمام به لعبة لا نهاية لها؛ فهي في نهاية المطاف لعبة لا طائل من ورائها أو لعبة لا يمكن الربح فيها. فهل كان رجلًا يساريًّا أم يمينيًّا، ليبراليًّا أم محافظًا، لبراليًّا محافظًا أم محافظًا لبراليًّا، أرستقراطيًّا رقيقًا أم ديمقراطيًّا متذمرًا؟ يبدو أن الحقيقة تتلخص في أن توكفيل كان هؤلاء جميعهم، وأحيانًا ما أظهر كلا من هذه الصفات على حدة، وأحيانًا أخرى ما أظهرها مجتمعة؛ فكان يتسم بكل هذه الصفات وأكثر. كان يخاف الثورة (لسبب تاريخي وجيه) ويحب النظام،

ويزدري سياسة تملق العوام، ولم يكن مقربًا منهم — على الأقل بالمعنى التجريدي الأخرق الذي يستخدم به هذا المصطلح عادة — لكنه كان يتفهم تمامًا تلك الشحنة العاطفية التي تنتج عن الشعور بالظلم. حارب العبودية بقوة وناصر الاستعمارية. باختصار لم تتسم توجهات توكفيل السياسية بالبساطة.

شكلت الظروف التاريخية معظم آراء توكفيل السياسية. كتب في ٢٢ مارس/آذار عام ١٨٣٧ خطابًا إلى هنري ريف Henry Reeve — صديقه الذي ترجم أعماله إلى الإنجليزية — جاء فيه: «ارتبط اسمي بالتحيز إلى الديمقراطية والأرستقراطية. ربما كنت سأنحاز إلى إحداهما إن كنت قد وُلدت في عصر آخر وفي دولة أخرى، لكن تصادف أن منحني وقت ومكان مولدي خيار الدفاع عن كليهما ... فالأرستقراطية ماتت بالفعل قبل مولدي، ولم تكن الديمقراطية قد ظهرت بعد. لذا لا يمكن لمشاعري الفطرية أن تنساق انسياقًا أعمى وراء إحداهما. وُلدت في دولة ظلت أربعين عامًا تجرب كل شيء لمدة قصيرة، دون أن تركز اهتمامها على أي شيء، لذا لم أكن فريسة سهلة للأوهام السياسية. وبما أنني أنتمي إلى الأرستقراطية القديمة في بلدي فلم أُكنّ لها كراهية أو حقدًا فطريًّا، وبعد أن زالت تلك الأرستقراطية فإنني لم أعد أحمل لها حبًّا فطريًّا، فنحن لا نناصر إلا ما هو حي ... باختصار استطعت أن أحقق توازنًا كبيرًا بين الماضي والمستقبل، حتى إنني لم أشعر أنني أنجذب انجذابًا فطريًّا أو غريزيًّا لأي منهما، ولم أجد صعوبة في النظر إلى الجانبين بلا تحيز.»

غير أنه في عالم السياسة يصبح الرجل الذي لا يتبنى مواقف محددة وحيدًا، عاجلًا أو آجلًا، كما توقع الكونت دو مول. هذا هو الحال الذي وجد توكفيل نفسه عليه في مجلس النواب؛ فاكتشف أنه تعاطف مع اليمين، لكن كثيرًا ما اتفق مع اليسار، وغالبًا ما كان ينضم إلى أحد الجانبين في معارضة الحكومة. عُين توكفيل مقررًا — شخص تُوكَل إليه مهمة كتابة ما تم التوصل إليه — في لجنتين هامتين؛ إحداهما عن العبودية، والأخرى عن نظام السجون، وهما موضوعان جعلته زيارته للولايات المتحدة بمنزلة

خبير فيهما. في بداية مدة نيابته تحدث أمام المجلس عن السياسة الخارجية في الشرق الأوسط، لكن دون أن يترك أثرًا بالغًا. وتحدث قليلًا عن قضية العبودية في الجزائر — التي كانت مستعمرة فرنسية في ذاك الوقت — قائلًا إنه يحسن تبني سياسة التدرج في القضاء على العبودية، بدلًا من اجتثاث جذورها مرة واحدة. اهتم توكفيل بالسياسة الخارجية، ودافع عن الاستقلال الفرنسي، وتشدق كلما سنحت له الفرصة بعظمة الأمة. واشترك في الجدل الدائر حول حرية التعليم في الريف، فلم يكن يؤيد سيطرة جامعات باريس المركزية عليه. ودافع عن الكيانات المحلية الحاكمة، ودفعه إلى هذا خوفه من أن تصبح المركزية الشديدة في الحكومة سبيلًا إلى الاستبداد. بحلول عام ١٨٤٦ اكتسب توكفيل كما قال جاردان: «وزنًا حقيقيًّا في عالم السياسة، وأصبح شخصية هامة»، بعد أن أُعيد انتخابه في مجلس النواب. ومع هذا كتب سيمور دريشر Seymour Drescher أن السنوات التسع التي قضاها توكفيل في مجلس النواب انقضت في إحباط شديد، نظرًا لأنه فشل في أن يصبح قائدًا حقيقيًّا للمجلس، وأُلغيت أو أُعيقت كل برامجه وتوصياته الأساسية. ولا بد أنه كان ينظر إلى مجلس النواب على أنه مقر العشوائيات الفكرية، وربما الأخلاقية.

فالشعور بمرارة الهزيمة والإحباط كان المحور الرئيسي في خطابات توكفيل إلى روييه كولار في تلك المدة، إذ بدأ خطابًا له في عام ١٨٤٠ بإخبار الرجل الكبير بمدى صعوبة التحدث إلى الناخبين في دائرته، فأكثرهم لا يعرفون من هو رئيس الوزراء الحالي، «هل تعتقد يا سيدي … وأنت من رأى الكثير وفكر كثيرًا وتوغل في أعماق الطبيعة البشرية، هل تعتقد أن عالم السياسة سيظل مدة طويلة مفتقرًا إلى الحماسة الحقيقية كما هو الآن، وأن الإخلاص في حب العمل من أجل المصلحة العامة — كعامل من عوامل النجاح — سيظل خروجًا عن العرف كما هو الآن؟» ويواصل كلامه قائلًا بشيء من الزهو: «هل تعتقد يا سيدي أنه سيأتي الوقت الذي يستطيع فيه حب المصلحة العامة — الخالي من الانقياد وراء المصالح الشخصية بالقدر الذي تسمح به طبيعتنا البشرية الضعيفة — أن يسدينا بعض النفع ويضع

الاستقامة موضع تقدير؟ إنني أحب الصلاح، لكنني أحب أيضًا النجاح الذي يأتي به.» إن الصدق الذي ينطق به النصف الثاني من هذه العبارة ينفي عن توكفيل تهمة أنه سياسي شديد التزمت يتشدق بفضيلته.

لم يتحسن الوضع بعد عام؛ إذ أدرك توكفيل أنه في الحقيقة لا يتمتع بموهبة كبيرة تمكنه من خوض حياة سياسية نشيطة. وأخبر روييه كولار بكرهه لكلٍّ من تيير وجيزو، مع اعترافه بأنه لا يمكن لشيء أن يتم ما لم يدخل في دائرة سلطتهما. «إنني أقارن نفسي بعجلة تدور بسرعة شديدة، لكنها خرجت عن ترسها ولهذا لا تفعل شيئًا ولا تفيد في شيء.» ويضيف: «أشعر بمقت كبير لفكرة أن أربط نفسي إلى الأبد بأحد رجال السياسة الذين يعيشون في عصرنا، ولا أجد بين كل الأحزاب التي تقسم بلدنا؛ حزبًا واحدًا يشجعني على الانضمام إليه.» شعر توكفيل أنه لا يوجد أمامه إلا أن يعبر عن رأيه في أحداث وقوانين العصر بأفضل طريقة ممكنة، لكن بلا أدنى أمل في تغيير أي منهما إلى الأفضل، وأن يُبقي على قوته الأخلاقية بعيدة عن كل سوء، بألا يضحي بها في سبيل مصلحة حقيرة. ويشتكي قائلًا: «لطالما كان العقل في رأيي كالقفص الذي يعوقني عن العمل، لكنه لا يمنعني من العض على أسناني خلف قضبانه.»

أما عن رأي روييه كولار في توكفيل فقد اقتبس جاردان خطابًا أرسله روييه كولار إلى دوقة دينو Dino، كتب فيه أن للشاب توكفيل «رصيدًا من الإخلاص لا يكفيه، وهو يسحب منه بلا حكمة، لكن دائمًا ما يبقى جزء من هذا الرصيد، وأخشى أن يتيه في مسارات غير مطروقة أملًا منه في إصلاح ما لا يمكن إصلاحه، بسبب عدم صبره على الوصول». أدرك روييه كولار الحكيم أن توكفيل شعلة من الطموح، وأنه شديد التوق إلى تحقيق مكانة رفيعة.

في كتاب «ذكريات» يعود توكفيل بأفكاره إلى أيامه في مجلس النواب في عهد الملك لوي فيليب، ويذكر في ذاك الوقت «نجاح الطبقة الوسطى في تثبيت أقدامها في كل المناصب [الحكومية]، وزيادة عدد المناصب التي تشغلها على نحو غير مسبوق، واعتيادها الاعتماد على الأموال العامة كما

لو كانت قد كسبت هذه الأموال من عملها الخاص.» كان لوي فيليب هو من بدأ هذا كله، «فكان بمنزلة الحادث الذي جعل المرض مهلكًا». شبّه توكفيل الحكومة بـ«شركة تجارية» يسعى كل من فيها وراء مصلحتهم الشخصية.

أما عن زملائه من النواب فقد كتب توكفيل: «أمضيت عشر سنوات من حياتي في صحبة عقول شديدة العظمة، في حالة دائمة من الإثارة التي لا تصل أبدًا إلى الغضب الحقيقي. إنهم أشخاص استثمروا أقصى ما لديهم من حدة الذهن في بحث عقيم عن موضوعات يمكنهم أن يختلفوا حولها اختلافًا جديًّا.» كانت أفكار لوي فيليب مهيمنة على كل ما يحدث في مجلس النواب، هيمنة جعلت الاختلافات بين الأحزاب تنزل إلى مرتبة «الفروق الطفيفة الهامشية»، والتنافس بينها لا يتعدى «شجارًا على الكلمات». فمؤيدو الملكية والاشتراكيون والكاثوليك والجمهوريون والوطنيون والليبراليون والحزب الثالث جميعهم تخصصوا في الاختلاف فيما بينهم، ولم يكن لديهم وسيلة ناجحة لحمل لوي فيليب على القيام بتغييرات مجدية. كان النواب قد «ملوا من الاستماع بعضهم إلى بعض، والأسوأ من ذلك أن الأمة بأسرها كانت قد ملت من الاستماع إليهم».

بعد الهزيمة التي لحقت بتوكفيل في المحاولة الانتخابية الأولى وصله خطاب مواساة من رويير كولار، يقول فيه الرجل الكبير إن ذاك الشاب كانت «توجهه العناية الإلهية»، وإن «الحياة النيابية اليوم تافهة، إن لم تكن متبلدة في أغلب الأحيان. لا يمكنك أن تسعى إلى تحقيق الشهرة من خلالها، وإنما يجب أن تأتي بالشهرة إليها. إذن فلتنه كتابك، وستكون هذه آية من العناية الإلهية.» للمرة الثانية ثبت أن رويير كولار كان محقًّا. بعد ذلك بكثير — تحديدًا في عام ١٨٥٢ — كتب توكفيل إلى والده بعد أن تقاعد عن الحياة السياسية النشيطة أنه لم يسع أبدًا خلف السلطة، وإنما كان يبغي الشهرة. غير أنه كتب ذلك في وقت لم يعد فيه احتمال حصوله على السلطة ممكنًا، والحقيقة أنه كان يتوق بشدة إلى كل من السلطة والشهرة.

الفصل السادس

أعلن توكفيل في مقدمة «الديمقراطية في أمريكا» إعلانًا قصيرًا عن إصدار الجزء الثاني من الكتاب، قائلًا إنه لن يكتبه بنفسه، وأضاف أنه خطط في بادئ الأمر لكتابة جزء ثان من الكتاب يصف فيه «أثر المساواة في المراتب والحكم الديمقراطي على المجتمع المدني في أمريكا: على العادات والأفكار والأعراف»، لكن حماسه للمشروع بدأ يخبو، وأكد أنه «سرعان ما سيوضح مؤلِّف آخر للقارئ السمات الأساسية للشخصية الأمريكية، وسيكون أكثر قدرة مني على تزيين الحقيقة بحلي عظيمة، بإسدال ستار رقيق على الجانب السلبي في تقديمه للصورة.» سيكون هذا المحلل الباهر بالطبع هو جوستاف دو بومون.

إن الشراكة التي جمعت توكفيل وبومون لا مثيل لها في تاريخ الفكر. أصبح بومون عضوًا في مجلس النواب في نفس العام الذي دخل فيه توكفيل المجلس (١٨٣٩)، وفي معظم الأحيان كانا يعملان كفريق معارض للحكومة، باستثناء مرة واحدة تبنيا فيها مواقف مختلفة. سافرا إلى إنجلترا وأيرلندا معًا، وتزوجا في العام نفسه، وعملا في مشروعات متماثلة. ومرّض بومون توكفيل عندما مرض في الولايات المتحدة وعندما ذهبا معًا إلى الجزائر.

فشراكتهما الأدبية كادت أن تبلغ حد الكمال. كان بومون قد تناول جزئيًّا الموضوع الذي أشار توكفيل إليه في مقدمة الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» — ألا وهو «عادات وأفكار وأعراف» الأمريكيين — في روايته «ماري» *Marie*. لكن توكفيل قرر أن يتناول هذه المادة بأسلوبه الأكثر تعقيدًا. أما

عن كيفية اتخاذ توكفيل قرار العمل وحده في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» بالرغم من كل شيء فهو أمر غير معلوم على الإطلاق.

أشار سيمور دريشر في ملحق كتاب رائع كان قد حرره بعنوان «توكفيل وبومون في الإصلاح الاجتماعي» *Tocqueville and Beaumont on Social Reform* إلى أن الرجلين اتفقا على تقسيم العمل في الكتاب بينهما. وفقًا لهذا التقسيم سيكون على بومون معالجة قضايا ضحايا الاضطهاد، مثل: العبيد الزنوج، والهنود الأمريكيين، والأيرلنديين؛ معالجةً تثير تعاطف القراء، بينما يكون على توكفيل وصف وتحليل تيارات السلطة المركزية. وهكذا سيكتب بومون عن أيرلندا (كما فعل في كتاب «أيرلندا» *L'Irlande* عام ١٨٣٨) وإنجلترا، تاركًا لتوكفيل تناول أمريكا وأحوال فرنسا قبل وبعد الثورة. كتب توكفيل أيضًا عن إنجلترا، لكنه لم ينشر أيًّا من تلك الكتابات في حياته.

في محاولة من دريشر لإنصاف بومون أكد أن الرجلين تناقشا في كل ما يخص الكتاب. فأرسل توكفيل — كما نعلم — مخطوطاته إلى بومون (وآخرين) لموافاته بنقدهم وتصويباتهم. لذا لا يمكن لأحد أن يعلم على وجه اليقين ما كتبه بومون وما كتبه توكفيل في جزأي «الديمقراطية في أمريكا». لكن ما لا شك فيه هو أن توكفيل هو أعظم الرجلين قدرة على التحليل، وأن عقله توصل إلى الربط المدهش بين الأشياء، وولّد الأفكار من الحقائق والمبادئ العامة من التحليلات. كذلك لا شك أن عمل توكفيل تحسن كثيرًا بفضل مساعدة بومون، أما بومون فلم يكن لينتج عملًا بهذا التعقيد الغني الذي يميز «الديمقراطية في أمريكا» حتى وإن حصل على أكبر مساعدة ممكنة من توكفيل.

أثناء تأليف توكفيل الجزء الثاني كان غالبًا ما يكتب إلى أصدقائه في الولايات المتحدة، طالبًا منهم تزويده بمعلومات عن مواد لم يتمكن من جمعها بنفسه خلال زيارته القصيرة. وواصل قراءة كل ما يتعلق بمشروعه وما استطاع أن يحصل عليه مثل «الوثيقة الفدرالية» و«عن القانون الأمريكي» لجيمس كينت James Kent و«عن دستور الولايات المتحدة» *Commentaries on the Constitution of the United States*

لجوزيف ستوري Joseph Story وغيرهم الكثير. كان يحاول إتمام الجزء الثاني من كتابه عندما دخل إلى الحياة السياسية النشيطة، فكتب إلى بومون يقول: «يجب أن أنهي هذا الكتاب مهما كان الثمن، فنحن في مبارزة حتى الموت، وإما أن أقتله أو يقتلني.»

بالرغم من اللهجة الواثقة التي تهيمن على الكتاب في صورته النهائية فقد كان توكفيل يعرف كم كان نهجه في هذا الكتاب — أي طريقته في التحليل التي يخرج منها بأحكام عامة — تجريبيًّا. كان يدرك قصور أفكاره الجيدة عن استيعاب الواقع بكل غناه. فكتب في فصل من الفصول الأولى يقول إن الله «ليس في حاجة إلى المبادئ العامة»، أما العقل البشري فلا يحتمل الحياة بدونها. «المبادئ العامة تشهد ليس على قوة العقل البشري، وإنما على عجزه ... فالمبادئ العامة رائعة في شيء واحد [فقط]؛ وهو أنها تسمح للعقل البشري أن يطلق أحكامًا سريعة على أشياء كثيرة جدًّا في وقت واحد، في حين أن المفاهيم التي تأتي بها الأحكام العامة دائمًا ما تكون ناقصة، فما تجنيه من اتساع المجال تفقده في الدقة.» إن عدم ثقة توكفيل في المبادئ العامة يشير إلى أنه رجل يتمتع بحس أدبي في المقام الأول، يرى أن الحقائق الهامة بالنسبة له توجد إما في الحالات الخاصة أو في مملكة حقائق القلب البشري التي هي فوق مستوى المبادئ العامة.

تعد هذه الفقرة من كتاب «الديمقراطية في أمريكا» جزءًا من دفاع توكفيل عن منهجه، الذي يقوم على تقديم الأفكار بسرعة في دراسته للديمقراطية. ومع أن سيل الأفكار التي يشتمل عليها الكتاب ينبع كله من الفكرة الأم — التي تشير إلى الارتفاع الحتمي في مد المساواة في العالم في عصر توكفيل، وهو الاتجاه الرئيسي الذي يتفرع منه كل شيء آخر في الكتاب — فإن تلك الأفكار تمر بسرعة خاطفة وهو يسردها. ما يدهشنا هو قوة الحجج التي تدعم الكثير من هذه الأفكار، والخصوبة الفكرية التي يتمتع بها الرجل الذي توصل إليها.

بعض المبادئ العامة التوكفيلية الأخرى تجعلنا نتساءل عما تحتويه من عناصر السيرة الذاتية. ففي الفصل المعنون «كيف تساعد المساواة في المراتب

على المحافظة على الأخلاق الطيبة في أمريكا» يتناول توكفيل التمسك الأمريكي بحرية الاختيار في الزواج قائلًا: «لذا لن يتعجب أحد من حقيقة أنه إذا ما أظهر رجل ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية الجرأة الكافية لأن يثق برأيه وذوقه الخاص فقط عند اختيار شريكة حياته، فإنه سرعان ما ستغزو بيته الفوضى الأخلاقية والتعاسة.» عند قراءة هذه العبارة يستعيد المرء صوت تحطم طبق الباتيه في منزل توكفيل، ويتذكر اعترافات توكفيل بالخيانة.

وفي أنحاء الكتاب تقرعُ جمل كالحكمِ أجراس الحقيقة الدامغة، فمثلًا كتب توكفيل يقول: «ليس في وسع أحد أن يبذل جهدًا أكبر مما يبذله الأمريكيون للوصول إلى السعادة.» وهنا نتذكر على الفور المشاركة الكبيرة التي يقدمها كل فرد منا في العلاج النفسي. وكتب: «إن قلة الانتباه المعتادة هي أكبر عيوب العقل الأمريكي»، مما يجعلنا نفكر في جموع الأطفال المصابين باضطراب نقص الانتباه من حولنا وفي آبائهم الذين لا يكادون يفوقونهم في القدرة على التركيز. ويشير توكفيل إلى أن «التنوع يختفي من النوع البشري»، وهنا تتبادر إلى الذهن صورة السكان المحليين، وهم يظهرون في أنحاء العالم مرتدين ملابس الرابطة الوطنية لكرة السلة NBA المصنوعة من قماش الجرسيه المطاط وأحذية نايك Nike الرياضية.

يتسم كتاب «الديمقراطية في أمريكا» بالفوضى العارمة؛ ففهم موضوعه أسهل بكثير من فهم كيفية تنظيمه، مع أن طبيعة موضوعه كانت محل الكثير من الجدل منذ نشره. فالكتاب مرتب وفقًا للموضوعات، لكن النقاد تساءلوا عن سبب إغفال الكثير من الموضوعات شديدة الأهمية أو عدم إلقاء ما يكفي من الضوء عليها، ومن أمثلة ذلك إغفاله ظهور بعض التطورات التكنولوجية في الولايات المتحدة مثل السكك الحديدية، وعدم إلقائه ما يكفي من الضوء على التعليم الأمريكي. لا شك أن توكفيل نفسه فكر في هذا أيضًا، فقط ليقرر في النهاية أنه في مثل هذا العمل يصبح على المرء أن ينتقي ويختار.

يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن «الديمقراطية في أمريكا» ليس كتابًا عن أمريكا بصفة أساسية. فما يجب التركيز عليه في العنوان هو الكلمة الأولى

«الديمقراطية»، التي تمثل جوهر موضوع الكتاب. فالجمهورية في الولايات المتحدة الجديدة ما هي إلا تجربة توضيحية، ومثال شارح للطريقة التي تعمل بها الديمقراطية في الظروف المواتية. كتب توكفيل يقول: «أعترف أنني رأيت في أمريكا أكثر من أمريكا الدولة، فبحثت فيها عن صورة الديمقراطية نفسها بميولها وصفاتها وما تنحاز ضده وما تنحاز إليه، لكي نتمكن من معرفة ما يُؤمَل منها وما يُخشى.»

كان اهتمام توكفيل في تحليله الأول والأخير بمصير الديمقراطية في محيط الولايات المتحدة الأمريكية أقل من اهتمامه بنتائجها في بلده الأم فرنسا. فكتب إلى صديق عام ١٨٤٧ يقول: «لم أكتب صفحة واحدة [من «الديمقراطية في أمريكا»] دون أن أفكر فيها [فرنسا] ودون أن أضعها نصب عيني، إذا جاز التعبير.» عندما نتوغل في الجزء الثاني يبدأ الطابع الأمريكي للموضوع في الاختفاء أكثر وأكثر. قال الدبلوماسي الإنجليزي جيمس برايس James Bryce الذي يُعَد كتابه «الكومونولث الأمريكي» *The American Commonwealth* (١٨٨٨) في بعض الأحيان منافسًا لكتاب توكفيل: «تنطبق بعض أحكام [توكفيل] على أمريكا وليس على الديمقراطية بصفة عامة، والبعض الآخر ينطبق على الديمقراطية بصفة عامة وليس على أمريكا.» يضيف جاردان: «إذا ما حسبنا المساحة التي تشغلها الحقائق الواردة عن أمريكا في [الجزء] الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» ككل فسنجد أنها تقدر بنحو عشرين في المائة فقط من صفحات الأقسام الثلاث الأولى، واثنين في المائة فقط من صفحات القسم الرابع.»

يعد كتاب «الديمقراطية في أمريكا» كتابًا وعظيًّا؛ فهو قائم على النصح والتحذير وتعلو فيه نبرة القلق المحفوف بالخوف. تكمن في قلبه الحقيقة المؤكدة بأن الديمقراطية ظهرت، ليس في الولايات المتحدة فقط — التي لم تعرف أبدًا نظامًا آخر للحكم — وإنما في جميع أنحاء أوروبا أيضًا، وأنها وصلت إلى فرنسا مصحوبة بعاصفة برقية ورعدية غير عادية بسبب الثورة الفرنسية. كتب توكفيل في المقدمة: «كُتب هذا الكتاب في ظل ضرب من ضروب الإرهاب الديني الذي غمر روح مؤلفه، فور رؤية تلك الثورة

العارمة [باسم المساواة] التي ظلت قرونًا تتجاوز كل العقبات، وتسير قُدمًا بين الحطام الذي خلفته.»

والسؤال المصيري هو: أي شكل ستتخذه الديمقراطية في السنوات القادمة؟ من المحتمل أن تسلك الديمقراطية أحد ثلاثة طرق رئيسية؛ الأول، هو طريق الفوضى، الذي يبدو أن توكفيل لا يخشاه لأنه مستبعد، والثاني، هو طريق استبداد الصمت («استبداد الأغلبية» أو «الاستبداد الديمقراطي» كما يصفه توكفيل في بعض الأحيان)، الذي قد يؤدي إلى حالة عبودية غير لافتة للانتباه لكنها حقيقية، وإلى كآبة أبدية تنتج عن عيش حياة لا تهدف إلا إلى تحقيق الرفاهية المادية، ولا تحركها سوى المصلحة الشخصية الوضيعة، وهذا ما يخشاه كثيرًا. أما الطريق الثالث فهو طريق التقدم المدروس، وفيه يقل العناء ويتسع انتشار السعادة ويتضاءل المجد، وربما يكون هذا الطريق هو أفضل ما يأمله توكفيل أو أي فرد آخر. هنا نجد سؤالًا يحوم على العمل بأكمله: هل تتمتع المجتمعات المعاصرة وخاصة فرنسا بالوعي الرشيد اللازم لاختيار الطريق الصحيح؟

إن الأفكار الرئيسية التي يتناولها كتاب «الديمقراطية في أمريكا» محدودة. بالطبع تعد «الديمقراطية» فكرة مركزية في الكتاب، مع أن توكفيل استخدم هذا المصطلح الرئيسي على نحو مطاطي جدًّا، ففي بعض الأحيان يشير به إلى شكل حكومي يتبنى التوسع في منح حقوق الانتخاب، وفي أحيان أخرى يصف به روح الشعب أو الطابع المسيطر عليه، كما أنه يستخدمه كمرادف للمساواة، حسبما أوضح الكثيرون ممن علقوا على كتاباته. لكن المعنى الغالب الذي جاء به مصطلح الديمقراطية في كتابات توكفيل هو زيادة المساواة في المراتب. ويُعد مصطلح «المركزية» أحد المصطلحات الرئيسية الأخرى، فأوضح توكفيل في العلوم السياسية الجديدة التي طرحها أنه كلما قوي عنصر المركزية في مجتمع ما، عظُم خطر فقده للحرية. آمن توكفيل أن كل الحكومات تميل بصورة طبيعية إلى مركزة وظائفها، مما يعزز من سلطتها بزيادة سيطرتها زيادة كبيرة.

يرى توكفيل أن «الحرية» تكمن في قلب القضية، فهي كل شيء. لا بد من الخوف دائمًا من المركزية؛ ليس لأنها تضع السلطة في يد عدد قليل من الأشخاص وحسب، بل لأنها أيضًا تجرد الناس من حقهم في إدارة شئونهم بأنفسهم ومن قدرتهم على ذلك، مما يجعلهم عرضة للاستبداد أو الثورة أو كليهما. كتب توكفيل في أحد دفاتر ملاحظاته «يجب أن يكون الهمُّ الأكبر لأي حكومة رشيدة هو تعويد الشعب تدريجيًّا على تصريف أموره بدونها»، أي بدون الحكومة نفسها. كتب توكفيل في المدة ما بين تأليف الجزء الأول والثاني من «الديمقراطية في أمريكا» إلى جون ستيوارت ميل يقول «أحب الحرية باختياري، وأحب المساواة بغريزتي وعقلي. وهاتان العاطفتان اللتان يزعم الكثيرون أنهم يتمتعون بهما أشعر عن اقتناع أنهما متوغلتان في أعماق نفسي، وأنني مستعد لأن أقدم تضحيات عظيمة من أجلهما.» شك الكثيرون في حبه للمساواة، وقالوا إنه يُقدّرها كحقيقة واقعية من حقائق الحياة السياسية وحسب. ذكر ناسو سينيور أن توكفيل قال له إن «أعظم بلايا فرنسا هي تفضيل المساواة على الحرية.» ووصف المساواة في نفس الحوار بأنها «بوجه عام الرغبة في ألا يكون الغير أفضل من الذات»، مضيفًا أن «المساواة تجسيد للحسد». أما عن حبه للحرية فقد كتب إلى ميل يقول إنه يؤمن أن الحرية «نافعة وضرورية، وأنا أعمل من أجل تحقيقها بعزم وبلا تردد ... وبلا ضعف، أو هذا ما آمله».

نشأ الصراع المحتدم في ثنايا «الديمقراطية في أمريكا» من الصراع بين إيمان توكفيل الراسخ بحتمية المساواة والحاجة إليها من ناحية، وإعجابه المستمر بالأرستقراطية وهي في مجدها من ناحية أخرى. وصف نفسه ذات مرة بأنه ديمقراطي بحكم الضرورة، إلا أن الأرستقراطية ضاربة بجذورها في نفسه. على المستوى الشخصي كان توكفيل يحيا حياة أرستقراطية — على طريقة ملاك الأراضي الإنجليز المتسمة بالفخامة كما أشار البعض — سواء في قصره في نورماندي أو في باريس.

رأى توكفيل أن الديمقراطية ضرورية وأنها الخيار الصحيح من الناحية الأخلاقية، لكنه شعر أن المجتمع الذي تتحقق فيه الديمقراطية

الخالصة يفقد حيويته، حتى وإن كانت تلك الديمقراطية في أفضل صورها. «هذا المجتمع [الذي يتمتع بديمقراطية متوازنة ومنظمة] سيكون أقل تألقًا من المجتمع الأرستقراطي، لكن في نفس الوقت أقل تعرضًا للشقاء. وفيه يقل إسراف الناس في التمتع بالملذات ويزيد انتشار الرخاء، وتقل رفعة المعرفة لكن تزيد ندرة الجهل، وتصبح المشاعر أقل اتقادًا والعادات أكثر اعتدالًا، وتكثر الآفات وتقل الجرائم ... ففي ظل غياب التطرف والتمسك بالمعتقدات الجامحة يصبح من الممكن دعوة المواطنين إلى تقديم تنازلات كبيرة بمخاطبة عقلهم وخبرتهم. ولأن كل الرجال سيصبحون متساوين في الضعف فسيشعر كل منهم أنه في حاجة إلى دعم أخيه بقدر حاجة أخيه إليه، وعندما يعرف أن التعاون هو شرط حصوله على هذا الدعم سيرى بطيب نفس أن مصلحته الخاصة تم احتواؤها في المصلحة العامة ... ستصبح الأمة بأسرها أقل تألقًا وأقل مجدًا وربما أقل قوة، لكن غالبية المواطنين سيصبحون أحسن حالًا. سيفضل الناس السلام على الحرب، ليس بدافع يأسهم من الحصول على حياة أفضل، وإنما بدافع تقديرهم للحياة الجيدة التي يحيونها.»

أيد توكفيل بشدة الكثير من الأمور المتعلقة بالديمقراطية، فعلى سبيل المثال كان يعتقد أن العلاقات الأسرية تصبح أقل توترًا وأكثر حميمية في ظل الديمقراطية عنها في ظل الأرستقراطية، وأحب ذلك. واعتقد أن المرأة تصبح أكثر استقلالًا وروعة في ظل الديمقراطية (وإن كانت جاذبيتها كأنثى تقل). واعتقد أن الديمقراطية عندما تجعل أحوال المواطنين أكثر تشابهًا تجعلهم أكثر تعاطفًا فيما بينهم، وبهذا لن يتسم موقفهم من موت أعداد كبيرة أو قليلة من الناس بالبرود، الذي يميز موقف الأرستقراطيين.

أما فيما يتعلق بتأييد توكفيل للديمقراطية فلم يكن تأييده لها في مجمله متحمسًا على الإطلاق؛ لأنه وجد الديمقراطية أكثر إبهارًا في الولايات المتحدة عنها في فرنسا، حيث كان يرى كل شيء في حالة من الفوضى والتقييد في ظل صحوة الثورة الفرنسية التي لا تزال تسري بين الناس. «كلنا يشعر أن هناك خطأ ما، لكن لا يملك أحدنا الشجاعة أو الطاقة

اللازمتين لتصويبه.» كان توكفيل ينظر إلى أحوال فرنسا ويتساءل: «هل كان الإنسان دائمًا ما يعيش في عالم لا يحمل أي شيء فيه معنى كما يحدث الآن؟ عالم تخلو فيه الفضيلة من العبقرية والعبقرية من الشرف؟ عالم لا فرق فيه بين حب النظام وشهوة المستبدين؟ عالم خلط الناس فيه بين الولع المقدس بالحرية واحتقار القانون؟ عالم لا يُلقي فيه الضمير سوى بضوء خافت على أفعال الرجال؟ عالم لم يعد فيه ضابط واضح للحلال والحرام، ولم يعد فيه فرق بين ما هو مخز وما هو مشرِّف، وبين ما هو صواب وما هو خطأ؟

كان ألكسي دو توكفيل رجلًا قد سلم رايته. فالديمقراطية التي سيمضي حياته فيها لم تَعِد بالكثير وكانت محفوفة بالمخاطر، لكنها كانت حتمية. فالعناية الإلهية — كما قال في مقدمة الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» — هي التي فرضتها. تلخص مشروعه الكبير في كشف مخاطر الديمقراطية الطائشة من جهة، وأفضل ما يمكن أن تقدمه من جهة أخرى.

إن جوانب القصور التي رآها توكفيل متأصلة في الديمقراطية أصابته بالإحباط؛ وكان على رأس تلك الجوانب — في حالة أمريكا — القصور الشديد في عظمة الإنسان. فكتب في خطاب أرسله عام ١٨٣١ إلى صديقته مدام دو جرانسي Madame de Grancey يقول: «في الولايات المتحدة لا يعاني الناس حروبًا ولا طواعين، ولا يستمتعون بالأدب ولا البلاغة ولا الفن الرفيع، ويواجهون القليل من الجرائم الكبيرة، فلا يوجد عندهم شيء مما يثير اهتمام أوروبا؛ فالناس هنا يتمتعون بسعادة شاحبة الوجه كأقصى شحوب يتخيله البشر.» (تُذكرنا تلك الفقرة بهنري جيمس في الكتاب الذي يتحدث فيه عن هاوثورن Hawthorne، عندما قال إن هاوثورن كان لديه القليل ليفعله في المجتمع الأمريكي، وهو سبب رآه جيمس كافيًا ليرحل من وطنه الأم إلى أوروبا).

إن عجز الأمريكيين عن تبني ما أسماه توكفيل بـ«النظرة السامية للأشياء» جسّد النقص الذي أقلقه من الحياة في أمريكا ومن الحياة في ظل الديمقراطية. «يبدو أن الرغبة في الارتقاء تقض مضجع كل أمريكي، لكن لا

يبدو أن أحدًا تقريبًا يحمل آمالًا عريضة أو يذهب بأهدافه إلى عنان السماء. فكلهم مثابرون في رغبتهم في الحصول على الأملاك والشهرة والسلطة»، لكن مع أن الطموح «جارف ودائم ... يقضي الناس حياتهم يلهثون خلف أشياء تافهة يرون أن باستطاعتهم الوصول إليها.»

كانت أمريكا هي بلد العصاميين، ومشكلة العصامية تكمن في أن صناعة الذات تستغرق وقتًا طويلًا. يقتبس توكفيل قول باسكال Pascal: «إن الميزة الكبرى في أن يكون المرء كريم الأصل هي أن ذلك يضعه على طريقه وهو في الثامنة عشرة أو العشرين من عمره، بينما قد يضطر إنسان آخر أن ينتظر حتى الخمسين ليصل إلى هذه المرحلة، فبهذا يجني المرء ثمار ثلاثين عامًا بلا جهد.» يتفق توكفيل مع هذا مضيفًا أن «هذه الأعوام الثلاثين هي عادة ما يجب أن يستغني عنه الرجال الطموحون في ظل المجتمعات الديمقراطية.» إن الصراع من أجل تحقيق الاستقرار المادي والنجاح من شأنه أن ينهك الرجال، بحيث «يفقدون الميل إلى فعل الأشياء الاستثنائية في الوقت الذي يصبحون فيه قادرين على فعلها». يشعر توكفيل بالقلق حيال تواضع قدرات الناس في المجتمع الديمقراطي، «أقصى ما يُخشى في ظني هو أن تبتلع مشاغل الحياة الخاصة الحقيرة التي لا تنتهي بريق الطموح وعظمته، وأن تخمد المشاعر الإنسانية وتتضاءل في الوقت نفسه، تاركة المجتمع يبدو أكثر هدوءًا لكن أقل بريقًا مع مرور الوقت.»

إن آراء توكفيل في الطموح تنطبق على كل المجالات من فنون وبلاغة وحرب؛ فمصدر القلق أنه في ظل الديمقراطية يتقوقع الرجال والنساء في صوامع ذاتهم، فيحرثون حدائقهم الخاصة مهتمين في الأساس بالحاضر غير مبالين بالمستقبل، مولين عنايتهم بالحياة الخاصة فقط متناسين الحياة العامة. وما يقلقه في ذلك الوضع هو أن التركيز على الحياة الخاصة سيفتح مجالًا واسعًا للاستبداد؛ فالمواطن في المجتمعات الديمقراطية يُساق إلى عبودية لا يشعر بها، لكن هذا لا يجعلها أقل تقييدًا له.

في المرتبة التالية بعد حب توكفيل للحرية وقلقه على تقلصها وضياعها في النهاية — الذي يعبر عنه في أنحاء «الديمقراطية في أمريكا» — يأتي

خوفه العميق من فقد الحرية، أو بالأحرى التنازل عنها طواعية. فيصف توكفيل الاستبداد الذي ظهر حديثًا قائلًا عنه إنه «يحب أن يرى المواطنين مستمتعين، شريطة ألا يفكروا في أي شيء إلا المتعة، ويعمل بسرور من أجل سعادتهم، لكنه يريد أن يكون السبيل الوحيد إليها والحكم الوحيد عليها. وهو يتخذ الإجراءات اللازمة لضمان حمايتهم، ويتنبأ باحتياجاتهم الضرورية ويوفرها، وييسر لهم سبل الوصول إلى ملذاتهم، ويتدبر أمورهم الرئيسية، ويوجه صناعتهم، ويضع القواعد التي تحكم وصيتهم ويقسم ميراثهم. فلماذا إذن لا يريحهم تمامًا من عناء التفكير ومن كل هموم الحياة؟»

إن أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت توكفيل إلى معارضة المركزية هو أنه في ظلها هي الأخرى يضيع الاستقلال، وهذا هو أقصر الطرق إلى الظلم السياسي. كتب في نهاية الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» «إذا كان الاستبداد سيجد لنفسه مكانًا في الأمم الديمقراطية في الوقت الحاضر فإنه غالبًا ما سيحمل طابعًا مختلفًا. سيكون أكثر شمولًا وأقل حدة، وسيحط من قدر الرجال دون أن يعذبهم.» وغالبًا ما سيتخذ من المركزية مطية له، إذ إن توكفيل كلما نظر حوله في أوروبا وجد أن الإدارة «لم تصبح أكثر مركزية فحسب وإنما أيضًا أكثر ميلًا إلى البحث والتحري والتدقيق. فهي تتدخل أكثر من أي وقت مضى في الشئون الخاصة، وتسيطر بطريقتها الخاصة على نطاق أوسع من السلوكيات وعلى دقائق تلك السلوكيات، وتأخذ مكانها أكثر فأكثر على قدم المساواة مع الفرد بل فوقه، فتساعده وتنصحه وتقيّده.»

في حين ظل توكفيل متأكدًا تمامًا من أن عصر الأرستقراطية مضى بلا عودة فإنه بقي معجبًا بأنه فتح المجال بحرية أمام الطموحات الكبيرة والأحلام العظيمة والإنجازات الرائعة، التي تحققت بفضل إصرار الأرستقراطيين على تمتع طبقتهم بالحرية. أما في ظل الديمقراطية فالخطر يكمن في أن صاحب السيادة — وهو المصطلح الذي يشير في الجمهوريات الديمقراطية غالبًا وليس دائمًا إلى سيادة الشعب — «لا يكسر إرادة الرجال،

وإنما يضعفها ويوهنها ويوجهها ... فالسيادة لا تحطم الأشياء، وإنما تمنع ظهورها ... فتكبت وتقمع وتستنزف وتقيد وتفسد، وفي النهاية ... تحوّل كل أُمة إلى قطيع من الحيوانات الخائفة الكادحة، تسوقه الحكومة التي تقوم بدور الراعي».

رغب توكفيل في نظام ديمقراطي يكون قادرًا على الأقل على إفساح المجال لظهور أفضل خصائص الأرستقراطية — تفوقها المدني والفني والعسكري — إن عجز عن احتضانها. فكتب أن «الهدف ليس إعادة بناء المجتمع الأرستقراطي، وإنما انتزاع الحرية من المجتمع الديمقراطي الذي قدّر الله أن نحيا فيه.» كانت غايته هي المشاركة السياسية الفعالة أو العمل في الميدان العام. فهو يعتبر الحياة السياسية الخاملة موتًا يمشي على قدمين. «من الصعب أن نتصور كيف ينجح الرجال الذين تخلّو تمامًا عن عادة إدارة أمورهم بأنفسهم في اختيار من يقودوهم.» يرى توكفيل أن السيد المُستَعبِد دائمًا ما ينتظر مستعدًا للظهور.

أُعجب توكفيل باجتماع مدينة نيو إنجلاند لأنه أجبر الجميع على خوض الحياة السياسية النشطة. وأعجبه في الجمعيات الخيرية الأمريكية أنها منحت الناس طريقة لحماية أنفسهم من اعتداء المركزية بتوحدهم، حتى يدافعوا عن مصالحهم ويحموها؛ بواسطة فهم المصلحة الشخصية المستنيرة فهمًا صائبًا. «تُعَد الجمعيات السياسية والصناعية والتجارية وحتى العلمية والأدبية كيانًا مستنيرًا وقويًّا، لا يمكن جعله ينحني بسهولة أو يخضع لاضطهاد في الظلام، وهو ينقذ الحريات العامة بالدفاع عن حقوقه ضد مقتضيات السلطة.» وأعجب توكفيل بنظام المحلفين الأمريكي لأنه بالإضافة إلى مزاياه الأخرى ضلع تعليمي، ولأنه يمنح المواطنين الفرصة لخوض تجربة مباشرة في تطبيق القانون.

في «الديمقراطية في أمريكا» تأتي المساحة التي خصصها توكفيل للإعراب عن حبه للحرية أكبر من المساحة التي خصصها لتعريفها. فعلى سبيل المثال كتب قائلًا: «أعتقد أنني أحببت الحرية طوال حياتي، لكنني في الوقت الحاضر أميل إلى تقديسها». والحرية في رأيه نوعان: الحرية السلبية

التي تحرر الناس من قيود الحكومة، والحرية الإيجابية التي تسمح لهم باكتشاف مواهبهم وأفضل ما فيهم. «يبدو أن كل ما يهم ذوي السيادة اليوم هو الانتفاع من الأشخاص لتحقيق أعمال عظيمة، لكنني أفضل أن يولوا اهتمامًا أكبر لصنع أشخاص عظماء.» قال إيسايا برلين Isaiah Berlin في مقال عن جورج سوريل Georges Sorel: «إن أفكار كل فيلسوف يهتم بشأن الإنسان تستند في النهاية على فهمه لوضع الإنسان الحالي والوضع الذي يمكن أن يكون عليه.» كان توكفيل يرى أن إمكانات الإنسان — وإمكاناته هو نفسه — عالية، بل أعلى بكثير مما تهتم به الديمقراطية — في أفضل أحوالها — أو تستطيع أن تبرزه.

مع أن توكفيل لا يستخدم كلمة «اتفاق» كثيرًا فإنه يخشى من اتفاق الآراء في ظل الديمقراطية، ويستشهد بحالات أُستخدم فيها العنف في الولايات المتحدة لضمان اتفاق الآراء. لكنه لا يزال أكثر اهتمامًا بالقمع الثانوي الذي يؤدي إلى قمع أكبر، وخاصة عندما يدفع الضغط المعنوي الأشخاص الذين يؤمنون بآراء مخالفة إلى أن يكبتوها، خوفًا من أن يجدوا أنفسهم خارج الإطار الذي رسمه المجتمع. فالحرية في مواجهة دائمة مع أخطار التقييد والتحجيم والقمع سواء على مستوى الأمور البسيطة أو العظيمة. في هذا يقول توكفيل: «أنا كمثال أميل إلى الاعتقاد بأن ضمان الحرية في الأمور البسيطة أهم من ضمانها في الأمور العظيمة، هذا إذا كان من الممكن أن نضمن وجود الحرية على صعيد دون الآخر.»

ينهي توكفيل «الديمقراطية في أمريكا» بملاحظة تتأرجح بين التهديد والأمل، فهو يصر على أن الأمم كالرجال قادرة على رسم مصيرها. فيقول: «إن قيام الأمم اليوم بمنع المراتب فيها من أن تصبح متساوية أمر يفوق قدراتها، لكنها قادرة على أن تقرر ما إذا كانت المساواة ستقودها إلى العبودية أو الحرية، إلى التنوير أو البربرية، إلى الرخاء أو الشقاء». آمن توكفيل بأن «العناية الإلهية رسمت حول كل منا دائرة من الأقدار التي لا يستطيع أن يتخطاها، لكننا نتمتع — ككل الناس — بالقوة والحرية داخل الحدود الواسعة لتلك الدائرة.» ثم يخبرنا أنه لو كان يشعر أن الدول

الديمقراطية سائرة إلى الهلاك ما كان كتب هذا الكتاب «وكنت اقتصرت على ندب مصير إخواني من الرجال في السر ... لكنني اخترت أن أتحدث علانية عن المخاطر التي يتعرض لها الاستقلال الإنساني بسبب المساواة، لأنني أؤمن إيمانًا عميقًا بأن تلك المخاطر هي أسوأ ما يحمله المستقبل وأبعدها عن التوقع. لكنني لا أؤمن أنها لا يمكن التغلب عليها.» وهو يرى أن «المساواة ربما تكون أقل رفعة، لكنها أكثر عدلًا [من الوضع السابق]، وعدالتها هي مصدر عظمتها وجمالها.»

لا يوجد إجماع على أن «الديمقراطية في أمريكا» كتاب عظيم، لكن لا شك أنه كتاب مدهش. بعد قراءة رويبه كولار للجزء الأول وصفه في خطاب إلى صديق قائلًا: «إن العثور على كتاب تقارنه به يتطلب منك أن تعود إلى كتاب «السياسة» *Politics* لأرسطو وكتاب «روح القوانين» *Spirit of the Laws* [لمونتسكيو Montesquieu]». غير أن الجزء الثاني من كتاب توكفيل الذي نشر عام ١٨٤٠ لم يُستقبَل بنفس الحفاوة التي قُوبِل بها الجزء الأول. كتب توكفيل عن هذا إلى رويبه كولار، عازفًا على وتر عدم ثقته بنفسه المعهود، فقال: «أعلم أنه عندما يأتي الأمر إلى الجمهور العظيم — أقصد عظيم العدد — فإن الكتاب لم يقرأه ولم يعرفه إلا القليلون، وهذا الصمت يحزنني، ويجبرني على إعادة تقييم موقفي، مما يسبب لي الألم. فأنا أتساءل إذا كان هذا العمل يحمل شيئًا ذا قيمة، وأجد أنني غالبًا ما أشك في ذلك، وهذا الشك يدفعني إلى أن أتساءل إذا كنت أتمتع فعلًا بالموهبة التي كان البعض كرماء بما يكفي ليروها فيّ. فليس من المُتصوَر أن يُمضي رجل يتمتع بشيء من الموهبة أربع سنوات من حياته في تأليف كتاب لا يؤتي ثماره.»

لا بد أن ما حرك هذا الشك في توكفيل هو قلقه من تقدير مدى تعقيد موضوعه، فهذا هو المعيار الأول لنجاح أي كاتب جيد، وفي حالة «الديمقراطية في أمريكا» فإن الموضوع نفسه معقد إلى أقصى درجة. فالكتاب يستهدف القارئ المتمكن من استخدام التليسكوب والميكروسكوب؛ أي الذي يتمتع بقدرة كبيرة على رؤية الأشياء البعيدة والقريبة. إن الكتاب الذي بدأ توكفيل كتابته يمكن أن يتم إنجازه، لكن ليس على نحو مُرضٍ في النهاية،

أو على الأقل ليس على نحو مُرضٍ لكاتب يعمل وفقًا لمعايير عالية كتوكفيل. كان قد كتب في وقت سابق لرويبه كولار يقول: «هذا الموضوع صعب جدًّا إلى درجة أنه يدفعني إلى اليأس، فأنا أجد صعوبة في معالجة أفكار لم يتناولها أي شخص قبلي، وأجد صعوبة أكبر في إعادة صياغة عدد كبير من الأفكار التي مر عليها البعض مرور الكرام، أو تناولوها تناولًا طفيفًا؛ صياغةً تتسم بالشمول واحترام المنطق والابتكار. فعندما يحاول المرء أن يرسم صورة ضخمة كتلك التي أريد أن أرسمها فإنه يصادف حتمًا أجزاء ليست بجديدة، ولا يمكنني أن أحذفها دون أن أضر بالمشهد العام ككل، وفي نفس الوقت فإن تناولها يعد مهمة شاقة وغير مثمرة. باختصار آمل ألا أبلي بلاءً أسوأ من المرة السابقة.»

وجد المعلقون الكثير من النقاط التي يمكن نقدها في «الديمقراطية في أمريكا»، الذي فُحص منذ نشره بدقة وكثافة تلمودية. ومن النقد الجيد الذي وُجه إلى العمل ما أثير عن عدم اعتماد ملاحظات توكفيل تقريبًا على المواد الإحصائية، المشار إليها في بعض الأحيان بالتجريبية. علق البعض على عدم اكتراثه بأبسط الحسابات الاقتصادية أو أي من الأسس المادية للحياة الأمريكية. يرى المؤرخ الأمريكي شون ويلنتز Sean Wilentz أن توكفيل كان تحت العباءة الفكرية لأعضاء الحزب الفيدرالي، فهم أكثر من استجاب له خلال زيارته إلى أمريكا، وأعطوه نظرة عن الولايات المتحدة معارضة للتوجه الجاكسوني. يعتقد جاري ويلز Garry Wills أن توكفيل لم يتخلص أبدًا من تحيزه للأرستقراطية، ومع هذا نصّب نفسه — بغير وجه حق — عالمًا اجتماعيًّا محايدًا، وبث العداء الأرستقراطي الشديد في دراسته للديمقراطية. انتقد آخرون توكفيل لاعتماده بشدة على اجتماع مدينة نيو إنجلاند كنموذج للحياة الديمقراطية النشطة في أمريكا، ولم يتساهل معه البعض الآخر الذين أشاروا إلى أنه لم يحضر أبدًا هذا الاجتماع. على صعيد آخر انتُقد توكفيل بوجه عام لأنه كان يعالج الأفكار بمستوى عال جدًّا من العمومية.

كتب توكفيل في مسودة الكتاب أن «العوامل المادية تسهم بدرجة أقل من القوانين في الحفاظ على المؤسسات، والقوانين تسهم في ذلك بدرجة

أقل من الأعراف.» وكتب في الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» أنه يقصد بالأعراف هنا «ما قصده الأقدمون بها؛ فأنا لا أستخدمها للإشارة إلى الأعراف بالمعنى الضيق وإلى ما يمكن أن نطلق عليه عادات الأشخاص وحسب، وإنما أيضًا للإشارة إلى المفاهيم العديدة التي تتملك الناس، والآراء المختلفة السائدة بينهم، وكامل نطاق الأفكار التي تشكل العادات التي يألفها العقل ... لذا فأنا أستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى حالة الأشخاص الفكرية والأخلاقية ككل.» ومع ذلك فإن صفحات الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» تخلو نسبيًّا من ذكر بعض الأعراف المهمة، ففي تلك المرحلة كان توكفيل يسير بسرعة، ولم يكن يستطيع أن يقف طويلًا في أي مكان في كتابه.

كتب جون ستيوارت ميل — الذي كان يصغر توكفيل بعام، لكن اعتبره الجميع أعظم الفلاسفة الإنجليز في ذلك الجيل — مقالين نقديين عن جزأي «الديمقراطية في أمريكا»؛ الأول في جريدة لندن آند ويست مينستر ريفيو *London and Westminster Review* (١٨٣٥)، والثاني في جريدة إدنبرة ريفيو *The Edinburgh Review* (١٨٤٠). وصف ميل فيهما العمل بأنه «أول كتاب فلسفي عن الديمقراطية يظهر في المجتمع الحديث، وهو كتاب من غير المحتمل أن تقوض فلسفته الرئيسية أي أفكار مستقبلية مهما أضافت عليها من تعديل، وتمثل روحه والأسلوب العام اللذان يعالج بهما الموضوع بداية عهد جديد للدراسة العلمية للسياسة». يطري ميل على موضوعية توكفيل في كتابه، فيقول: «لا يوجد في الكتاب أي أثر للتحيز، أو ميل طفيف مسبق نحو الديمقراطية أو الأرستقراطية.»

غير أن ميل يقذف بعدد من القنابل الموجهة على الصرح الفكري العظيم الذي بناه توكفيل. فأشار في بداية النقد الذي كتبه عن الجزء الأول إلى أن توكفيل لم يكن دقيقًا عندما قال إن «مبدأ الديمقراطية يُطبق إلى أقصى مدى في أمريكا»، في حين يعج البلد بالكثير من العبيد، ويستمر في حرمان المرأة من أي مشاركة فعالة في الحياة العامة، فكان ميل من رواد النداء بحقوق المرأة طوال حياته.

يجد الجميع في توكفيل — حتى المعجبين به — شيئًا لا يستطيعون أن يتحملونه. والنقطة التي وقفت عندها هي رأيه المؤيد للمحامين بوصفهم الأرستقراطيين الطبيعيين في النظام الأمريكي. فالكثير من الآباء المؤسسين لأمريكا لم يكونوا محامين، ومع أن اثنين من أعظم الأمريكيين تعلموا المحاماة (وهما أبراهام لينكون وأوليفر ويندل هولمز الابن Oliver Wendell Holme Jr.) فإن طبقة المحامين ظلت أبعد ما تكون عن احتلال مكانة الطبقة العليا في أمريكا. لذا من الجيد أن نجد ميل — بعكس توكفيل (الذي كان محاميًا) — يكتب أنه «إذا لم تكن عقول المحامين في إنجلترا وأمريكا قد أفسدها كلها تقريبًا نظام التقنيات البربري — وهو عار على العقل البشري — الذي قضوا شبابهم في إلصاقه بذاكرتهم، وأمضوا مرحلة رجولتهم في تطبيقه، فنحن نتفق مع مؤلفنا في أنهم يمثلون الطبقة التي ستفوز رفعة ثقافتها الناتجة عن رفعة دراستها بالتقدير العام بسهولة، وستصبح القائد الطبيعي لشعب لا توجد فيه طبقة مترفة.» يكمل ميل قائلًا إن هذا ينطبق أيضًا على الطبقة المثقفة، وهو سعيد بأن إنجلترا لا يزال لديها كل من طبقة المترفين، وطبقة المثقفين، اللتين تمدانها بالقادة، وبهذا فهي ليست في حاجة إلى الاعتماد على المحامين.

يهاجم ميل مفهوم استبداد الأغلبية الذي طرحه توكفيل، فيما عدا عندما يتعلق الأمر باستبداد الرأي، ثم ينقض بعد ذلك فكرة أن الديمقراطية لا يمكن أن توجد في غياب طبقة الأرستقراطيين وطبقة الفلاحين العريضة، اللتين كانتا قائمتين في إنجلترا حينئذ. في رأي ميل لم تكن المساواة في المراتب هي ما يؤدي إلى الثورة في ذلك الوقت، وإنما أدى إلى ذلك صعود الطبقة الوسطى أو الطبقة التجارية، التي كانت في سبيلها إلى أن تصبح طبقة الأغلبية. ويعتقد ميل أن هذا هو أكبر التباس وقع فيه توكفيل قائلًا: «إذن فالسيد توكفيل خلط — على الأقل ظاهريًّا — آثار الديمقراطية بآثار المدنية» بأن «جعل القارئ يفترض أنه يُلحِق بالمساواة في المراتب العديد من الآثار الناشئة بصورة طبيعية من زيادة الرفاهية على المستوى القومي».

كتب ميل عن مجمل فلسفة توكفيل أنه «لم يُكتب عن الديمقراطية في المجمل حتى الآن شيء يشبه (تلك الفلسفة)، ويندر أن تجد من يعارض هذه الحقيقة، وإن لم يقرأ سوى المختصر السريع الذي كتبناه عنها. وفي الوقت نفسه يجب علينا أن نحذر من أن نلصق بتلك النتائج أو بأي نتائج أخرى تنشأ عن تلك المعلومات خاصية اليقين العلمي لأنها ببساطة لا تنطبق عليها، فالديمقراطية ظاهرة أحدث وأعظم من أن يستوعب نتائجها أي من الذين يحيون الآن.»

مع كل النقد الذي يمكن أن يوجه إلى «الديمقراطية في أمريكا» فإنه يظل آخر عمل عظيم تنتجه الحضارة الغربية من حيث روعة التحليل التاريخي والفلسفة السياسية. قرأت هذا الكتاب ثلاث مرات: أولها وأنا شاب، لأنني عرفت أنه ضمن القائمة القصيرة من الكتب التي يتعين على كل الأمريكيين الذين يودون أن يعتبروا أنفسهم عارفين ببلادهم أن يقرءوها، وثانيها وأنا أكتب مقدمة لطبعة بانتام كلاسيكس Bantam Classics للكتاب، والآن أقرؤه للمرة الثالثة لرسم صورة فكرية لمؤلفه. غير أنني بعد قراءة دقيقة له ثلاث مرات لم أشعر بعدُ أنني ألممت به. وهذه إحدى سمات الأعمال العظيمة، فنحن لا نلم برواية «البحث عن الزمن الضائع» *Remembrance of Things Past* لبروست Proust أو «الحرب والسلام» *War and Peace* لتولستوي Tolstoy. وإنما نظل دائمًا نستقي منهما متعة فكرية وغذاءً يتغيران كلما قرأناهما. ومن السمات الأخرى للأعمال العظيمة أنه مهما قمنا بإعادة قراءتها فإننا دائمًا ما نجد فيها أشياء جديدة، أو على الأقل تفاجئنا فيها من جديد أشياء يبدو أننا مررنا عليها بسرعة شديدة في القراءات الأولى. من أمثلة ذلك أنني لم أنجذب سوى في القراءة الثالثة للـ«ديمقراطية في أمريكا» إلى الجملتين القصيرتين التاليتين الواردتين في الجزء الثاني في فصل قصير بعنوان «لماذا يُنظر إلى كل المهن الشريفة في الولايات المتحدة على أنها جديرة بالاحترام»، والجملتان هما: «إن سبب مجيء الكثير من الأمريكيين الأثرياء إلى أوروبا هو رغبتهم في الهروب من الالتزام بالعمل [الذي يؤديه كل من يحيا في أمريكا]. فهم يجدون في أوروبا أنقاض

المجتمعات الأرستقراطية التي لا تزال تنظر باحترام إلى البطالة». تشير هاتان الجملتان إلى اشتغال هنري جيمس بالكتابة الروائية، فالأمريكيون الذين وصفهم توكفيل باختصار شديد هنا هم من قدّم لجيمس موضوعه العالمي العظيم. من المؤكد أن جيمس وجد الموضوع بنفسه — إذ لا يوجد دليل على أنه قرأ كتاب توكفيل على الإطلاق — لكن توكفيل اكتشفه أولًا.

تناول الرائع سيمون دريشر الاختلافات بين الجزء الأول (١٨٣٥) والجزء الثاني (١٨٤٠) من «الديمقراطية في أمريكا» في مقال هام. وكما هو معروف لم يلق الجزء الثاني النجاح الباهر الذي لقيه الجزء الأول. أفصح توكفيل في خطاب كتبه إلى جون ستيوارت ميل عن اعتقاده بأن «الأثر الضعيف نسبيًّا الذي خلفه» الجزء الثاني كان بسبب محاولته أن «يرسم الملامح العامة لمجتمعات ديمقراطية لا يوجد لها نموذج كامل بعد». فمعالم الجزء الأول واضحة أكثر من الجزء الثاني، إذ إنه يرتكز على دراسة مؤسسات سياسية محددة في الولايات المتحدة. أما الجزء الثاني فهو يقوم على الأحكام العامة وعلى التخمين أكثر من الجزء الأول، ولذا فهو أكثر إثارة للجدل وأكثر غموضًا. ويتساءل الأستاذ دريشر «ألنا الحق في أن نسأل: هل تغير فهم المؤلف للدولة وللمجتمع وللفرد وللتوجهات التاريخية، تغيرًا كبيرًا في المدة بين طبع الجزأين بحيث أصبحا عملين مختلفين؟»

وكما هو ملاحظ فإن التركيز على الولايات المتحدة يقل كثيرًا في الجزء الثاني، إذ تظهر هي وأعرافها في المقام الأول لتوضيح نقاط أكبر. ويستخدم توكفيل عبارات جديدة مثل «عصور الديمقراطية» في مقابل «عصور الأرستقراطية»، ويستخدم مصطلح «الفردية» غالبًا على نحو ازدرائي ليعني الأنانية، وليتضمن معنى خصخصة الحياة.

في الجزء الأول يحلل توكفيل آليات عمل المؤسسات السياسية ويصف تفاصيل الظروف السياسية، فيقول: «على الولايات المتحدة أن تشكر السماء لأنها تضعها حتى الآن في موقف يجعلها لا تحتاج إلى جيوش دائمة وقوة عامة وسياسة خارجية ناجحة وثابتة. وإذا ما نشأت الحاجة إلى إحدى هذه الضرورات الثلاث فإننا نستطيع أن نتنبأ — دون الحاجة إلى أن نكون

عرافين — أنهم سيفقدون حريتهم أو سيتسببون في مركزة القوة على نحو أكبر.» أما الجزء الثاني فيميل أكثر إلى الإبحار في دنيا المشاعر والأفكار والقيم غير المحددة.

في الجزء الثاني تتقدم إنجلترا إلى الأمام أكثر بهدف استخدامها في عقد المقارنات، ربما لأن توكفيل زار إنجلترا مرتين في عامي ١٨٣٣ و١٨٣٥، غير أن اللهجة المتفائلة التي سادت الجزء الأول بدأت في الاختفاء على نحو بيّن في الجزء الثاني. فما أطلق عليه دريشر ابن الديمقراطية «الجامح» عام ١٨٣٥ صار ابن الديمقراطية «الجبان» عام ١٨٤٠؛ فهو «ضعيف وأناني وخامل».

كتب توكفيل الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» في وقت كان الناس فيه يميلون أكثر وأكثر إلى الانغماس في حياتهم الخاصة. فوجد بين الناخبين في مقاطعته انغماسًا في الذات وعدم اكتراث بالحياة العامة، أدى إلى قتل المشاعر التي يكونها للمجتمع المدني. فما أطلق عليه تولستوي «الأنانية الأسرية» — التي تجسدت في جملة: «فليذهب العالم إلى الجحيم ما دام كل شيء على ما يرام مع صغيري أندريه André» — بدا أكثر انتشارًا في عالم توكفيل. كانت موجة التصنيع تجتاح أوروبا، وهو ما رأى فيه توكفيل خطرًا أعظم من أي خطر مضى، وهو خطر ظهور أرستقراطية اقتصادية؛ أو حكومة الأثرياء. فعلى عكس الروح التجارية السائدة في أمريكا، التي تزدهر في ظل الحرية، كان التنظيم الصناعي يعني تمركز السلطة في يد عدد قليل من الأشخاص. فمثلًا في عهد لوي فيليب كان عدد الجمعيات السياسية محدودًا في فرنسا، وفُرضت قيود جديدة على الصحافة. وفي الوقت نفسه كانت المركزية تتفشى في كل من فرنسا وإنجلترا، وكان الارتباط الوثيق بينها وبين الاستبداد يتضح أكثر وأكثر لتوكفيل. ومع أنه لم يذكر كلمة «بيروقراطية» أبدًا، فإنها هي العدو. (وهو في هذا الصدد يسبق عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Weber). لا بد أن فساد الحياة السياسية في عهد لوي فيليب الذي شهده توكفيل بنفسه عندما كان عضوًا في مجلس النواب وسم آراءه بالكآبة.

كتب سيمور دريشر أنه «إذا [كانت السنوات الخمس التي مرت بين نشر الجزء الأول والثاني قد] تسببت في أن يتبنى توكفيل رؤية جديدة عن رجل الديمقراطية فإن ذلك يرجع في الأساس إلى أن وعي المؤلف تفاعل مع المناخ المتغير في مجتمعه. وبهذا فإن [الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا»] يعتمد على التجريب كالجزء الأول.»

إذا كانت آراء توكفيل قد أصبحت أكثر قتامة فإن الأفق الفكري للجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» صار أكثر اتساعًا، والمشاعر الأخلاقية أكثر سيادة وعمقًا. وإذا كان الجزء الأول عملًا هامًّا في العلوم السياسية وعلم الاجتماع فإن الجزء الثاني يرتقي فوق ذلك ليصبح شيئًا أكبر، ليصبح عملًا بارزًا في الفلسفة السياسية.

الفصل السابع

كان توكفيل قد اتخذ قرارًا بالتوقف عن الكتابة قبل ظهور المقالات التي تناولت الجزء الثاني بالنقد، وربما يرجع ذلك إلى الإرهاق الذي شعر به بعد كتابة هذا العمل المعقد. فكتب في ٢٠ نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٩٣٨ إلى روييه كولار يقول: «أعتقد أنني لا أخدع نفسي ... عندما أقول إنه لا يوجد شيء معاكس لرغباتي أكثر من اشتغالي بالتأليف. فهو يتعارض تمامًا مع منهجي في الحكم على الأشياء الهامة في الحياة. لهذا فجل ما أتمناه بعد إنهاء هذا الكتاب — ومهما يكن مصيره — هو أن أعمل لنفسي، وألا أكتب للعامة بعد ذلك، إلا إذا حدث شيء هام جدًّا وخارج عن إرادتنا يدعوني إلى ذلك، وهو أمر من غير المحتمل أن يحدث.»

غير أنه بعد اتخاذ هذا القرار سيكتب توكفيل كتابين: أحدهما «ذكريات»، وهو شاهد عيان على ثورة ١٨٤٨ خطط لأن يُنشر بعد وفاته، والثاني «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» *The old Regime and the Revolution* الذي لم ينهه. يعد هذان الكتابان عملين كبيرين — أفضّل عن نفسي «ذكريات» من بين كل أعماله، وذلك من وجهة نظر أدبية بحتة — غير أن سمعة توكفيل كمفكر سياسي كبير ترتكز اليوم على كتاب «الديمقراطية في أمريكا» الذي مر ١٧٥ عامًا على كتابته. يرجع جزء من هذا إلى شهرة توكفيل بقدرته على التنبؤ واستشراف المستقبل.

ادعى توكفيل أنه لم يسع إلى أن يشتهر بالقدرة على التنبؤ. وكتب في مقدمة «الديمقراطية في أمريكا» أنه «تمنى أن يدرس المستقبل بأكمله»؛ لكن

ساوره في نفس الوقت شك فيمن يعتقدون أنهم يعرفون المستقبل السياسي البعيد. فقال لهاريت جروت Harriet Grote — زوجة جورج جروت George Grote الباحث في الكلاسيكيات — «علمني التاريخ أنه لا يمكن لأي من الرجال الذين يشهدون سقوط المؤسسات الدينية أو الاجتماعية التي عرفها العالم أن يتنبأ بما سيحدث بعدها أو يتخيله. وهذا لم يمنع المسيحية من أن تعقب الوثنية، ولم يمنع الخدمة في المنازل من أن تعقب العبودية، والبربر من أن يعقبوا الحضارة الرومانية، والنظام الإقطاعي الطبقي من أن يعقب البربرية. فكل تلك التغييرات حدثت دون أن يتنبأ بها أحد، وخاصة من الكتّاب ... الذين عاشوا في الوقت الذي سبق حدوث ذلك مباشرة وسبق وقوع التحول الأساسي». كتب في موضع آخر يقول: «أعتقد أنه من غير الحكمة تمامًا أن يحاول الإنسان الذي يفشل يوميًّا في فهم ما هو حقيقي وموجود، والذي دائمًا ما تدهشه الجوانب غير المتوقعة في الأشياء التي يعرفها جيدًا؛ أن يضع حدود ما هو ممكن ويحكم على المستقبل.»

مع ذلك لا شك في أن توكفيل أراد أن يؤثر على المستقبل ويحركه — في حالة فرنسا — في اتجاه التكيف الواعي مع الديمقراطية الجديدة. كتب جورج ويلسون بيرسون أن توكفيل «لم يجد متعة في التنبؤ في حد ذاته، إذ لم يجذبه القيام بدور إلهة التنبؤ كاسندرا Cassandra كثيرًا»، وإنما كان يتنبأ عندما يكون التنبؤ ضروريًّا، وذلك بواسطة البوح بحسه الداخلي القوي للقارئ، على أمل أن يفلح ذلك في تغيير خطط الإنسان الخاطئة وتصرفاته الطائشة وهو يتحسس خطاه نحو المستقبل. فكما يقول بيرسون: إن أحد أسباب رغبة توكفيل في أن يتنبأ هو حرصه على أن يحذّر مما سيقع، وأن يقدم ذلك التحذير في الوقت المناسب.

أكد جيمس برايس — الذي تبنى القيام بالمهمة التوكفيلية المتعلقة بوصف المؤسسات السياسية الأمريكية — في مقاله «هاميلتون وتوكفيل» Hamilton and Tocqueville على أن «أوضح درس يعلمه لنا التاريخ هو أن التنبؤ في مجال العلوم السياسية والدين والأخلاق وعلم الاجتماع والحكومة والسياسة يعد حماقة ... إذ يمكن للمواطنين الحريصين على

تفسير الظواهر الخفية التي تظهر في عصرهم أن يساعدونا، بتوضيح التوجهات الحالية التي يمكن أن تصبح مكونًا أساسيًّا من مكونات المجتمع في المستقبل القريب. أما ما يمكن أن يحدث في المستقبل البعيد — أي بعد رحيل الجيل الذي يسيطر على السلطة بالفعل — فلن يغامر أي فيلسوف حقيقي ويتنبأ به.»

غامر توكفيل وتنبأ — كثيرًا وبجرأة — وبدرجة مدهشة من الدقة. قال إن الظروف الجديدة التي تسودها المساواة تستدعى تأسيس علم سياسي جديد. (تناولت دعابة سخيفة قديمة كلمة العلوم في «العلوم السياسية» على نحو يجعلها تُفهم ككلمة العلوم في العلوم المسيحية، أي بمعنى أنها لا تمت بصلة إلى العلم.) إن أحد معايير اختبار أي علم هو قدرته على التنبؤ، فسانتايانا يقول إن: «العلاقة السببية لا تتبع قانونًا بعينه، وإنما هي اشتقاق بديهي لحقيقة من حقيقة أخرى في وقائع محددة.» مع أن توكفيل غالبًا ما أُتهم بأن تفكيره مبني على الافتراض المسبق، فإنه كان بارعًا على نحو مميز في ربط الحقائق بعضها ببعض، والوصول إلى استنتاجات مقنعة من ذلك الربط، ثم أعقب ذلك الوصول إلى تنبؤات بناءً على الاستنتاجات بصورة طبيعية.

لكن لماذا أزعج توكفيل نفسه بتنبؤ أشياء عن الولايات المتحدة والديمقراطية؟ ليعزز جاذبية كتابه؟ أم ليزيد من سلطانه؟ أم ليؤسس قاعدة علمية لفكره؟ أم لأن هذا من طبيعته؟ وأنا أفضل السبب الأخير. فعقل توكفيل كان يميل إلى التعميم، وهو تعميم مبني على أسس جيدة، وإذا كُتب له أن يصمد فإنه سيكون صالحًا للماضي وللحاضر وللمستقبل، ولكل الأزمان. كتب الشاعر السيريالي الأمريكي دين يانج Dean Young أنه «على كل شخص أن يدرس التاريخ، لأن الحاضر معقد جدًّا، والمستقبل لا أحد يعرف شيئًا عنه.» لو أن توكفيل المصاب بداء التأمل إلى حد خطير آمن بهذا، لتعين عليه أن يقطع شرايين يده.

إن الأحكام العامة التي يطلقها توكفيل تتمتع بقدرة على التأثير بالإيحاء، وتأخذ القارئ إلى المستقبل وإن لم يكن توكفيل يتنبأ. فعلى سبيل المثال كتب

توكفيل في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» أن «الديمقراطية توهن الروابط الاجتماعية وتوطد العلاقات الطبيعية، فهي تلم شمل الأقارب وفي نفس الوقت تزيد المسافات بين المواطنين.» وأول سؤال يتبادر إلى الذهن عن أي تعميم، هو: هل هذا التعميم صحيح؟ هل كان صحيحًا وقت إطلاقه؟ ويتبع ذلك السؤال: هل من الممكن أن يصبح صحيحًا في المستقبل؟ في حالة التعميم السابق بالتحديد، فإن إجابة الأسئلة الثلاث هي نعم؛ بل إن هذا التعميم في الواقع أكثر صحة الآن منه في وقت كتابته. فمن ينظر في أنحاء الولايات المتحدة اليوم يكتشف أن الأمريكيين يدورون في فلك أسرهم أكثر وأكثر، وأن تربية الأطفال تكتسب أهمية أكبر وتحتل مساحة أكبر من حياة الشباب. أصبحت الأسرة وحدة اجتماعية أكثر انغلاقًا، فهي مترابطة جدًّا لكنها ترفض انضمام الآخرين إليها، وهي بالتأكيد أكثر بعدًا عن الحياة العامة.

كتب توكفيل أن «الرغبة في الرفاهية المادية هي رغبة الطبقة المتوسطة في الأساس». ووضح أن الأرستقراطيين ينعمون براحة مادية كالتي تنعم بها الطبقة المتوسطة، لكن لأن الأرستقراطيين ولدوا في كنف تلك الراحة فإن اكتسابها لا يصبح شغلهم الشاغل، كما هو الحال في الطبقة المتوسطة. «لهذا لا تعد الرفاهية المادية بالنسبة إليهم [الأرستقراطيين] هدفًا للحياة، وإنما طريقة حياة.» لن يفوت أي شخص — وإن لم يكن يتمتع بقدرة كبيرة على فهم المجتمع — ملاحظة أن أهمية الدور الذي تقوم به كل أنواع البضائع الاستهلاكية في المجتمع الأمريكي زادت مع زيادة تمتع الطبقة الوسطى في أمريكا بالغنى، بحيث إن عبارة «المجتمع الاستهلاكي» المستخدمة في وصف أمريكا لا تزال صادقة إلى حد بعيد، مع أنها أصبحت مبتذلة.

كتب توكفيل أنه «في الولايات المتحدة لا يكف الحماس الديني عن تأجيج شعلته بنار الوطنية»، وفور قراءة هذه العبارة نتذكر المشاركة الفعالة للمسيحيين البروتستانت في الحياة السياسية في يومنا هذا. وقال: «فبينما تقود الميول الطبيعية للديمقراطية الناس إلى إبعاد الرجال المتميزين عن السلطة فإن ميلًا لا يقل قوة عن سابقه يؤدي بالرجال المتميزين إلى اعتزال المهن السياسية، التي يصعب جدًّا أن يظل المرء فيها صادقًا تمامًا

مع نفسه أو أن يترقى فيها دون أن يذل نفسه.» كانت تلك الجملة صادقة في عصره، وقد تكون أكثر صدقًا الآن كما سيلاحظ أي شخص يتأمل القائمة القصيرة للرجال المتميزين فعلًا في الحياة السياسية الأمريكية خلال المائة عام الماضية تقريبًا. وهذه الأمثلة تتكرر كثيرًا في «الديمقراطية في أمريكا»، فيجد المرء نفسه يقول: كانت صحيحة في عصر توكفيل وهي صحيحة الآن، وعلى الأرجح ستظل صحيحة عقودًا من الزمن.

كتب توكفيل في أحد الفصول التي تناولت القوات المسلحة والحرب والسلام في البلاد الديمقراطية يقول: «هناك أمران سيظل قيام الشعوب الديمقراطية بهما صعبًا؛ ألا وهما: بدء حرب، وإنهاؤها.» وعلل ذلك بأن البلاد الديمقراطية لا تستطيع الحفاظ على المثالية طويلًا، لأن من يعيشون في ظلها يضعون الرخاء والرفاهية الاقتصادية فوق أي اعتبار آخر. والدول الديمقراطية لا يمكنها أن تكسب سوى الحروب الدفاعية، وتعد الولايات المتحدة محظوظة لأنها لم تضطر حتى الآن إلى خوض مثل تلك الحرب. أما فيما يتعلق بالحروب الهجومية والاستراتيجية فانظر كم تأخرت الولايات المتحدة في خوض الحرب العالمية الأولى، وكم من الجهد احتاجه فرانكلين ديلانو روزفلت Franklin Delano Roosevelt ليقنع الشعب الأمريكي بخوض الحرب العالمية الثانية، ولم يفلح في ذلك إلا عندما هاجم اليابانيون ميناء بيرل هاربر Pearl Harbor. كما أن التجنيد الإجباري — الذي دفع بنطاق واسع من الفئات الأمريكية المختلفة إلى الحرب — هو في الأساس ما شجع الأمريكيين الذين ظلوا في بلدهم بعيدين عن الحرب إلى القيام بالتضحيات اللازمة للاستمرار فيها، ودفعهم إلى ذلك وجود معظم أقاربهم وأصدقائهم بين براثنها. كان هاري إس ترومان Harry S. Truman في وضع حرج وهو يدافع عن قراره بإرسال قوات إلى كوريا. وفي فيتنام لم تبدأ الولايات المتحدة الحرب بقدر ما أُقحمت فيها، ويعد إنهاء هذه الحرب من أكثر أحداث القرن العشرين كآبة في التاريخ الأمريكي. وتعد الحرب الأمريكية الأخيرة في العراق مثالًا آخر على تداعيات خوض دولة ديمقراطية لحرب هجومية. ويصيب توكفيل الهدف مرة أخرى.

في مجال النبوءات الأكثر عناية بالتفاصيل كان توكفيل شجاعًا بالرغم من قلقه الشديد من التنبؤ بالمستقبل، فكتب في الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» يقول: «أعتقد أن الجنس الهندي في أمريكا الشمالية سائر إلى الهلاك.» من يمكنه أن يتهم توكفيل بأنه كان مخطئًا برغم الملايين التي يربحها الأمريكيون من حجوزات الهنود في نوادي القمار؟ كان توكفيل متعاطفًا مع سكان أمريكا من الهنود، ولأن تعاطفه كان خياليًّا فإنه كان الأفضل، إذ يشبه التعاطف الذي يشعر به الروائيون العظام تجاه شخصيات رواياتهم. وفي حالة الهنود كان توكفيل يعرف الشيء المفقود، فالصورة التي يرسمها للهنود الأمريكيين في «الديمقراطية في أمريكا» وفي غيره من كتاباته هي صورة العظمة الطبيعية وهي تُهزَم وتُهان على نحو باعث على الأسى.

«إذا لم يكن هناك بد من التنبؤ بالمستقبل فإنني أتنبأ بأن القضاء على العبودية في الجنوب سيزيد من عداء سكان الجنوب البيض تجاه السود.» وهذا التنبؤ صحيح هو الآخر إلى حد بعيد. أثبت صحته خلال عصر إعادة الإعمار، وأثبت صحته خلال السنوات التي شهدت حركات الدمج العنصري والحركات المنادية بالحقوق المدنية، ويبدو أنه لا يقل صحة اليوم.

أدرك توكفيل أن قضايا العرق تضع علامة استفهام كبيرة على مصير الولايات المتحدة. ناقش في «الديمقراطية في أمريكا» بحجج مقنعة مبلغ الضرر الذي تلحقه العبودية ليس بالعبيد فقط وإنما بأسيادهم أيضًا، وذلك على أصعدة مختلفة كالاقتصاد والعادات وبالطبع الأخلاق. تنبأ بالقضاء على العبودية، وفعل ذلك لأنه أدرك أن استمرارها لم يكن معقولًا. لكنه فشل في التنبؤ بالحرب الأهلية، بل ربما يقال إنه أخطأ حينما كتب «من الحقائق العامة التي يقبلها العقل أنه في عصور المساواة تصبح الحروب الأهلية أكثر ندرة وأقصر وقتًا.»

لم يتنبأ توكفيل باحتمال نشوب حرب في الولايات المتحدة في يوم ما بين السود والبيض، وإنما أشار إلى أن هذا محتمل. وكان بالطبع مخطئًا في ذلك، مع أن اندلاع أعمال الشغب العرقي في ستينيات القرن العشرين في واتس Watts بنيوارك Newark في الجانب الغربي من شيكاغو وغيرها

جعل إمكانية تحقق هذه النبوءة كبيرة على نحو مخيف. اقترب توكفيل من الهدف، لكن — حمدًا لله — لن ينال أية جائزة.

تنبأ توكفيل بأن شخصية الشمال وروحه وتنظيمه الصناعي ستسيطر على الجنوب يومًا ما. فالجزء الجنوبي من الولايات المتحدة «سينتهي به المطاف ... تحت سيطرة الشمال ... ولذا يبدو أن الوضع في الشمال من المقدر أن يصبح المعيار العام الذي نضبط عليه كل شيء [في الجنوب]»، ومرة أخرى يصيب توكفيل في تنبئه. انظر كيف أن أتلانتا Atlanta في ولاية جورجيا Georgia التي كانت أكثر المدن تشبعًا بروح الجنوب أصبحت اليوم تميل إلى روح الشمال في تنظيمها، وأن تلك الروح أكثر وضوحًا في طابعها وجوها العام، بعد أن أصبحت الآن المركز الرئيسي لمقار الشركات.

جدير بالذكر أن توكفيل لم يكن يحمل مثقال ذرة من العنصرية بين جنباته، وإن كان مغرورًا شيئًا ما. فكتب في «الديمقراطية في أمريكا» يقول: «ما يحدث في الجنوب يطعنني في قلبي، فهو أبشع نتيجة طبيعية للعبودية.» وكان يقصد بذلك كلًّا من سوء معاملة السود والانحطاط الشديد في أخلاق سكان الجنوب البيض. تابع قائلًا إنه يشعر بالغضب والكراهية «تجاه من أعادوا العبودية إلى العالم بعد أكثر من ألف عام من المساواة [التي جاءت بها العقيدة المسيحية]».

تنبأ توكفيل في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا» بالتحولات التي من المحتمل أن تطرأ على مجال الأعمال في البلاد الديمقراطية، إذ قال: «أعتقد أن الأزمات الصناعية المتكررة مرض وبائي في الأمم الديمقراطية اليوم. ويمكن أن نقلل من خطورة هذا المرض، لكن لا يمكن أن نعالجه، لأنه ليس ناتجًا عن حادثة عرضية، وإنما عن عادات الناس في تلك الدول.» وأصاب في تنبؤه بأن الضرائب ستزيد في الولايات المتحدة حتى تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه الضرائب في ظل الحكومات الملكية والأرستقراطية الأوروبية. لكنه أخطأ — قليلًا — عندما أشار إلى أن الأمريكيين لن يؤيدوا نظام التجنيد الإجباري، حين قال: «التجنيد الإجباري مخالف لنمط تفكير شعب الولايات المتحدة وغريب على عاداتهم، إلى درجة تجعلني أشك في أن

أحدًا سيتجرأ ويصدر قانونًا بذلك.» صدر قانون بالتجنيد الإجباري خلال الحرب العالمية الثانية واستمر مدة، لكن من غير المحتمل أن يُعاد سن قانون بذلك قريبًا، ومن المؤكد أن سن مثل هذا القانون لن يحدث بسهولة.

توقع توكفيل أن تطلب الطبقات العاملة المزيد من المساواة؛ بل وتطالب بها. وتوقع ذلك من الأفريقيين الأمريكيين أيضًا. (وقال في موضع آخر إن الأيرلنديين سيحاربون الإنجليز طلبًا لحريتهم.) لكن فاته التنبؤ بأن النساء أيضًا سيطالبن بحق الاقتراع وبكل مظاهر المساواة التي من الطبيعي أن تتبع حصولهن على هذا الحق.

بصفته خبيرًا في كل ما يتعلق بالثورات تنبأ توكفيل بازدياد احتمال اندلاع الثورات تحديدًا في الوقت الذي ترخي فيه الحكومات الاستبدادية قبضتها على الناس وتتجه إلى التحرر في سياساتها، مما يعزز توقع اندلاع الثورة. هذا ما حدث بالضبط في روسيا قبل الثورة البلشفية؛ فعندما أصبح القيصر أكثر تحررًا اشتعل لهيب الثورة. وكما ذكرنا آنفا تنبأ توكفيل بأن الولايات المتحدة وروسيا ستتنافسان على السيطرة على العالم في يوم من الأيام. ولا يسعني هنا إلا أن أضيف أن أحدًا من العدد الكبير من الباحثين الأمريكيين والأوروبيين المتخصصين في دراسة الاتحاد السوفيتي لم يتوقع أن الشيوعية ستنتهي في تلك الدولة.

في مجال الثقافة يقول توكفيل إنه في الولايات المتحدة «معظم من يشاهدون المسرحيات يذهبون إلى المسرح بحثًا عن المشاعر الدافقة التي تغمر القلب لا عن متعة الفكر.» كانت هذه العبارة تنطبق على الأمريكيين في عصر توكفيل مثلما تنطبق عليهم في يومنا هذا، وهي شرح رائع للملحوظة التي قالها ويليام دين هاويلز William Dean Howells عن أن ما يريده الأمريكيون هو أعمال «مأسوية لها نهاية سعيدة». تنبأ توكفيل أيضًا بزيادة تركيز الشعوب الديمقراطية على عنصر السيرة الذاتية في الشعر، وهو قول ينم عن بصيرة نافذة جدًّا، حتى إنه يصلح كمقدمة للشعر الأمريكي منذ عهد والت ويتمان Walt Whitman وحتى روبرت لويل Robert Lowell، إذ إن هذا الشعر يتمركز حول فكرة: «أنا أحتفي بنفسي، وأتغنى بنفسي».

تنبأ توكفيل بأن الديانات ستفقد ملامحها في ظل الديمقراطية، فقال: «الدين الذي يهتم بالتفاصيل أكثر مما يجب ولا يتسم بشيء من المرونة ويهتم كثيرًا بالطقوس التافهة في الوقت الذي يقطع الناس فيه خطوات أوسع نحو المساواة، سرعان ما سينحصر في مجموعة من المتعصبين المتطرفين، المحاطين بحشد من أشخاص يملؤهم الشك.» إذن فلننحي الطقس اللاتيني جانبًا ونُحضِر القيثارة.

الأهم من كل هذا أن توكفيل كان على حق عندما رأى أن قضية التنافر الدائم والحتمي بين المساواة والحرية هي أهم القضايا التي ستواجه المجتمعات الديمقراطية الحديثة، وستظل قائمة إلى الأبد. فأي إجراءات تُتخَذ لضمان المساواة ستأتي حتمًا على حساب الحرية ولو إلى حد بسيط. وبالمثل فإن إطلاق العنان للحرية سيضُر بالمساواة، فلننظر في أيامنا هذه إلى الأسواق الحرة التي تنحاز — ولو لبعض الوقت — إلى الأقوياء على حساب الضعفاء، والأغنياء على حساب الفقراء وبالطبع المتعلمين على حساب الجهلة. يتمنى المرء أن يرى طريقًا وسطًا بين الحرية والمساواة، وفي بعض الأحيان يكون هذا الطريق موجودًا بالفعل، غير أنه في أحيان أكثر يترك الحرية والمساواة واقعتين في تعارض لا مخرج منه؛ ولأن طريقيهما مختلفان — بحيث إذا سلكت المساواة طريقًا تسلك الحرية طريقًا آخر — لا يمكن لمجتمع أن يتبناهما في آن واحد. كان توكفيل أول من رأى أن هذه هي القضية الرئيسية التي أظهرتها الديمقراطية الجديدة على السطح، وما رآه يظل صحيحًا في أيامنا هذه، وعلى الأرجح سيظل صحيحًا في الأيام القادمة.

مع أن الكثير من نبوءات توكفيل تبدو رائعة الآن فإن أخطاءه — وهي ليست بهيّنة — تستحق أن نلقي الضوء عليها، خشية أن تحيط به هالة المنجم الشهير نوسترادامو‌س Nostradamus. كانت أولى نبوءات توكفيل الخاطئة هي اعتقاده أن الحكومة الفدرالية من المحتمل أن تسقط مع التوسع الطبيعي في أراضي الولايات المتحدة وزيادة تعدادها. وأكد أن هذا التلاشي في سبيله إلى الحدوث، قائلًا: «إن الدراسة المتمعنة لتاريخ الولايات المتحدة في الخمسة والأربعين عامًا الماضية تقنعنا بسهولة بأن السلطة

الفدرالية تتضاءل»، حسبما كتب في «الديمقراطية في أمريكا». لكن عكس ذلك حدث: فكلما زاد السكان وانتشروا زادت الحاجة إلى الحكومة الفدرالية لبناء الطرق وتنظيم التجارة وتطبيق القوانين في الجرائم التي تقع بين الولايات وغير ذلك كثير. وقع توكفيل في هذا الخطأ بسبب قراءته لـ«الوثيقة الفدرالية»، وبسبب إيمانه بأن الأمريكيين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر كانوا يدينون بالولاء لولاياتهم والمناطق التي يعيشون فيها أكثر من ولائهم للاتحاد. ومع أن هذا كان واقع بدايات القرن التاسع عشر، فإنه لم يعد كذلك بحلول نهاية ذلك القرن.

إن فرض الأغلبية إرادتها على الأقلية أحد العوامل الأخرى التي أثارت انزعاج توكفيل الدائم من الديمقراطية. كان في بادئ الأمر يظن أن الأمر سيحدث بمساعدة وسائل سياسية بحتة — أي الهيئات التشريعية — لكن عندما كتب الجزء الثاني أصبح يعتقد أن الاحتمال الأكبر هو أن يتحقق ذلك بقيام الرأي العام بسحق وجهات النظر المخالفة، أو التي تتبنى نفس الرأي من منظور مغاير للآراء التي يؤمن بها العامة. ولا يستخدم توكفيل عبارة «استبداد الأغلبية» إلا في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا». ويرى جيمس برايس أن توكفيل أخطأ بشدة في رأيه ذاك، مؤكدًا أن «استبداد الأغلبية ليس مرضًا خطيرًا في أمريكا اليوم، مع أن الناس لا يزالون يعلنون قلقهم منه في بعض الأوقات.» لكننا نتساءل عما إذا كان برايس قد قرأ الرواية الأمريكية العظيمة «الحرف القرمزي» *The Scarlet Letter* التي كتبها هاوثورن، وتدور فكرتها الرئيسية حول استبداد الأغلبية، وهو بالطبع لم يشهد عهد جوزيف مكارثي Joseph McCarthy، حين عاثت أغلبية مزعومة فسادًا (لم يدم طويلًا لكنه حقيقي بلا شك). إن لم يكن توكفيل محقًّا تمامًا فإن القضية التي أثارها تبقى ذات أهمية — ولو كإجراء دفاعي — وإن كان يشوبها بعض الخطأ.

إذن فقدرة توكفيل على التنبؤ ليست موهبة خاصة على الإطلاق؛ فهو عندما يتنبأ بشيء غالبًا ما يعتمد على تحليل البيانات بدقة متناهية تمكنه من فهم الماضي والحاضر، وبالتالي استشراف المستقبل.

إذا كان البعض سيتهم توكفيل بأن فكره يعتمد على الافتراض المسبق، أو أن استنتاجاته ليست مستقاة من بيانات حصل عليها من تجربة، وإنما هي آراء مسبقة؛ فيجب القول بأن آراءه المسبقة كان لها طابع رفيع، ومعقدة تعقيدًا غنيًّا. فكتب أن «الأعراف البشرية يمكن أن تتغير، أما الإنسان فلا.» لم ينظر توكفيل يومًا إلى البشر ككائنات أكثر حكمة مما هم عليه بالفعل، لكنه أيضًا لم يعتبرهم صلصالًا يسهل تشكيله. أدرك أن عنصر المصلحة الشخصية لا يمكن إغفاله (فبسبب هذا العنصر تتحكم التجارة في السياسة داخل المجتمع الأمريكي الذي تسيطر عليه ثقافة الأعمال)، ولذا تنبأ بثقة بأن احتمال قيام ثورة في الولايات المتحدة هو احتمال بعيد، فكتب يقول:

> «أعلم أنه لا يوجد ما يعارض الأعراف الثورية أكثر من الأعراف التجارية.»

أدرك توكفيل أن البشر حكماء وحمقى (فكتب ذات مرة يقول: «أنا مندهش من بلاهة العقل البشري»)، وعظماء وحقراء، وطموحون وشديدو الكسل، ويتمتعون بروح المغامرة ويؤثرون السلامة، وأن هذه السمات أحيانًا تظهر مصاحبة بعضها لبعض وأحيانًا أخرى تكون منفردة. والأعراف تتحكم في الطبيعة البشرية، التي بدورها تتحكم في الأعراف. وصورة الطبيعة البشرية كما يراها توكفيل ليست ثابتة على حال واحدة، وفي هذا يقول: «في العصور التي تسودها المساواة يأخذ العقل البشري شكلًا مختلفًا. ومن السهل أن نرى أن شيئًا لا يبقى على حاله، فالعقل تتملكه فكرة عدم الاستقرار ... وفي العصور الديمقراطية التي يكون كل شيء فيها في حالة تغير دائم يصبح القلب البشري أكثر الأشياء تقلبًا.»

رأى توكفيل أن الإيمان بأن «البحث عن الحقائق المطلقة والمؤكدة ما هو إلا سعي وراء المستحيل، تمامًا كالبحث عن السعادة الكاملة» لا يعني أن ننحي القضايا العظيمة جانبًا. وسأل في الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا»: «ماذا تريد من المجتمع والحكومة؟» فتوضيح هذه النقطة

أمر جوهري:

هل تتمنى أن تضفي على العقل البشري بعض الرفعة التي تتمثل في إرشاده إلى تبني طريقة عظيمة عند النظر إلى الأشياء؟ هل ترغب في أن تبث في الإنسان احتقار الماديات؟ هل تأمل أن تعزز الإيمانيات العميقة وتنميها وتمهد الطريق للإخلاص الشديد؟

هل هدفك هو تهذيب الأعراف والرقي بالسلوكيات وزيادة تألق الفنون؟ هل تسعى خلف المثالية والعظمة والمجد؟

هل تسعى لأن تقود الشعب بحيث يؤثر بقوة على كل الشعوب الأخرى؟ هل تريد أن يقوم الناس بأعمال تبلغ عظمتها حدًّا يجعل كل ما تثمره جهودهم يترك بصمة عميقة في التاريخ؟

إذا كنت ترى أن هذه هي الأهداف الرئيسية التي يجب على أفراد المجتمع أن يضعوها نصب أعينهم فلا تختر الحكومة الديمقراطية، لأنها لا تضمن تحقيق هذه الأهداف.

لكن إذا كنت ترى أنه من المستحسن توجيه جهود الإنسان الفكرية والمعنوية إلى ضروريات الحياة المادية وتوظيفها لتحقيق المزيد من الرفاهية، وكنت ترى أن العقل العادي أكثر نفعًا للناس من العبقرية، إذا كنت تهدف ليس إلى ترسيخ الأخلاق البطولية وإنما إلى ترسيخ العادات المعتدلة، وكنت تفضل رؤية الرذائل عن رؤية الجرائم، وكنت مستعدًّا لانحسار موجة الإنجازات العظيمة في مقابل انحسار موجة الأعمال الوحشية، وإذا كنت ممن يرضون بمجتمع مزدهر بدلًا من مجتمع رائع يكون مسرحًا لإنجازاتك، وأخيرًا إذا كنت ترى أن الهدف الرئيسي للحكومة لا يتمثل في أن تجعل الأمة بأسرها تنعم بالمجد والقوة، وإنما أن تحقق لكل فرد أكبر قدر ممكن من الرفاهية الاقتصادية مع تجنب التعاسة قدر الإمكان، إذن فلتسع إلى موازنة ظروفك ولتشكل حكومة ديمقراطية.

من يسعه أن يقول بعد كل تلك السنوات إن ألكسي دو توكفيل كان مخطئًا في طرحه لهذه التركيبة المعقدة من الخيارات السياسة؟ فكتاب «الديمقراطية في أمريكا» دائمًا ما يثير في ذهن القارئ تساؤلات حول مدى صحة أو خطأ أفكاره بطريقة هي الأكثر نفعًا. كتب توكفيل إلى صديقه فرانسيسك دو كورسيل Francisque de Corcelle في عام ١٨٣٥ يقول: «إن الكتب التي جعلت الناس يفكرون أكثر من غيرها، وأثرت أكبر تأثير على آرائهم وأفعالهم هي الكتب التي لم يسع الكاتب فيها إلى أن يُملي على القارئ الرأي الصائب؛ وإنما وجّهه من خلال ما كتبه إلى طريق الحقائق ليجدها، وكأنه فعل ذلك بنفسه.» وهذا بالضبط ما قدمه لنا توكفيل في «الديمقراطية في أمريكا».

الفصل الثامن

فاز توكفيل بأول اعتراف رسمي بقدرته على التنبؤ في يناير/كانون الثاني من عام ١٨٤٨. ففي خطبة ألقاها في مجلس النواب لم يتنبأ بثورة ١٨٤٨ فقط وإنما حذّر منها أيضًا. كان إلقاء الخطبة في حد ذاته يتطلب التحلي بكثير من الشجاعة. أخبر فيها زملاءه النواب أنهم لا يهتمون بشيء خارج نطاق مصلحتهم الشخصية، وأنهم لا يتمتعون بحب المصلحة العامة، ولا يستحقون أن يحتلوا موقع القيادة بأي حال من الأحوال. يحكي توكفيل أن «أغلبية النواب قابلوا نبوءاته الكئيبة بضحك مهين». ويذكر شارل دو رموزا Charles de Rémusat أن تيير انحنى عليه وهمس واصفًا توكفيل بقوله: «يا له من شاب واهن كريه»، مشيرًا باحتقار إلى شحوبه.

أخبر توكفيل زملاءه النواب أيضًا أنهم نائمون على بركان، وأن العمال سيخرجون إلى الشوارع في موجات من الغضب قريبًا، وإن لم يحدد الوقت على وجه التحديد، فـ«للمرة الأولى منذ ستة عشر عامًا تقريبًا يسود شعور بعدم الاستقرار، وهو عين الشعور الذي يسبق الثورة وينذر بقرب اندلاعها، بل يكون سبب قيامها أحيانًا؛ وهذا الشعور يسود أنحاء البلاد على نحو خطير جدًّا.»

أعلن توكفيل في خطبته أن الأعراف العامة أصبحت واقعة تحت سيطرة روح المصلحة الخاصة، فقال: «هل تعرفون ما هو أكثر أسباب فساد الأعراف الخاصة انتشارًا وفاعلية وعمقًا؟ إنه تغير الأعراف العامة، فالأخلاق لا تَحكُم

الأعمال الفرعية في الحياة ما لم تجد طريقها إلى الأعمال الأساسية. وأرجو أن تلاحظوا أنني لا أقول هذا بصفتي واعظًا وإنما بصفتي رجل سياسة.»

يرى توكفيل أن الحكومة ليست المتسبب الوحيد في ذلك؛ وإنما الطبقة الحاكمة بأسرها وهو يقصد بها الطبقة الوسطى. ثم قال توكفيل جملة أثارت المستمعين أكثر وأكثر، وهي: «إن السبب الأساسي والفعال وراء سقوط الناس من على كراسي السلطة هو كونهم غير جديرين بها.» وأضاف قائلًا: «أخبرتكم لتوي أن هذا الداء سيتسبب في اندلاع أخطر ثورة في تاريخ هذا البلد عاجلًا أو آجلًا، وإن كنت لا أدرى كيف أو متى سيحدث هذا، لكنه سيحدث عاجلًا أو آجلًا بلا شك.»

واندلعت الثورة عاجلًا لا آجلًا. ففي الساعة العاشرة من مساء ٢٣ فبراير/شباط في شارع كابوسين Capucines أمام وزارة الخارجية أطلق الجنود الرصاص على حشد من العمال المعترضين على سياسات الحكومة وهم ينادون بالإصلاح، مما أسفر عن مصرع ستة عشر رجلًا وإصابة الكثيرين؛ وذلك بعد أن استثار الجنود سماع دوي رصاص، ولا نعلم على وجه اليقين مصدر إطلاق الرصاص، فقيل إنه ربما يكون عميلًا محرضًا أو جنديًّا ظن أن قائده على وشك التعرض لهجوم من عامل يحمل مصباحًا. هكذا أُطلِقت الشرارة التي أججت الحريق الهائل؛ فوضع العمال الجثث الملطخة بالدماء على عربة، وساروا بها إلى مقاطعة سان أنتوان Saint-Antoine التي تسكنها الطبقة العاملة، وصاحوا وهم يسيرون بأن أصحاب السلطة يقتلون الناس، وطالبوا بالثأر.

دارت عجلة الأحداث بسرعة بعد ذاك. فطُرد جيزو من منصب رئيس حكومة لوي فيليب ونُفي، واكتُشف أن الكثيرين من رجال الحرس الوطني انشقوا؛ فاقترح مستشارو لوي فيليب عليه أن يترك العاصمة ويذهب إلى بيته في سان كلو Saint-Cloud مخافة الخطر. في اليوم التالي خرج العمال إلى شوارع باريس، وأعلنت حكومة مؤقتة منح كل أفراد الشعب حق التصويت (فحتى ذاك الوقت كان على المواطن أن يدفع ضرائب إجمالي قيمتها ٢٠٠ فرنك حتى يتمكن من التصويت، مما عني أن أقل من واحد بالمائة من

الشعب الفرنسي كان قادرًا على التصويت؛ أي ٢٤١٠٠٠ رجلًا من بين سكان يبلغ عددهم ٣٠ مليونًا). وأُعلنت حرية الصحافة والاجتماع وحق العمل. وتجمعت الحشود في الشوارع ليلًا، وخيم شبح الخطر على المدينة. أصيب لوي فيليب بالهلع عندما سمع أفراد الحرس الوطني المكلف بحراسته في قصر تويلوري Tuileries يهتفون بالشعارات التي يرددها العامة قائلين: نعم للإصلاح. كتب محرر جريدة «لا بريس» *La Press* التي كانت موالية للحكومة أنه يجب على الملك أن يتنحى أو أن يتوقع مصيرًا كمصير لويس السادس عشر. ولا شك أن تخيل لوي فيليب مداعبة نصل المقصلة لرقبته جعله يتنازل عن العرش، ويهرب من باريس مع أسرته في ثلاث عربات صغيرة. وحُل مجلس النواب، وبدأ عهد الجمهورية الثانية في فرنسا.

يحكي فلوبير Flaubert في الفصل الأول من الجزء الثالث من روايته «تربية عاطفية» *Sentimental Education* على لسان بطله الشاب فريدريك مورو Frédéric Moreau عما أسماه في موضع آخر بـ«النزعة للفوضى» التي تمثلت في تجمع الحشود في الشوارع في ٢٤ فبراير/شباط. كان فلوبير نفسه بين هذه الحشود ولم يكن عمره يتجاوز السابعة والعشرين عامًا في ذاك الوقت، ومع أنه ادعى قراءة أكثر من عشرين كتابًا عن الحدث تحضيرًا لروايته، فقد اعتمد بشكل أساسي على وصف ما رآه وحسب. فيما يلي وصفه لمنظر الحشود أمام قصر باليه رويال Palais-Royal بعد رحيل الأسرة الحاكمة:

> قام العامة باقتلاع وتحطيم المرايا والستائر والثُّرَيَّات وحاملات المصابيح والمناضد والكراسي بأنواعها وكل ما أمكن تحريكه، بما في ذلك ألبومات الصور وسلال أدوات التطريز، ولم يكن دافعهم إلى ذلك هو الثأر بقدر ما كان رغبتهم في التأكيد على سيادتهم؛ فكانوا منتصرين ولهم الحق دون شك في أن يستمتعوا بنصرهم. تزين العامة بالشرائط والشيلان مقلدين الملوك بطريقة ساخرة، وثبتوا الخيوط الذهبية على أكمام أردية العمل، وتوج ريش النعام

رءوس الحدادين، واستُخدمت أشرطة وسام الشرف الفرنسي كأحزمة للعاهرات. وأشبع كل شخص من العامة أهواءه؛ فمنهم من رقص ومنهم من شرب الخمر. وفي حجرة نوم الملكة كانت امرأة تدهن شعرها بكريم، ومجموعة من المقامرين المتحمسين يلعبون بالورق خلف ستار ...

عج القصر بالناس، الذين أشعلوا سبعة حرائق في الفناء الداخلي، وألقوا بآلات البيانو والخزانات ذات الأدراج والساعات من النوافذ. كانت سيارات الإطفاء تدفع بالماء عاليًا حتى السقف، وحاول بعض قطاع الطرق أن يقطعوا الخراطيم بسيوفهم، فحث فريدريك طالبًا بالكلية العسكرية على التدخل، لكنه لم يفهم المطلوب وبدا أنه أبله. وبعد أن أغار العامة على مخازن الخمر انغمسوا في عربدة بغيضة في كل مكان حول الممرين المقنطرين. كانت الخمر تفيض سيولًا مبللة أرجل الناس، وظل الصعاليك يشربونها من قيعان الزجاجات المكسورة، صائحين وهم يترنحون في أنحاء المكان.

كتب توكفيل يقول: «في حالات الشغب — كما في الروايات — تكون النهاية هي أصعب ما يمكن تخيله.» حكى تلك الواقعة وأحداثًا أخرى في كتاب «ذكريات» الذي يكشف فيه عن ذكرياته حول ثورة ١٨٤٨، ويطرح فيه النهج الذي يفضل اتباعه عند كتابة التاريخ. فأكد أنه يكره التأريخ القائم على «النظام المطلق»: أي التأريخ الذي يُرجع كل الأحداث إلى القليل من الأسباب الرئيسية — كروح العصر والنظم الاقتصادية والمؤسسات القانونية — وبذا يُسقط أهمية الأفعال الإنسانية في التاريخ. إن تلك التأريخات تنكر الدور الذي تقوم به الصدفة في الشئون الإنسانية، في حين أن توكفيل كان يرى أن كلًا من الرجال والمصادفات يلعب أدوارًا هامة في مصير الأمم. هذا مع أنه كتب يقول: «أنا مقتنع تمامًا أن المصادفة لا يمكن أن تفعل شيئًا، إلا إذا كانت الأرض ممهدة سلفًا. وتعد الأحداث الممهِّدة

لحدوث الصدفة وطبيعة المؤسسات وتغير الآراء وحال الأعراف هي المواد التي تشكل منها المصادفةُ الأحداثَ العفوية التي تدهشنا وترعبنا.»

ثم يُفَّصِل قائلًا إن تلك «المواد» في حالة ثورة ١٨٤٨ كانت هي: الثورة الصناعية التي جاءت بكثير من العمال إلى باريس، دون أن تتوافر لديهم جميعًا القدرة على العيش بالأجور التي يتقاضونها أو على إيجاد عمل، وذلك التوق إلى الملذات المادية الذي تغذى على الحسد، والنظريات القائلة بأنه يمكن القضاء على الفقر بإحداث تغييرات فعالة في النظم الاجتماعية، بالإضافة إلى احتقار قادة الأمة؛ الذين استحقوا ذلك، والمركزية التي جاءت بقلب البلد إلى باريس، وأخيرًا عدم استقرار المجتمع، الذي مر بما لا يقل عن سبع ثورات في ستين عامًا فقط.

لم ينو توكفيل أن ينشر «ذكريات» في حياته (في الواقع لم يُنشر الكتاب رسميًّا حتى عام ١٨٩٣، عندما نشره حفيد أحد أخويه بعد حذف الكثير منه عند تحريره.) ادعى توكفيل أنه كتب هذه المذكرات لنفسه، فقال: «أنا أُعِد تلك الصفحات لتكون مرآة أستمتع فيها برؤية المعاصرين لي ورؤية نفسي، لا لتكون صورة يشاهدها العامة. لن يعرف أفضل أصدقائي شيئًا عنها، لأنني أتمني الاحتفاظ بالحرية في وصف نفسي ووصفهم بلا تملق. أود أن أكشف الدوافع الخفية التي حركتنا — هم وأنا والآخرين — وأن أعلن تلك الدوافع بعد أن أفهمها. باختصار أريد أن أعبر عن رأيي بأمانة في هذه المذكرات، ولهذا من الضروري أن تظل سرية تمامًا.» موضع الشك الوحيد في هذا التصريح الشيق يكمن في الجملة الأولى: فلا أحد — وخاصة إذا كان يتمتع بالموهبة الأدبية التي يتمتع بها ألكسي دو توكفيل — يكتب هذا المُؤلَّف الكبير دون أن يخطط لأن يقرأه قطاع عريض من الجمهور في يوم ما.

كتب توكفيل «الديمقراطية في أمريكا» بدرجة عالية من التعميم، فلم يذكر سوى القليل من أسماء الأعلام، وكان يختار الموضوعات من أجل فحواها العامة؛ وربما القابلة للتعميم. أما في «ذكريات» فيظهر جانب آخر من جوانب توكفيل، ذلك المتخصص في الكوميديا الإنسانية؛ الكاتب الذي

يتمتع بعين ترصد الضعف البشري، الذي قلما تستطيع عوامل غير السياسة أن تظهره.

يعد «ذكريات» كتيبًا صغيرًا عن الثورة، ففيه يوضح توكفيل أنه بعكس الثورة البلشفية التي وقعت عام ١٩١٧ لم يقد ثورة عام ١٨٤٨ عدد قليل من القادة، وإنما جاء بها إلى الحياة حشد من العامة الجياع المحرومين من حق التمثيل والذين يحصلون على رواتب قليلة. كتب يقول: «عادة ما تكون الثورات التي تشعلها مشاعر العامة موافقة لرغبات معظم الناس، لكنها تندلع على نحو غير مُتعَمد ... فهي تنبع تلقائيًّا من داء متفش في عقول الرجال، يتحول فجأة إلى أزمة بفعل حادث عرضي غير متوقع. الذين يدعون أنهم بدءوا الثورة وقادوها لم يبدءوا شيئًا أو يقودوه؛ فالميزة الوحيدة التي يتمتعون بها هي تلك التي يتصف بها المغامرون الذين اكتشفوا معظم الأراضي؛ ألا وهي تحليهم بالشجاعة للمضي قدمًا والرياح تهب.» كان توكفيل يعتقد أن الثورة تفتح الباب أمام المصابين بالجنون الحقيقي للمشاركة، فقال: «كنت دائمًا ما أعتقد أن المجانين (لا من يطلق عليهم مجانين مجازيًّا، وإنما المجانين فعلًا) يقومون بدور سياسي هام في الثورات، خاصة الثورات الديمقراطية.» ويصف على صفحات «ذكريات» عددًا من هؤلاء المجانين.

تأثر توكفيل بشدة بدور الصدفة في تلك الثورة على وجه التحديد. فعلق على قصة أن الحكومة ذبحت الناس عمدًا قائلًا: «أعرف عيوب حكومة يوليه/تموز [حكومة لوي فيليب] جيدًا جدًّا، وأعرف أن الوحشية ليست من بينها. إنني أعتبرها من أكثر الحكومات على الإطلاق فسادًا وأقلها تعطشًا للدماء، وأنا أردد هذه الإشاعة [بأن الحكومة قتلت عددًا كبيرًا من الناس] فقط لأوضح كيف تساعد تلك الإشاعات على قيام الثورات.» بعد أن التقى بجنرال يدعى بيدو Bedeau أصابته الأحداث الجارية بالخبل، علق توكفيل قائلًا: «لم يدهشني ذلك، إذ إنني دائمًا ما ألاحظ أن رجال الجيش هم أول من يفقدون عقولهم، ويظهرون الأكثر ضعفًا عند مواجهة الثورة.» ويفسر ذلك بأن الحروب التي يواجهونها تكون منظمة نسبيًّا — فالعدو واضح

والاستراتيجيات جاهزة والتكتيكات مرسومة — والجنود تكون مطيعة على نحو مفتقد في الحشود الثورية الجامحة.

يعد وصف الشخصيات السياسية في «ذكريات» أحد ينابيع السرور التي لا تنضب في هذا الكتاب الذي يغلب عليه طابع الكآبة. فمع أن توكفيل لا يتحمل الحمقى وجد متعة كبيرة كما يبدو في الكتابة عنهم. ربما لم يكن توكفيل شخصًا فكِهًا، لكنه كان سريع البديهة بصورة مميزة، وأكثر ما أظهر هذا هو التفكر في غرور البشر وطموحاتهم. كتب توكفيل أنه يجب عليه «الاعتراف بأنه من الخطأ أن يترك المرء مشاعره الخاصة تجاه الرجال تقوده في عالم السياسة»، ولذا اعتزم أن يطلق أحكامًا معتدلة على الشخصيات، دون استثناء أحد.

بدأ توكفيل من القمة ونزل بسياطه على الملك لوي فيليب، فكتب يقول: «لم يتوقع أحد اندلاع [الثورة] وخاصة هو، إذ لم تفلح أي من المؤشرات الخارجية في تنبيهه إلى إمكانية اندلاعها؛ وذلك لأن عقله تقوقع منذ وقت طويل في العزلة المتغطرسة التي يرتمي في أحضانها أغلب الملوك، الذين تتميز فترات حكمهم الطويلة بالازدهار، والذين يتوهمون أن الحظ عبقرية، والذين لا يرغبون في الاستماع إلى أي شخص لأنهم يعتقدون أنهم تعلموا كل شيء.» والجرم الذي اقترفه لوي فيليب يتمثل في أنه «أفسد الناس دون أن يناصبهم العداء، وتلاعب بروح القانون دون أن يغير نصه، واستغل عيوب البلد لصالحه، وأغرق بدهاء الروح الثورية في حب المتع المادية، كانت هذه هي الخطة التي سعى إلى تنفيذها طوال حياته، وبالتدريج لم تصبح هدفه الأساسي فحسب وإنما همّه الوحيد.» كان لوي فيليب رجلًا «قلما يغير رأيه، لكنه كان يغيّر سلوكه بسهولة أكبر من أي شخص عرفته». لم يجلس توكفيل في حضرة الملك سوى مرة واحدة فقط، حينما سأله الملك عن أمريكا، ثم تحدث نيابة عنه عنها وعن غيرها من الموضوعات! (علق توكفيل على ذلك قائلًا: «لم أنطق بأربع كلمات».) وبعد خمس وأربعين دقيقة قام الملك، شاكرًا توكفيل على متعة الحديث معه، «وأذن لي بالانصراف وهو سعيد بي، كما يسعد المرء بأي شخص يشعر أنه تحدث جيدًا في حضوره».

حتى معظم الشخصيات الثانوية لم تنج من جلد توكفيل لهم في وصفه النثري الرائع. فكتب عن رجل يدعى أوجوست دو بورتالي Auguste de Portalis — شغل فيما بعد منصب المحامي العام في باريس — قائلًا: «إنه لا يتمتع بعقل عمه ولا بأخلاقه النموذجية ولا بتقواه، فعقله غير المصقول وغير المنظم والعنيد تشبع بسهولة بكل الأفكار الخاطئة والآراء المتطرفة السائدة في عصرنا.» وكتب عن مدام دو لامارتين Madame de Lamartine — زوجة السياسي الشاعر — قائلًا: «إنها مصابة بكل نقص يصيب الفضيلة ويجعلها أقل قبولًا دون أن يغير من صفتها. فهي ذات طبع متعجرف وغرور عظيم، وهي عنيدة وقاسية بالرغم من استقامتها، فيستحيل عليك ألا تحترمها بقدر ما يستحيل أن تحبها.» كان توكفيل يهوى العبارات التي توقع القارئ في شراكها، وأقصد بذلك العبارات التي تجعل القارئ يعتقد أنه سيبدأ في مدح شخص ما ثم ... ينفتح باب الشرك، وتقع الضحية في حفرة التماسيح.

أما تصويره للشخصيات الهامة فيتسم بالعناية الدقيقة بالتفاصيل المتوازنة. فمثلًا كتب عن وزير الداخلية شارل دوشاتل Charles Duchâtel يقول: «كان ذكيًّا جدًّا، إلا أنه كان ضيق الأفق؛ فعقله يمكنه أن يرى بوضوح كل التفاصيل الدقيقة في إطار الأفق الذي ينظر إليه، لكنه لم يستطع تخيل أن الأفق يمكن أن يتغير. كان مثقفًا ومتميزًا ونشيطًا، لكنه سريع الغضب ومحب للانتقام، انتمى إلى تلك الجماعة من المثقفين التي تدير سياستها وفقًا لنماذج قديمة، واعتمادًا على ذاكرتها التاريخية، وتقصر اهتمامها على فكرة واحدة تحمسها وتعميها.» وقال عن ليونور هافين Leonor Havin — الذي عمل لاحقًا مُفَوضًا للحكومة — إنه «أحد الرجال الأحرار الطموحين الذين وجدوا أنفسهم واقعين لعشر سنوات في قيد معارضة [لوي فيليب] بينما كان ينوي فقط أن يمر بطريق المعارضة مرور الكرام. وكم من رجال أراهم حولي من هذا النوع! تعذبهم فضيلتهم ويشعرون باليأس لأنهم قضوا أفضل أوقات حياتهم في نقد رذائل الآخرين، دون أن تتاح لهم الفرصة لاستغلال رذائلهم الخاصة، ولا يزكي نارهم سوى أوهام سوء استخدام القوة.»

مع قسوة النقد الذي يوجهه توكفيل في الصور التي يرسمها فإنه عادل، إذ يقول: «لم أعرف عقلًا أقل صدقًا أو أكثر استخفافًا بالحقيقة [من عقل لامارتين]. بل أنا مخطئ عندما أقول إنه يستخف بها، فهو لم يحترمها أبدًا بالقدر الذي يجعله يشغل باله بها بأي شكل من الأشكال. فسواء أتحدث أم كتب كان يبتعد عن الحقيقة ويعود إليها دون أن يلاحظ ذلك، لأنه لم ينشغل سوى بالتأثير المحدد الذي أراد أن يتركه في تلك اللحظة.» ومع ذلك أضاف بعد صفحات قليلة عندما قارن لامارتين بليدرو رولان Ledru-Rollin — وهو شخصية رئيسية أخرى في المجلس الوطني خلال الثورة — قائلًا: «أنا لا أثق في ذكاء لامارتين مثلما لا أثق في نزاهته، وأعتقد أنه لا يتورع عن فعل أي شيء إلا الإتيان بتصرف جبان أو قول عبارة بذيئة.» ويا لها من لمسة أخيرة خففت من وطأة ما سبق!

إنه لمن سمات رفعة العقل أن يتحري المرء عدالة الحكم بدافع من الحرص على الحق، حتى وإن كان هذا الحكم متعلقًا بشخص نكرهه. فقبل أن يعلن توكفيل رأيه في جورج ساند George Sand التي قابلها لأول مرة في مأدبة أقامها ريتشارد مونكتون ميلنيس Richard Monckton Milnes — الأديب الإنجليزي الذي يتمتع بطبيعة اجتماعية — قال توكفيل إنه لا يحب «الأدباء المغامرين»، وأضاف «أنا متحامل بشدة على السيدة ساند Madame Sand، فأنا أكره النساء اللاتي يكتبن.» لكنه عندما جلس بجوارها على الغداء قال: «سحرتني، وأنا أرى أن ملامحها ضخمة شيئًا ما لكن أسلوبها في التعبير رائع، ويبدو أن ذكاءها انسحب ليسكن عينيها، تاركًا ما تبقى من وجهها عاريًا منه. وأدهشني أن سلوكها غير متكلف، وهي سمة الأرواح العظيمة. كانت بالفعل تتمتع ببساطة حقيقية في أسلوبها ولغتها، خالطتها بساطة متكلفة في الملبس.»

في النهاية أجد أنه من المناسب أن أقول — أنا اليهودي — إن توكفيل سمى فوق معاداة السامية، مع أنه كان بلا شك يشارك طبقته الاجتماعية في تحيزاتها؛ فهو يتعامل مع كل يهودي — كما يتعامل مع الجميع — بوصفه حالة فردية. (وهو ما فشل فيه الكثير من الكتاب العظماء بدءًا من شكسبير

Shakespeare وحتى تي إس إليوت T. S. Eliot كما هو معروف.) فلننظر مثلًا إلى ميشيل جودشو Michel Goudchaux الذي وُصف بأنه «من أصحاب البنوك ومن المتطرفين»، ونتبحر فيما كتبه عنه توكفيل: «لم يكن شكله يوحي بأنه يهودي، مع أنه كان يهوديًّا من جانب والديه؛ فكانت وجنتاه ممتلئتين وشفتاه مكتنزتين وحمراوين وجسده ممتلئ قصير، مما جعله يبدو وكأنه طباخ يعمل لدى أسرة كريمة. من المستحيل أن تجد شخصًا أكثر منه تفاهة وأسرع غضبًا وأشد حبًّا للخصام وأكثر وقاحة وأسهل إثارة. لم يكن باستطاعته أن يناقش مشاكل الميزانية دون أن ينفجر في البكاء، ومع هذا كان من أكثر الرجال القصار الذين قد يقابلهم الإنسان شجاعة.» ويتابع توكفيل كلامه عن شجاعة جودشو في شوارع باريس عندما كانا عضوَين في فريق مفوض بالتحدث إلى الحرس الوطني. قال جودشو لتوكفيل بعد أن أنهيا المهمة: «أود أن أذهب لأقاتل قليلًا»، وانطلق على الفور وقاتل بشجاعة. يعلق توكفيل على ذلك قائلًا: «أعلن ذلك بلهجة عسكرية تتناقض على نحو غريب مع مظهره المسالم، حتى إنني لم أستطع منع نفسي من الابتسام.»

تظهر الكثير من هذه الصور على صفحات «ذكريات»، فكان لتوكفيل عقل يتعطش للوصول إلى أدق تقييم ممكن لشخصية كل رجل وامرأة يقابلهم، وهو إن كان شغوفًا بفهم الشخصيات، فإنه لم يكن أقل شغفًا بالتفاصيل الروائية التي تصف تلك الشخصيات. فعلى سبيل المثال وصف توكفيل جيزو عندما ظهر في مجلس النواب ليعلن أنه طُرد قائلًا: «دخل بأكثر خطواته ثباتًا، وأشد مشياته عجرفة، وعبر الممر في صمت، ثم اعتلى المنصة، ملقيًا برأسه إلى الوراء خشية أن يبدو وكأنه منحن.» ووصف جان بيير سوزيه Jean Pierre Sauzet رئيس مجلس النواب قائلًا: «كانت ملامحه وسيمة لكن غير مميزة، وله جلال كجلال حامل الصولجان الكاتدرائي، وجسد سمين ضخم وذراعان قصيرتان جدًّا. وعندما كان يشعر بالقلق أو الانزعاج — وكان غالبًا ما يشعر بهما — كان يحرك ذراعيه القصيرتين في كل الاتجاهات حركة متشنجة مثلما يفعل الغريق»، وخلال الاضطراب الذي

حدث في المجلس عند اقتحام البروليتاريا له لم يمش هذا الرجل كعادته، لكنه «تسلل من المنصة التي كان كرسيه موضوعًا عليها، ورأيته يمر أمام عيني ككتلة لا شكل لها، ولم أكن أعتقد أبدًا أن الخوف يستطيع أن يزيد من سرعة الأجسام السمينة بهذه الدرجة، أو أن يحولها فجأة إلى نوع من المواد السائلة».

قال توكفيل إنه لا يثق فيما أسماه «روح الأدب عندما يتعلق الأمر بالسياسة»، وتلك الروح في رأيه تتمثل في الانصراف إلى البحث عن الأشياء المبدعة والجديدة بدلًا من البحث عن الأشياء الصحيحة؛ ويحدث ذلك نتيجة الميل إلى ما يجعل الصورة أكثر تشويقًا، لا إلى ما يخدم غاية ما، والتقدير الكبير للتمثيل الجيد والحديث الرفيع بغض النظر عن رسالة المسرحية، وأخيرًا الحكم على الأشياء وفقًا للانطباعات لا الحجج المنطقية». وهذه الروح بالطبع سائدة بيننا اليوم، وتظهر عندما يستند الناس إلى معايير جمالية لإصدار أحكام من المفترض أنها سياسية وأخلاقية، مثل احتقار سياسي بسبب ضعفه في النحو أو سوء ذوقه أو سوء اختياره ملابسه أو زوجته بقدر ما يجب احتقاره بسبب سوء آرائه أو أفعاله. لكنني أعتقد أن توكفيل كان محظوظًا لأنه لم يسمح أبدًا لروحه الأدبية القوية أن تتغلب على آرائه السياسية الحكيمة، بل عاش الاثنان معًا في جو من الألفة، واضعين «ذكريات» في مصاف الأعمال الأدبية، ومميزين توكفيل بصفته أحد أعظم الكتاب السياسيين في كل العصور.

كان حس توكفيل الأدبي مصحوبًا بتأمله لذاته — وهي صفة نادرة فيمن يمارسون السياسة — وصدقه مع ذاته؛ وهي الأخرى صفة نادرة. فبعد تفوهه بعدد من الإهانات الشديدة لزملائه في مجلس النواب قال: «ولا يصح الآن إلا أن أتعامل مع نفسي بنفس الطريقة التي تعاملت بها وسأتعامل بها مع الكثيرين.»

بدأ توكفيل قائلًا إنه تنفس الصعداء بعد الثورة لأنه سعد بسقوط النظام البرلماني القديم الذي لم ينجح في ظله. ففي مجلس النواب القديم لم تكن نقاط قوته أو نقاط ضعفه ذات نفع له؛ ويوضح قائلًا: «لم

يكن لدي ما يكفي من الفضائل لأستحق الاحترام، وكنت مستقيمًا بدرجة تمنعني من التكيف مع كل تلك الممارسات الحقيرة التي كانت لازمة لتحقيق نجاح سريع.» ولم يتحل بكثير من الصبر في التعامل مع الأشياء — أو الأشخاص — التي لا تثير اهتمامه. وسواءً بسبب اضطراب رؤيته أو ميله إلى الشعور بالملل الشديد أو اتصافه بالغرور المتأصل في الأرستقراطيين؛ فإنه لم يكن يستطيع أن يتذكر أسماء الكثير من الأشخاص الذين ربما كانوا سيلعبون دورًا مهمًّا في حياته المهنية. يقول عن ذلك: «لا يرجع ذلك إلى أنني أحتقرهم، لكنني لا أتعامل معهم كثيرًا؛ فأنا أشعر أنهم مثل باقي البشر، وأنا أحترمهم لأنهم يجعلون الحياة تسير، لكنهم يصيبونني بملل شديد».

عرف توكفيل أن زملاءه النواب رأوه كريهًا مثلما رأى هو أن أغلبهم كريهون. ووجد أن مختلف قادة الأحزاب في مجلس النواب لا يحبون النزاهة والأخلاق والتنوير حبًّا متجردًا من المصالح، مما جعله يعتبرهم «تقريبًا على نفس الدرجة من عدم استحقاق القيادة». ورأى أنه يحيا في «عزلة كئيبة كشخص غريب ذي صورة سيئة في أذهان الناس»، فيقول: «كنت دائمًا على وعي بأن الناس ينعتونني بصفات وعيوب وهمية.» وأدرك أن الناس يرونه مخادعًا وماكرًا وحقودًا وذا طابع عنيف. وعرف أن «عدم الثقة بالذات يسيطر عليه»، وبالطبع لم يخفف الرأي السلبي الذي كونه عنه الكثير من زملائه النواب من وطأة هذا الوضع.

ومما زاد من صعوبة الأمور على توكفيل «سوء التفاهم الشديد» ما قاله بنفسه: «لا أحد سينتفع أكثر مني بالشعور بقبوله، ولا أحد أحوج مني إلى احترام العامة وثقتهم ليساعداه في القيام بأفعال هو قادر على القيام بها.» نبع ضعفه هذا — كما اعتقد — من «غرور شديد، يتسم بنفس قلق وعدم راحة عقله». قال أيضًا: «غالبًا ما أتأرجح بين الخير والشر وأنغمس في ذلك انغماسًا خفيفًا أقرب إلى الضعف، وسرعتي في نسيان الإساءات تبدو كنقص في الشجاعة وعدم القدرة على تحمل معاناة تَذكّر الإهانة وليست ثمرة أي جهد فاضل لمحو تلك الذكريات.» لم يحتج توكفيل إلى علاج نفسي؛

لأنه تمكن من تحليل نفسه كأبرع محلل نفسي، غير أنه فاته وصف العلاج للأسف!

كان الناس دائمًا ما يلفتون انتباهه إلى ميله إلى التشاؤم. فقال له بومون: «إنك دائمًا ما ترى الجانب المظلم من كل شيء»، وذلك عندما أخبره بومون أن عصيان الحرس الوطني وتأييدهم لقضية الثورة عنى الإطاحة بكل السلطات. كان خوف توكفيل من الثورة بما تحمله من فوضى وبتحجيمها للحرية الحقيقية هو ما جعل عينيه لا تريان سوى ظلامًا بصورة أكبر من الآخرين.

إذا كان توكفيل يخاف الثورة فإن هذا لا يعني أنه يخاف أو يحتقر «الشعب»، كما يحلو للثوار أن يطلقوا على أنفسهم. كل ما في الأمر أنه رأى أن «الشعب» لا يضم إلا البلوريتاريا الذين يعيشون في المدن ويختبئون في عباءة مناصري نظمٍ أيديولوجية محددة، وليس من بينهم ساكنو الريف أو المزارعون أو أي من الفرنسيين البسطاء الذين يكدحون لتوفير حياة لائقة، وهم الذين احترمهم توكفيل جدًّا. عرف توكفيل إلى أي مدى قد تكون حياة الفقراء صعبة، فهو من كتب «عن الإملاق» *A Memoir on Pauperism*، وعمل على تحسين ظروفهم الحياتية تحسينًا لا يعود عليهم بأثر سلبي، مجنبًا إياهم ما حدث في التاريخ الأمريكي الحديث عندما فرضت بعض برامج الخدمة الاجتماعية الأمريكية قيودًا على المستفيدين منها لأجيال. ومع هذا كان يؤمن أن «الشعب» يصبح مصدرًا للخطر عندما تمتلئ رأسه بـ«نظريات تافهة وأحلام وهمية»، وهذان هما المجالان اللذان تخصص فيهما الثوار على مر العصور. أيد توكفيل الإصلاح والتغيير، على أن يكونا نظاميَّين، وكره فكرة الصراع المطلق بين «من يملكون ومن لا يملكون»، وربما يكون أول من استخدم هذه العبارة في خطبته التي ألقاها في ٢٧ يناير/كانون الثاني عام ١٨٤٨، محذرًا من الثورة المرتقبة. كان يأمل أن يخفف من المسئولية العامة التي يتحملها الفقراء، وأن ينشئ مؤسسات تمكنهم من تحقيق المزيد من الازدهار لأنفسهم، وأن يساعدهم بأية وسيلة ممكنة؛ وصاغ اقتراحات محددة لتحقيق كل ذلك.

كان ينزعج كثيرًا من فكرة انقسام الدولة بين من «لا يملكون شيئًا ويجمعهم الحسد المشترك» ومن «يملكون كل شيء ويجمعهم الرعب المشترك». واعتبر أن الكثير من الثوار الذين ظهروا على الساحة السياسية في ذلك الوقت كانوا مجانين. ويتجلى اشمئزازه من الثوار في وصف لوي بلانكوي Louis Blanquin الذي لمع بينهم وتحدث أمام المجلس في ١٥ مايو/أيار. فقال توكفيل عنه: «مع أنني لم أره ثانية فإن ما أذكره عنه يملؤني بالاشمئزاز والنفور منذ ذلك الحين، له وجنتان غائرتان ذابلتان وشفتان بيضاوان ونظرة تعكس المرض والخبث والدناءة، وكأنه جثة شاحبة متعفنة. كان من الواضح أنه لا يرتدي أية ملابس داخلية، وغطى ذراعيه الهزيلتين النحيلتين بإحكام بمعطف أسود قديم، فبدا كأنه كان يعيش في بالوعة وخرج منها لتوه.»

مع هذه الأجواء الثورية التي عايشها توكفيل خلال النصف الأول من عام ١٨٤٨، فقد عبَّر عن شعوره خلال هذه الأيام بسعادة لم يعرفها من قبل؛ قائلًا: «لم تربطني علاقة بأحد من الأسرة المالكة، ولم أشعر بحب تجاه أي من الأمراء أو آسف لمصيرهم، ولم أشغل نفسي بالدفاع عن قضية غير قضية الحرية والكرامة الإنسانية.» كان قد أصبح حينها جمهوريًّا أصيلًا، وأصبح هدفه الأوحد هو «حماية قوانين المجتمع القديمة من المجددين؛ بتوظيف القوة الجديدة التي يمنحها المبدأ الجمهوري للحكومات، والتأكد من غلبة إرادة شعب فرنسا على أهواء ورغبات الرجال الذي يعملون في باريس، وبهذا أضمن انتصار الديمقراطية على الخطاب السياسي الذي يتلاعب بالجماهير لتحقيق مصالح شخصية». ولأول مرة على مدار حياته كناشط سياسي نجد توكفيل لا يقف في صف المعارضة وإنما يسير مع تيار «توجه الأغلبية، الذي يسير في الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يوافق عليه ذوقي وعقلي وضميري».

لم يفلح الخطر الحقيقي الذي شهدته أعتى أيام الثورة في أن يفت في عضد توكفيل على الإطلاق، بل إنه حرك فيه روح المغامر. سنظل نتذكر توكفيل كشاب لم يتردد في خوض المبارزات. ونجح في النجاة من حطام

السفن في أمريكا الشمالية، وواجه صعاب المناطق البرية في ميتشيجان الشمالية ممتطيًا جواده. وخلال أشد أيام ثورة ١٨٤٨ ولياليها التهابًا كان يجوب شوارع باريس بدافع الفضول دون أن يثنيه الخوف عن ذلك. وعندما ذهب لحضور مهرجان في حديقة شان دي مارس Champs de Mars وضع بهدوء مسدسين في جيبه، لأنه كان يتوقع وقوع أعمال شغب. ولم ينجح أحد أبدًا في أن يجعله يستسلم، سواء في مناظرة أو في أي مجال آخر من مجالات الحياة. كتب يقول: «إنني أخاف الشك أكثر مما أخاف الخطر.» وكان كذلك بالفعل.

الفصل التاسع

قال توكفيل إنه سعد بالتخلص من حكومة يوليه/تموز، التي شعر في عهدها وهو في مجلس النواب أنه مهمش، وألا رفيق له سوى مبادئه الثابتة. أما بعد رحيل الملك لوي فيليب وإقامة الجمهورية في أعقاب ثورة فبراير/شباط ١٨٤٨، فقد بدأ يقترب ببطء لكن بخطى ثابتة من قلب الأحداث؛ وأخيرًا لاحت في الأفق إمكانية أن يصبح لاعبًا أساسيًّا؛ على الأقل هذا ما بدا له.

كان أحد دلائل ذلك انتخابه في لجنة من ثمانية عشر نائبًا مكلفة بكتابة دستور الجمهورية الجديدة. من قد يكون أفضل منه تأهيلًا للعمل في تلك اللجنة، وهو من أنجز عملًا مميزًا في مقارنة الحكومات، وكان خبيرًا رياديًّا في شئون أكثر الجمهوريات المعاصرة الناجحة شهرة على مستوى العالم؛ الولايات المتحدة؟ فأرسطو Aristotle وأفلاطون Plato ومونتسكيو وواضعو الوثيقة الفدرالية وتوكفيل هم أصحاب العقول التي فكرت تفكيرًا فعالًا في تنظيم الحكومات ومبادئ الحكم. إنه لمن دواعي الأسف الشديد أنهم لم يكونوا أحياءً ليعملوا مع توكفيل في هذه اللجنة، مع أنهم — هم أيضًا — كانوا بالتأكيد سيشعرون في النهاية أنهم عديمو الفائدة كما شعر هو.

كتب توكفيل في «ذكريات» يقول: «أما عني، فلم أشعر أبدًا بمثل تلك التعاسة وأنا أعمل في أي لجنة أخرى»؛ فالقضايا العظيمة لم تُناقَش، والموضوعات الرئيسية لم تُعرَض على اللجنة، وكان الأعضاء يضعون حلولًا شديدة السطحية لأهم المشكلات. ولم يكن الدور الذي قام به ألكسي دو

توكفيل — صاحب أبرع عقل في مجال النظرية السياسية الأوروبية على مدار أكثر من قرن — محوريًّا على الإطلاق.

عندما تحدث توكفيل عن عمله في اللجنة التي شُكلت لوضع الدستور قال إنه من سوء الحظ أن اللجنة انعقدت في أواخر مايو/أيار من عام ١٨٤٨؛ لأن القتال الدائر في شوارع باريس لم يكن قد خمد نهائيًّا، بل إنه اشتعل مرة أخرى بقوة أكبر في شهر يونيه/حزيران. فكان أعضاء اللجنة يجتمعون ورائحة البارود تسد أنوفهم، وشيء من الخوف لا يزال في قلوبهم. يعلق توكفيل قائلًا: «يجب الاعتراف بأن الذي قام بالدور الأكثر فاعلية في حرمان اللجنة من حرية التفكير هو الخوف من الأحداث الخارجية وحالة الترقب السائدة في ذلك الوقت.» لو كانت اللجنة قد انعقدت بعد انتهاء الثورة في يونيه/حزيران، لساد جوٌّ آخر؛ وكان من الأرجح أنها ستقدم وثيقة أفضل. كتب توكفيل بعد ما يقرب من عام يقول إن «الجميع أرادوا أن يتخلصوا من عبء إعداد الدستور [الجديد]، فلجأ البعض إلى الاشتراكية ولجأ البعض الآخر إلى الملكية.»

لكن كيف حدث ذلك؟ أقرب إجابة تُرجع ذلك — كالعادة — إلى طبيعة السياسة وإلى حقيقة أن كل بني آدم خطاء. ففي لجنة وضع الدستور وجد توكفيل نفسه واقعًا في أسر الأعمال السياسية المعتادة؛ إذ عليه أن يتوصل إلى حلول وسط عند الضرورة، وأن يلجأ إلى المساومة عندما تكون هي الحل المنطقي، وأن يحاول أن يشق طريقه بين تفاهة باقي أعضاء اللجنة ومصالحهم الخاصة. أشار توكفيل إلى أنه «بالنظر إلى اللجنة ككل كان من السهل أن نرى أنه لا يمكن أن نتوقع شيئًا شديد التميز منها»، وأضاف «وهذا لا يشبه حال الرجال الذين صاغوا الدستور الأمريكي منذ ستين عامًا عندما كان واشنطن Washington في السلطة؛ فكانوا شديدي الثقة من أهدافهم وواسعي المعرفة بأفضل طرق تحقيقها.»

كانت أول قضية واجهت اللجنة؛ أيهما أفضل تكوين مجلسين للبرلمان أم مجلس واحد في الجمهورية الفرنسية الجديدة. ولأن توكفيل كان يضع نموذج الولايات المتحدة أمام عينيه، فقد رأى أن تكوين مجلسين هو الخيار

الأفضل؛ لأنه سيتيح فرصة أكبر للتحقيق في الأمور، وللوصول إلى التوازن الطبيعي. أوضح ذلك مبينًا أن وجود ثلاثة كيانات حكومية — مجلسي تشريع وهيئة تنفيذية — سيخفف كثيرًا من الصراع الطبيعي الذي يمكن أن ينشأ بين مجلس تشريعي واحد وهيئة تنفيذية رئيسية، اللذين من المرجح أن يتنافسا في تعاملهما مع القضايا المختلفة. فشعر أنه «لا يوجد شيء مؤكد سوى أنهما سيشعلان حربًا ويدمران بها الجمهورية»، كما حدث بالفعل آخر الأمر. لكن بسبب أن الكثير من أعضاء اللجنة كانوا معتادين بالفعل على نظام الجمعيات التشريعية القائم على مجلس واحد، وبسبب الشعور السائد بأن الرأي العام كان ضد تغيير النظام؛ وجد توكفيل نفسه مع الأقلية المؤيدة لذلك، التي بلغت ثلاثة أعضاء في مقابل خمسة عشر عضوًا.

أما فيما يتعلق بكيفية انتخاب رئيس الجمهورية الجديدة — سواءً باستفتاء شعبي أو بانتخابات تقام في المجلس التشريعي — فكان توكفيل يرى أنه «يجب ألا يقوم المواطنون بانتخاب الرئيس مباشرة، وإنما تُوكَل هذه المهمة إلى نواب ينتخبهم الشعب». وقال إنه استقى أفكاره حول هذه القضية «من دستور الولايات المتحدة [وهيئته الانتخابية]» لكنه أضاف: «لا أعتقد أن أحدًا كان سيلاحظ — ما لم أذكر — أن اللجنة لم تكن مؤهلة بما يكفي للقيام بالدور العظيم الموكل إليها.» في هذه المسألة أيضًا أخفق توكفيل.

لكنه أصاب في قوله بعدم أحقية الرئيس في إعادة الانتخاب، وهو أهم قرار مصيري اتخذته اللجنة كما سنرى فيما بعد. غير أن توكفيل اعترف بخطئه فيما يتعلق باللجنة، فقال: «فور أن تقرر أن المواطنين هم من سيختارون الرئيس بأنفسهم أصبح الداء بلا دواء، وأي محاولة طائشة لتقييد الناس عند قيامهم بالاختيار لن تؤدي إلا إلى زيادة العلة.» وسرعان ما سيقدم لنا التاريخ دليلًا على صدق هذه الملاحظة بعينها. قال توكفيل: «إن التصويت على هذا الموضوع والتأثير الكبير الذي قمت به على النتيجة هو أكثر ما يزعجني من ذكريات تلك المدة.»

وافق توكفيل على ما قامت به اللجنة من ترتيبات تخص القضاة في ظل الجمهورية الجديدة، فهي تُبقي على مبدأ احتفاظ القضاة بحق

حمايتهم من التعرض للفصل. وأُنشئت محكمة استئناف ومحكمة للنظر في الجرائم السياسية. كان بومون اللاعب الرئيسي في صياغة الكثير من المواد المتعلقة بذلك، لذا اعتقد توكفيل أن ما قامت به اللجنة في مسألة القضاة من الأرجح أن يكون «الجزء الوحيد الذي سيبقى من دستور عام ١٨٤٨». حاول توكفيل أن ينشئ نظامًا مرنًا يجعل إجراء التغييرات المعقولة ممكنًا في المستقبل، وذلك في كل النواحي التي عمل فيها في اللجنة. وكتب تشبيهًا مؤثرًا جدًّا يقول فيه: «ظننت أننا يجب أن نعامل الشعب الفرنسي كما نعامل المجانين الذين نحذر من تقييدهم خشية أن يصيبهم القيد بالخَنق.» ومع كل هذه النجاحات الصغيرة كان معظم عمل اللجنة يُنظر إليه على أنه تجريبي حتى وقت القيام به؛ فكان الأعضاء ينوون أن يتمّونه ويصقلونه في وقت لاحق. غير أن هذا لم يحدث أبدًا، فكتب توكفيل أن «الرسم التخطيطي أصبح هو الصورة». لكن التطبيق الفعلي ترك النظرية هراءً مرة أخرى.

في الوقت الذي بدأت فيه البلوريتاريا تظهر في باريس كقوة في السياسة الفرنسية عاد الأمير لوي نابليون Louis-Napoléon — ابن أخي نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte — من المنفى في لندن، ليخوض الانتخابات وحصل على مقعد في مجلس النواب. في ذلك الوقت كان المحافظون يشعرون بالخوف من المتطرفين والاشتراكيين الذين دعوا إلى حرب الطبقات، فبحثوا عن كل الطرق التي تمكنهم من كبح جماح الفوضى. وفي إطار وقوع سلسلة من الأحداث المفاجئة ونظرًا لما يتمتع به لوي نابليون من شخصية فريدة بدا للجميع أنه هو الأداة المناسبة لحفظ النظام؛ ولا سيما أنه ينتمي إلى أسرة بونابرت؛ وهو اسم ظل يحمل الكثير من السحر. كتب توكفيل يقول: «عندما سمعت عن انتخاب لوي نابليون لم أتخيل أبدًا أنني سأصبح وزيره بعد عام بالضبط.»

شغل لوي نابليون منصب الرئاسة بعد اللواء لوي أوجين كافاياك Louis-Eugène Cavaignac، الذي قضى مدة قصيرة في هذا المنصب، وكان راسخ الإيمان بالمبادئ الجمهورية، فلم يتخذ أي إجراءات لوضع حد لأعمال الشغب التي اندلعت في شوارع باريس. كان توكفيل يؤيد كافاياك؛ ومع

ذلك عندما حان الوقت ليقوم لوي نابليون بتشكيل مجلس الوزراء، قرر ألا يأخذ تلك النقطة ضد توكفيل، فكان لوي نابليون رجلًا بارعًا على نحو غريب في اختيار من يُكن لهم الضغائن.

كان توكفيل يرى أنه مناسب للترشيح في منصب وزاري ليس من أجل حياته السياسية، وإنما كما قال هو نفسه: «بسبب الاحترام الشخصي الكبير الذي حظيت به خارج دائرة السياسة»، وكان يعني بذلك المكانة التي حظي بها بصفته مؤلف «الديمقراطية في أمريكا»، وعضو أكاديمية اللغة الفرنسية (التي أُنتخب فيها عام ١٨٤١)، ورجلًا اشتهر بأنه يعلو على السياسات التقليدية للأحزاب. كانت مكانته كما كتب «مكانة محترمة، لكن يصعب الاحتفاظ بها بين الأحزاب؛ إذ إنها تصبح محفوفة بمخاطر جمّة إذا ما لجأت هذه الأحزاب إلى العنف وأصبحت بالتالي معادية لمن لا ينتمون إليها».

كان توكفيل يميل إلى التصويت مع الأغلبية في مجلس النواب ضد الاشتراكيين والمتطرفين؛ فكان هو أيضًا يرى أن النظام لا بد منه لاستمرار المسيرة السياسية الحكيمة. كان لا يزال يأمل في أن يقدم ما بوسعه ليساعد في تحقيق الاستقرار في الحياة السياسية الفرنسية على نحو يسمح بنمو الحرية نموًّا مطردًا، لا تعوقه الجلبة المستمرة التي تصدرها زلازل التغيرات الثورية.

ذكر توكفيل في «ذكريات» أنه عندما بدأ اسمه يذيع بين الناس بصفته مرشحًا للوزارة أخذ يسأل نفسه: «هل يُفترض بي أن أرغب في أن أصبح وزيرًا؟ ... أعتقد أنني أستطيع أن أقول بملء فمي إنني لم أتوهم وجود صعوبات جمّة في هذه الوظيفة، ورأيت المستقبل بوضوح نادرًا ما يتوفر للمرء إلا عندما ينظر إلى الماضي.» كان الوضع في مجلس النواب كما هو — وبالأحرى غير مستقر — فنفس القوى القديمة تتصارع فيما بينها. وكان توكفيل من بين الأقلية التي ترغب في تحقيق النظام دون أن تكون الدكتاتورية هي المقابل، وترغب في الاحتفاظ بالنظام الجمهوري، مع أن تلك الرغبة ترجع في الأساس إلى أمله في زيادة رقعة الحرية في كنفه.

كان لوي نابليون لغزًا حقيقيًّا وحرباء لا لون لها. قال توكفيل إنه لم يعرفه حق المعرفة، لكنه كان متأكدًا تمامًا من رغبته في حكم فرنسا. لم يكن توكفيل وحلفاؤه السياسيون على استعداد للعودة إلى الملكية، خاصة تحت راية ملك ماضيه ملبد بالغيوم مثل لوي نابليون، رجل اتخذ الكثير من العشيقات، وله تاريخ من المعاملات المشبوهة، وله أصدقاء وصفهم توكفيل بأنهم «مخادعون ومجازفون وخانعون». أدرك توكفيل أن التوافق سيكون عنصرًا غائبًا بين الرئيس والوزارة التي شكلها؛ «فاهتماماته دائمًا ما تدور في نطاق غير نطاق اهتماماتنا؛ فآراؤنا لم تكن مختلفة وحسب وإنما أيضًا متناقضة بالطبع. فنحن نريد أن نهب الجمهورية الحياة، وهو يريد أن يرثها. لم يكن بوسعنا أن نكون له أكثر من وزراء، في حين أنه أرادنا أن نشاركه جرائمه».

رأى توكفيل أن أكثر منصب وزاري يلائمه هو منصب وزير التعليم؛ ليس فقط لأنه تلقى تعليمًا مميزًا، وإنما أيضًا لأنه حارب في مجلس النواب ليمنح التعليم المحلي استقلاله، ووقف في وجه مركزية المناهج التي تفرضها الجامعات؛ ولذا فهو يعرف الكثير عن مختلف نظم المدارس في فرنسا. غير أن هذا المنصب لم يُمنح له، وعُرض عليه منصب وزير الزراعة بدلًا منه، فرفضه.

ومن بين أوراق اللعب المختلفة التي تمثل الضروريات والتفاهات ومسرحيات السلطة، والتي وُزّعت على المرشحين للمناصب الوزارية؛ سحب توكفيل ورقة وزارة الخارجية. كان لهذا المنصب مكانة كبيرة، غير أنه فقد الكثير من بريقه لأن مكانة فرنسا بين القوى العظمى في العالم ضاعت بعد العدد الكبير من الثورات والثورات المضادة التي شهدتها. رأى توكفيل أن المشكلة التي تواجه أي وزير خارجية هي أنه يجب عليه ألا يتسبب في تردي مكانة بلده بالوقوع في شباك لم يلحظها، أو اتخاذ إجراءات متهورة لم تستعد لها البلاد، أو نقض العهود التي يتعين على الدول العظيمة الوفاء بها لضمان احتفاظها ولو بطيف من الجلال. اتسمت المدة القصيرة التي قضاها توكفيل في وزارة الخارجية بالميل إلى العدوان أكثر من الوفاق، وببقاء عينه على ميزان القوة في أوروبا.

كانت تلك المدة قصيرة حقًّا. استمرت نحو خمسة أشهر من ٣ يونيه/حزيران وحتى ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٨٤٩. رسم دومييه Daumier في ذلك الوقت كاريكاتيرًا معبرًا لتوكفيل تحت عنوان: «بعد أن حل توكفيل محل السيد دروين دو لويز M. Drouyn de Lhuys هل ستساعده النظارة التي يمسكها بيديه على أن يجد طريقه بوضوح في عالم السياسة الخارجية؟» وفي الصورة التي رسمها دومييه لم يعد توكفيل الشاب المتصف بالكمال الذي يظهر في الصورة التي رسمها تيودور كاسيريو Théodore Chassériau المعلقة في المتحف الوطني في فرساي ويعاد نسخها مرارًا وتكرارًا. ففي صورة دومييه تبدو على وجه توكفيل أمارات الذكاء، إن لم يكن الخبث؛ ويتضح ذلك أكثر في فمه؛ بشفته العليا الرفيعة وابتسامته الملتوية شيئًا ما. وعيناه تبعد إحداهما عن الأخرى أكثر مما في الحقيقية؛ ووجهه تملؤه التجاعيد، وجانبه الأيسر أكثر إظلامًا من الأيمن. اختفى الشاب المشرق وحل محله رجل السياسة الماكر والخبير بالحياة.

كانت المدة التي قضاها توكفيل في وزارة الخارجية أكثر أهمية له مما كانت لفرنسا؛ فمنحته إحساسًا قويًّا بالتحكم في الذات. وفور أن احتل منصبه بدأ تنفيذ خطة منظمة لاستبدال سفراء فرنسا في الأماكن المهمة (لندن وسان بطرسبرج وفيينا) الذين لم يُكن لهم احترامًا كبيرًا، ونجح — بالرغم من توقع اعتراض لوي نابليون — في أن يعين بومون سفيرًا في فيينا، مع أن بومون كان يعارض لوي نابليون بشدة. وعيّن مخبرين في البلاد المهمة ليزودوه بالمعلومات التي عادة ما تكون غير متاحة للسفراء الرسميين. وقلد الروائي الشاب جوزيف آرثر دو جوبينو Joseph-Arthur de Gobineau منصب السكرتير الخاص به، واضعًا قدمه على بداية حياة دبلوماسية طويلة.

أظهرت المشاكل القليلة التي واجهها توكفيل — في سويسرا والشرق الأوسط والجزائر والاتحاد الألماني، وفوق كل هذا في روما، حيث كانت القوات الفرنسية قد أُرسلت بالفعل لتضمن عودة البابا بيوس التاسع Pope Pius IX إلى البلد — أنه يستطيع أن يتعامل مع الأمور بمهارة وثقة، واضعًا

مصلحة فرنسا دائمًا قبل كل شيء، وناظرًا إلى العالم كما ينبغي بنظرة واسعة وموضوعية.

خطب توكفيل في سفرائه بعد توليه المنصب مباشرة قائلًا:

> لست دبلوماسيًّا، وسأقول لكم القول الفصل من البداية ولن أغيّره بعد ذلك. أعرف أن فرنسا ليست في وضع يُمَّكنها من سيادة أوروبا ويجعلها تأمل في السيطرة على الأراضي البعيدة، لذا فلن نحاول أن نحقق ذلك. ويمكنكم أن تثقوا أننا سنترك لكم الحرية الكاملة في التصرف في الأمور التي تخرج عن دائرة اهتمامنا، فلن نشغل أنفسنا بأن نبدو مسيطرين، وسندّعي أننا متفقون. أما عن البلدان المجاورة والمسائل التي تؤثر عليها تأثيرًا مباشرًا، فإنه لن يكون لفرنسا الحق في أن تتدخل تدخلًا كبيرًا وحسب، وإنما ستكون لها اليد العليا في تلك الشئون. لن نتدخل فيما يحدث في أقصى أطراف أوروبا، سواءً كان في الإمارات الأوروبية أو بولندا أو المجر. لكنني أنبهكم إلى أنه ليس لكم أن تتخذوا أي إجراءات في البلجيك أو سويسرا أو بيدمونت بدون أخذ مشورتنا وموافقتنا. فلن نتوقف هناك عند حد المفاوضات، وإنما سنخوض الحروب إذا ما احتجنا إلى ذلك، مخاطرين بكل شيء للحفاظ على مكانتنا. وأنا لا أحاول أن أخفي حقيقة أن خوض حرب خارجية سيكون صعبًا وخطيرًا جدًّا علينا في هذا الوقت؛ إذ إن البنية الاجتماعية لبلدنا قد تنهار تحت وطأة تلك الحرب، مُضيعة ثرواتنا وحياتنا. ومع هذا عليكم أن تدركوا أنه في الحالة التي ذكرتها للتو سنخوض الحرب، أو على الأقل يمكنكم أن تكونوا متأكدين من أنني سأقدم استقالتي إذا لم يكن الرئيس والمجلس التشريعي على استعداد لتأييدي في هذا الصدد.

اتبع توكفيل تلك السياسة بحذافيرها. ذكر أنه كتب إلى سفرائه في سان بطرسبرج وفيينا بشأن الافتراضات المعقدة حول مصير الأتراك يقول:

«تعاملوا مع هذه القضية بدماثة، واحرصوا على ألا تُجندوا احترام خصومنا لذاتهم ضدنا، وتجنبوا الدخول مع السفراء الإنجليز في علاقات حميمة جدًّا أو علاقات قد تبدو حميمة؛ فحكومتهم موضع كراهية البلاط الذي تنتمون إليه، وفي نفس الوقت حافظوا على علاقات طيبة مع هؤلاء السفراء. وحتى تتمكنوا من تحقيق ذلك تصرفوا بأسلوب ودود ولا تحاولوا أن تخيفوهم. واشرحوا لهم موقفنا الحقيقي؛ فبينوا أننا لا نريد الحرب، بل نكرهها، لكننا لا نستطيع أن نتصرف على نحو شائن.» يتضح من هذا الخطاب وغيره من الرسائل الدبلوماسية أن توكفيل كان يتمتع بالدهاء الذي تتسم به الحياة الدبلوماسية.

لم يحقق توكفيل انتصارات مدوية خلال الأشهر الخمسة التي قضاها في منصبه، لكن لم يحدث أبدًا أن ساءت الأمور على نحو خطير. كان تفكيره دائمًا معقدًا، ولم يتخل أبدًا عن رباطة جأشه. وحافظ على الكرة في الملعب، واضعًا نصب عينيه أنه يمثل بلدًا مزقته الصراعات الداخلية، وأنها «ورطة مفجعة أن يصبح وزيرًا للخارجية في بلد كهذا في وقت كهذا».

عندما كتب توكفيل في «ذكريات» عن الأيام التي قضاها في وزارة الخارجية أشار إلى أنه بالرغم من قلقه في البداية من أن تُثبط همتَه المسئولياتُ العظيمة التي يفرضها هذا المنصب، فقد وجد أنها حفزته كثيرًا في الواقع. وأتاحت له الفرصة أيضًا ليتأمل ذاته تأملات من أروع ما يكون. فقال: «شعرت بالارتباك والقلق وكانت همتي تخور عندما أواجه المسئوليات الصغيرة، لكنني شعرت بسكون وهدوء غريبين عندما واجهتني مسئوليات عظيمة.» إن الفشل الذي كان دائمًا ما يبدو له مرعبًا تلاشى فور أن تولى منصبًا رفيعًا، فقال: «إن مشهد سقوطي من موقعي الرفيع في أحد أعظم مسارح العالم سقطةً تُحطم عظامي لم يزعجني على الإطلاق، وهذا الأمر جعلني أدرك أن شخصيتي فيها من الكبرياء أكثر مما فيها من الجبن.» إن التعامل مع الصعوبات يوميًّا جعله متمرسًا في مواجهة الأزمات وجعل الهدوء يغلب على طبعه. اكتشف توكفيل أن السلطة لم تزد من غطرسته، بل جعلته أكثر لطفًا؛ فقال: «إن الصعوبات التي واجهتها عندما حاولت

أن أكون دمثًا وودودًا وأنا فوق المنافسة أقل بكثير من تلك التي واجهتها عندما كنت واحدًا من العامة.»

تعلم توكفيل في هذا المنصب الكثير عن الغرور. فلاحظ أن معظم الذين لم يهتموا به فيما سبق بدءوا يبحثون عنه، مضفيين الكثير من الأهمية إلى كلماته، لأنهم لم يفرقوا بين الرجل ومنصبه. وبعد أن تخلى توكفيل عن غطرسته السابقة اكتشف أن أفضل ما يمكن أن يخاطبه في الرجال هو غرورهم. فبإرضاء غرور ذوي السلطة — ومن بينهم تيير الذي يتمتع بنفوذ هائل وغيره من الذين «غمرهم بالاحترام» — استطاع أن يتجنب اتباع نصائحهم، فكتب يقول: «وجدت أنك عندما تتفاوض مع غرور الرجال تخرج بأفضل الصفقات، إذ إن الإنسان عادة ما يحصل على أفضل المزايا في مقابل أتفه الأشياء.» وما يسري على الرجال يسري على الأمم: «فالأمم تشبه الرجال في أنها تفضل الإطراء عليها على الخدمات الفعلية التي تُقدم لها.»

مع أن كتاب توكفيل قُوبل بالترحاب في كل مكان بوصفه كتابًا من الطراز الأول في الفلسفة السياسية، ومع أنه كان رجلًا يتمتع بسلوك أرستقراطي وطبع متحضر؛ فقد ظل الشبح الكبير يعذبه — شبح عدم ثقته بنفسه — طوال الأشهر الخمسة التي قضاها وزيرًا للخارجية الفرنسية. قال ملخصًا ما عنيه له هذا المنصب: «وجدت أنني لا أفتقر إلى المؤهلات التي تمكنني من القيام بتلك المهمة كما خشيت، فأمدني هذا الاكتشاف بشجاعة لم تغمرني في هذه المدة وحسب وإنما أيضًا فيما تبقى من حياتي. إذا سألني سائل عما استفدته من تلك المدة القصيرة التي قضيتها في منصبي والتي حفها التوتر والإحباط، ولم يتوفر لي الوقت لأتم ما بدأته؛ فسأجيب بأنني خرجت بفائدة واحدة عظيمة، ربما تكون أعظم فائدة يمكن لهذا العالم أن يمنحها، ألا وهي: الثقة في الذات.»

ومن تصاريف القدر أن انتهت الحياة السياسية النشطة لتوكفيل في الوقت الذي وصل فيه لذروة نشاطه كسياسي ورجل دولة، والفضل في هذا يرجع إلى لوي نابليون. كانت شخصية لوي الأغرب على الإطلاق بين

كل الشخصيات السياسية، فكان أول من دعم توكفيل في مجال السياسة وكان من أنهى عمله فيها. وصفه توكفيل ذات مرة قائلًا إنه «قائد ضعيف ومتواضع الموهبة». كان لوي نابليون قصيرًا ذا شارب طويل، وعينين وصفهما الكثيرون بأنهما خاويتان، مولع بارتداء البناطيل العسكرية المقلمة، وقيل عنه إن حديثه هو الأكثر تفاهة ولذا الأكثر إثارة للملل. أسر لوي نابليون هذا — وهو أسهل من يمكنك رسم كاريكاتير لهم — خيال الفرنسيين فور عودته من المنفى. (بمحاولة انقلاب فاشلة قادها عام ١٨٣٦ نُفي إلى أمريكا). وبعد أن فاز بمقعد في الجمعية التشريعية فاز في التصويت على رئاسة الجمهورية بفارق ٤ ملايين صوت من إجمالي ٧ ملايين.

أحب الفرنسيون لوي نابليون لأنهم كانوا متعطشين لعودة الاستقرار، مؤملين في المجد الذي كان آخر عهدهم به عندما تولى عمه عرش الإمبراطورية. ومع أن خُطب لوي كانت مملة فقد كان ماهرًا في زيادة شعبيته وفي المثابرة على ذلك؛ فكان يظهر في كل افتتاح جديد لخطوط السكك الحديدية والاحتفالات الرسمية في الكنيسة والاحتفالات الرسمية المحلية؛ ومع الوقت بدأ أتباعه يزيدون أكثر فأكثر.

كان توكفيل يشك في نوايا لوي نابليون منذ البداية، وعندما طلب منه ذاك الرئيس الجديد أن ينضم إلى مجلس الوزراء أجاب بأنه سيطيعه بصفته رئيسًا للجمهورية ولن يطيعه أبدًا «في الإطاحة بالجمهورية»، وأضاف: «لكنني سأكافح بسرور لكي أكفل لك مكانة عظيمة فيها.» وامتدادًا لنمط التفكير هذا أخذ توكفيل على نفسه عهدًا بأن يتصرف في كل يوم يقضيه وزيرًا كما لو كان سيفقد المنصب في اليوم التالي، أو بعبارة أخرى: «لن أُخضِع حاجتي لأن أكون نفسي إلى حاجتي لأن أكون وزيرًا.» ومن الواضح أن توكفيل نجح في أن يحافظ على ذاته في الإطار الذي يمكن فيه للسياسي أن يحافظ عليها.

من بين كل الوزراء الذين عملوا في أول مجلس وزراء تُكوّنه حكومة لوي نابليون كان توكفيل — وهو «من نال نصيب الأسد من حظوته» — يظن أنه «أكثر من يراه عن قرب وأفضل من يستطيع أن يحكم عليه». إن كان

رأي لوي نابليون في توكفيل جيدًا فلا يعني ذلك أن رجلًا جُبِل على النقد كتوكفيل سيكون مجبرًا على تكوين رأي جيد فيه. كانت الانطباعات الأولى التي كونها توكفيل عن لوي نابليون متباينة؛ كان توكفيل يجد أنه يتحلى في حياته الشخصية بـ«طبع هادئ عطوف، وشخصية إنسانية، وروح لطيفة وحنونة لكن بلا رهافة، وثقة عظيمة في علاقاته بالناس، وبساطة تامة، وشيء من التواضع المختلط بفخرٍ عظيمٍ بأجداده، وقدرة جيدة على تذكر المعروف أكثر من الإساءة».

لكن على الجانب الآخر كان لوي نابليون يتحدث «قليلًا وبلا مهارة؛ فلم يكن بارعًا في جعل الناس يتكلمون وفي التواصل معهم، ولم يكن ماهرًا في التعبير عن نفسه ... كانت قدرته كبيرة على الخداع، ولديه القدرة على أن يكون شجاعًا، لكنه أيضًا متردد في خططه»، كما أن ميله إلى «المتع والرفاهية المبتذلة تصاعد مع ازدياد الفرص التي أتاحتها له السلطة». كان عقله غير منظم، وقال عنه توكفيل إنه عقل «مشوش ومضطرب، فهو مليء بأفكار عظيمة أساء التعبير عنها»، بعضها مقتبس من نموذج عمه، وبعضها من النظريات الاشتراكية، والبعض الآخر من ذكرياته في إنجلترا، حيث عاش بعض الوقت. «كان يؤمن إيمانًا راسخًا بأنه أداة القدر والرجل المناسب»؛ فكان مقتنعًا بأنه شريك في التبجيل الذي تتمتع به أُسر الملوك المقدسة. لم يكن يميل إلى الحرية و«كانت السمة الأساسية التي تحكم رأيه فيما يتعلق بالشئون السياسية هي كراهية الجمعيات التشريعية واحتقارها.»

كان لوي نابليون مشوشًا، خاصة فيما يتعلق بالشئون الخارجية، مما «يكشف عن مدى عدم أهليته للقيام بالدور الذي ألقاه القدر على كاهله»، كما كتب توكفيل. لم تكن لديه أية معرفة بالحقائق، إذ إن كل ما يعرفه مُستقى مما يخبره به الآخرون. وعندما كان توكفيل يعطيه بعض الإرشادات بخصوص ما يجب فعله كان نادرًا ما يجادله، لكنه كان يرفض أن يتبعها. وبعد حوار دار بينه وبين توكفيل في ١٥ مايو/أيار عام ١٨٥١ أشار توكفيل إلى أن لوي نابليون تخلى عن فكرة الحفاظ على العلاقات الطيبة مع المجلس التشريعي، وأنه «لا يستبعد فكرة انقلاب». وأخيرًا كان

لوي نابليون يُبقي على صحبة سيئة، حتى عندما لم يكن في حاجة إلى ذلك. ومع كل هذا فإن لوي كان الرجل المناسب لذاك الوقت: «لو كان لوي نابليون حكيمًا أو عبقريًّا — إن كنتم تفضلون هذا التعبير — لم يكن ليصبح رئيسًا للجمهورية أبدًا»، وهذه هي طريقة توكفيل في قول: «كيفما تكونوا يُولى عليكم.»

مهما كان القصور الفكري الذي أبداه لوي نابليون فيما يتعلق بنفسه وبتحقيق أهدافه، فإن أفعاله نمّت بالكاد عن الذكاء. ففي أكتوبر/تشرين الأول ١٨٤٩ حل مجلس الوزراء واختار مجلسًا جديدًا دون أن يعين رئيسًا للوزراء، مما أشار إلى أنه كان سيشغل هذا المنصب بنفسه. وحرص على أن يتودد إلى الشعب في كل من باريس والأقاليم بواسطة المشاركة في الاحتفالات. وكسب الكنيسة والكاثوليك المتحمسين إلى صفه بإرسال قوات لحماية البابا في روما. وأعلن أنه ضد الفوضى التي قد يسببها الاشتراكيون المتمردون في المجلس التشريعي وفي الشارع. بدأ مشواره في الحياة السياسية الفرنسية باسم السيد بونابارت وسرعان ما أصبح معروفًا باسم لوي نابليون، ثم أصبح يُشار إليه بالـ«ملك».

كان لوي نابليون يزيد من سلطاته باستمرار، وكان الجيش هو القطاع الوحيد الذي لم يكن مستعدًا لأن يسلمه سلطته، فأعد لذلك بأن استبدل بالقائد العسكري اللواء شانجارنييه General Changarnier — وهو مدافع وفيٌّ عن الجمهورية — رجالًا أقل كفاءة عملوا في الجزائر، بعد أن أعلى من شأنهم. كانت الشرطة تحت سيطرته، وما أجبره على التصرف بهذا الشكل هو أن فترة رئاسته كانت قد انتهت في وقت لم يكن يرغب فيه في العودة إلى الحياة الخاصة.

كان على الجمعية التشريعية إما أن تغير الدستور بحيث يسمح بإعادة انتخاب الرئيس أو أن تعارض لوي نابليون صراحة. فضّلت الجمعية الاختيار الثاني، الذي اتضح أنه الاختيار الخاطئ. ومع أن توكفيل يستحق اللوم لأنه أصر فيما سبق على ألا يسمح الدستور بأكثر من فترة رئاسة واحدة، فقد تنبأ بأن المشاكل ستحوم على المستقبل السياسي للوي نابليون.

كتب في «ذكريات» يقول: «رأيت منذ البداية أننا يجب أن نوفر له حياة مهنية مستقبلية «عادية» حتى نمنعه من التطلع إلى حياة مهنية غير عادية، إذ لا فائدة من أن نحلم بأن يصبح رئيسًا لفترة واحدة فحسب.»

في صباح ٢ ديسمبر/كانون الأول عام ١٨٥١ بدأ لوي نابليون الانقلاب. فظهرت الملصقات في أنحاء باريس تعلن حل الجمعية التشريعية وإقامة حكومة جديدة. أيقظت الشرطة تيير وغيره من النواب الذين كانوا يحكمون فرنسا من وراء الستار واقتادتهم إلى السجن. واعتقل الجنود المسلحون كافاياك وشانجارنييه وغيرهما من اللواءات المخلصين للجمهورية. وانطلق الجنود في الشوارع يصيحون «يحيا الإمبراطور!» و«إلى تويلوري!» (تويلوري هو المقر الذي اعتاد ملوك فرنسا الإقامة فيه في باريس).

اجتمع عدد قليل من النواب — ٢٣٠ نائبًا تقريبًا من بينهم توكفيل — في الجمعية التشريعية ليعلنوا أن كل ما فعله لوي نابليون غير قانوني، لكنهم وجدوا الطريق مسدودًا أمامهم فذهبوا إلى عمدة الدائرة العاشرة، حيث أعلنوا رسميًّا أن الانقلاب مخالف للقانون، لكنهم كانوا كمن يحرث في البحر. كان توكفيل مريضًا في ذاك الوقت، فاستلقى على معطف في زاوية وعيناه مغمضتان، والتاريخ الأسود يغمره. وصل الجيش بقيادة اللواء إلي فريدريك فوريه Élie-Frédéric Forey، وسيق النواب المعارضون إلى ثكنات رصيف أورساي (وزارة الخارجية) Quai d'Orsay، وكان توكفيل في مجموعة من خمسين نائبًا نُقِلت إلى فنسن Vincennes لاحقًا، وظلت هناك حتى ٤ ديسمبر/كانون الأول. خاطر توكفيل بكتابة خطاب إلى صحيفة تايمز اللندنية *Times*، راويًا بالتفصيل الدقيق كيف أُسيئ استخدام الحرية في فرنسا، ودعا إنجلترا إلى أن تصدر الحكم الصائب على الطبيعة القمعية لهذا الانقلاب «بصفتها أعظم قضاة البشرية في قضايا الحرية»، غير أن كل هذه الجهود لم تؤت ثمارها.

كان لهذه الأحداث أثر شخصي مهم جدًّا، إذ إن انقلاب لوي نابليون كان يعني أن الحياة السياسية النشطة لتوكفيل وصلت إلى نهايتها. ألمح الإمبراطور الجديد لاحقًا إلى أنه سيرحب بخدمات توكفيل لحكومته إن كان

يرغب في العودة، غير أن توكفيل لم يستطع أبدًا أن يحمل نفسه على العمل مع رجل يعتبره غاصبًا للعرش ومستبدًا. قاتل توكفيل بكل قوته من أجل الحرية السياسية التي آمن بها إيمانًا راسخًا، وأوقف لها ثلاثة عشر عامًا من حياته دون أن يجني سوى تعليم الذات. سوف يقضي ما تبقى من أيامه في نفس المعركة، لكنه سيقودها من مكتباته وسجلاته ومكتبه.

الفصل العاشر

في عام ١٨٥٠ سافر توكفيل مع زوجته إلى مدينة سورينتو Sorrento بجوها الأكثر اعتدالًا من جو فرنسا، بسبب اعتلال صحته اعتلالًا خطيرًا بعد إصابته بمرض رئوي جعله يسعل دمًا. هناك شعر أن أيامه كشخصية سياسية انتهت، بل ربما شعر أن حياته نفسها شارفت على الانتهاء، فكتب في شهر سبتمبر/أيلول إلى صديقه القديم لوي دو كيرجولي يقول: «يبدو لي أن قيمتي الحقيقية تكمن في أعمالي الفكرية في المقام الأول، فقيمتي في مجال الفكر أكبر من قيمتي في مجال الفعل، وإذا تركت خلفي شيئًا في هذا العالم فسيكون تأثير ما كتبت، لا ذكرى ما فعلت. فالعشر سنوات الأخيرة التي كانت عقيمة بالنسبة لي في نواحي كثيرة منحتني — بالرغم من هذا — أصدق فهم لأحوال البشر، وأصدق وعي بالتفاصيل يتسم بدرجة أكبر من العملية.» بعبارة أخرى فإن الأحلام التي علّقها توكفيل على تراثه كانت ستستند على الأرجح على أنشطته الفكرية لا السياسية.

والكاتب الحقيقي — كان توكفيل كاتبًا حقيقيًّا بالتأكيد — لا يدع أي شيء يمر عليه مرور الكرام، حتى ولو كان هذا الشيء أكثر من عَقْد من المناظرات الفارغة والنقاشات السياسية التافهة التي تقام علانية دون أن يكون هناك هدف واضح من ورائها. فبعد انقلاب عام ١٨٥١ أصبحت الكتابة هي الخيار الوحيد المتبقي أمام توكفيل، لكن السؤال هو: ماذا يكتب؟ وكانت أول فكرة راودته هي كتابة عمل حول نابليون بونابرت. غير أن هذا لم يحدث، فهذا الكتاب يدخل تحت قائمة الكتب التي أطلق عليها

بلزاك Balzac اسم «السيجار الساحر»، وكان يقصد بها الكتب التي يحلم المؤلفون بكتابتها لكنهم لا يتمكنون أبدًا من ذلك، مثل رواية «الديسمبريون» *Decembrists* التي بدءها تولستوي ولم ينهها. سيكون رائعًا لو أن توكفيل كتب عن نابليون، لكن للأسف بقي الكتاب جزءًا من تلك المكتبة الصغيرة الغنية والفريدة التي تضم كتبًا عظيمة لم تُكتب.

من الأسباب التي جعلت توكفيل يفقد اهتمامه بتأليف كتاب عن نابليون هو أنه لم يكن مهتمًّا بصفة أساسية بالتراجم أو التاريخ المجردين، فالماضي لا يعنيه إلا بقدر ما يمس الحاضر والمستقبل، وهو الواقع بالتأكيد. فكتب يقول: «لا يثير اهتمام العامة واهتمامي الحقيقي بصفة أساسية إلا الأشياء التي تحدث في الحاضر.» «إن عظمة وتفرد المشهد الذي يقدمه لنا عالمنا المعاصر تستحوذ على الكثير جدًّا من اهتمامنا، حتى لا يسعنا أن نضفي الكثير من الأهمية على القضايا التاريخية المحيرة، التي لا تشبع إلا المجتمعات المثقفة والمرفهة.» الماضي مفيد لأنه يمثل طريقة لفهم الكيفية التي وصلنا بها إلى مكاننا الحالي. يبدو هذا الرأي نفعيًّا وسطحيًّا، لكننا نتساءل: أليس هذا التركيز على الحاضر هو ما جعل كتابات توكفيل مقروءة حتى يومنا هذا.

كان توكفيل يرى أن المجتمع الفرنسي في حالة من الثورة المستمرة؛ ثورة استمرت لأكثر من ستين عامًا حتى ذاك الوقت، ولا تلوح نهايتها في الأفق، ولا يمكن التنبؤ متى ستأتي تلك النهاية. قام توكفيل — البارع في صياغة الاستعارة — بتصوير نفسه والأمة الفرنسية معه بأنهما ضائعان في مركب في البحر، وسط عاصفة لا توجد علامة واحدة توحي بأنها ستهدأ. فكتب إلى صديقه يقول: «أجد نفسي بلا بوصلة ولا شراع ولا دفة في بحر لا أرى شواطئه، وعندما ينهكني العمل غير المثمر الذي أقوم به أستلقي في قاع المركب منتظرًا المستقبل.» وفي «ذكريات» وظف نفس الاستعارة فكتب: «سئمت من ظن الضباب المضلل ضفة، وكثيرًا ما تساءلت هل الأرض الصلبة التي سعينا خلفها كل هذا الوقت موجودة بالفعل، وهل قدرُنا أن نظل نجوب البحار إلى الأبد؟» ولفتة اليأس هذه مألوفة في أعمال توكفيل، ومع

هذا فإنه آخر الأمر لم يدع اليأس يتغلب عليه بصورة فعلية ونهائية، إن صح التعبير. كانت الكتابة هي وسيلته ليجد طريقه بعيدًا عن اليأس، فإذا استطاع أن يجد الموضوع المناسب ليكتب فيه حينها سيكون كل شيء على ما يرام.

كان السؤال لا يزال قائمًا: أي كتاب يكتب؟ فكما أوضح توكفيل للوي دو كيرجورلي لا يمكنه أن يأخذ على عاتقه إلا كتابة عمل يشجعه ويستخرج منه كل ما يمكنه أن يعطيه، «فأنا أقل الرجال في العالم قدرة على معاكسة مجرى فكري وذوقي والخروج بفائدة، فأنا أهوي تحت المستوى العادي بكثير عندما لا أجد متعة متقدة فيما أقوم به».

كان توكفيل يأمل في أن يجد موضوعًا لكتاب يُرضي المثقفين مثلما فعل كتاب «الديمقراطية في أمريكا»، ولا بد أن طعم النجاح اللذيذ الذي حققه هذا الكتاب لم يفارق فكره أبدًا. وأيًا كان ما سيكتبه فإنه سيعود إلى منهجه القديم القائم على «الحكم على الحقائق بدلًا من سردها»؛ فأصبح «السرد والحكم في نفس الوقت» يشكلان أسلوبه والسمة المميزة له. ولم يكن الأسلوب القصصي هو ما يبرع فيه، وإنما التحليل. إن كتابة الكتاب الذي حلم به تتطلب أسلوبًا مميزًا وسهلًا في نفس الوقت، فكتب في ملاحظة موجهة إلى نفسه «عليَّ أن أبذل جهدًا كبيرًا لأتجنب ... الأسلوب التجريدي قدر الإمكان؛ لكي أجعل مقصدي مفهومًا تمامًا، وأن أجعل قراءته ممتعة قبل كل شيء. عليَّ أن أبذل جهدًا متواصلًا لأصوغ الأفكار المجردة والعامة في كلمات تعطي صورة محددة ودقيقة ... فالمرء يكتب ليُمتع الناس لا ليحقق الكمال على مستوى اللغة.»

في النهاية جاء الكتاب الذي بدأ توكفيل في تأليفه — وهو «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» — كمحاولة ليس فقط لاكتشاف أسباب اندلاع الثورة الفرنسية وإنما أيضًا سبب اندلاعها بهذه الطريقة الدرامية في فرنسا، وسبب اندلاعها في نهاية القرن الثامن عشر. كتب في ملحوظة لنفسه عن الجزء الثاني الذي نوى كتابته عن الثورة — والذي لم يحي ليكمله — يقول: «كان هدفي هو أن أقف على أسباب موت نظام الحكم الأرستقراطي، مما

قادني بالطبع إلى التركيز على دراسة عيوبه، التي على أساسها حدث أن كتبت ما يشبه نقدًا ساخرًا ولاذعًا لهذا النظام، دون أن أقصد.»

كان الكتاب الذي كتبه توكفيل في النهاية جزءًا من حملته المستمرة — القائمة على التوضيح تارة وعلى النصح تارة — لحماية بلده من خطر الديمقراطية غير المُتحَكم فيها، المتمثل في أن حكم العامة (أو حكم الغوغاء) قد يؤدي إلى الاستبداد. من المهم أن نتذكر أنه بينما كان توكفيل يفكر في هذا الكتاب شعر أن مستبدًّا حقيقيًّا (ومثيرًا للشفقة) — هو لوي نابليون — يستعبد فرنسا. كان يأمل في أن ينقذ الفرنسيين، بأن يشرح لهم كيف وصلوا إلى تلك الحالة، وأن يمنحهم خريطة تبين كيف يمكنهم أن يفلتوا منها.

الكتاب «مزيج مما يمكن إلى حد بعيد أن نطلق عليه التاريخ والفلسفة التاريخية». فأولهما «قدّم اللوحة، والثاني الألوان». ومع أن توكفيل كان قلقًا حيال ما إذا كان يتمتع بالذكاء والمهارة اللازمين للقيام بتلك المهمة أم لا، فقد كان يؤمن بأنه «مستعد أكثر من أي شخص آخر ليكسوا هذا الموضوع بثوب حرية الفكر، وليتحدث عن الرجال والأشياء بلا تحيز أو تحفظ.» وأوضح قائلًا: «فيما يتعلق بالرجال فإنني لا أحمل لهم حبًّا أو كراهية مع أنهم يعيشون في نفس العصر الذي أعيش فيه؛ وفيما يتعلق بأشكال ما نطلق عليه الدستور والقانون والأسر الحاكمة والطبقات، فلن أقول إنها بلا قيمة في نظري؛ وإنما بلا وجود، بصرف النظر عن الأثر الذي تتركه. فلست أنحاز إلى تقاليد معينة أو حزب أو «قضية»؛ غير قضية الحرية والكرامة الإنسانية، وهذا ما أؤمن به.»

عندما بدأ توكفيل تأليف «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» لم يكن ينوي أن يؤلف عملًا بحثيًّا خالصًا، غير أن هذا ما حدث في النهاية، ضد رغبته. فحتى يتمكن من توضيح فكرته العامة وإقامة الدليل عليها كان عليه أن يبحث في سجلات باريس وبعض المدن مثل تور Tours والأقاليم. كان توكفيل يرمي إلى رسم صورة لكيفية عمل الحكومة في فرنسا بآليتها الدقيقة وسياستها العامة، قبل أن تطيح الثورة الفرنسية بما كان الناس قد

بدءوا يشيرون إليه قبل وقت طويل بنظام الحكم الأرستقراطي. واستعدادًا لهذا ذهب هو وزوجته إلى بون Bonn لدراسة الأحوال السياسية في ألمانيا الإقطاعية لعدة أشهر. لكي يتمكن من فهم الثورة الفرنسية نفسها كان في حاجة إلى أن يعرف بدقة وبالتفصيل الأوضاع التي أدت إليها، وفهم سبب عدم اندلاع ثورة في البلاد الأخرى في نفس الوقت.

إذا كان توكفيل قد كتب «الديمقراطية في أمريكا» وعينيه على فرنسا، فإنه كتب أجزاءً من «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» والولايات المتحدة في عقله. فبادئ ذي بدء هناك فرق جلي بين التاريخ الأمريكي والتاريخ الفرنسي. فمن الخطأ أن نطلق على الثورة الأمريكية ثورة؛ إذ إنها لم تكن ثورة بالمعنى الحقيقي للثورة على الإطلاق، وإنما كانت عصيانا واسعًا ضد ما بدا سلطة احتلال طاغية. كان الهدف الأساسي الذي رمى إليه الأمريكيون هو التحرر من السيطرة البريطانية، وهو بعيد كل البعد عن تحريض طبقة ضد طبقة، ومحاولة تغيير نظام السلطة في البلد بتطرف، والنضال للتخلص من أعمال الظلم القديمة، ومعاقبة المجرمين بقسوة. لم يكن للأمريكيين تاريخ يعيدون كتابته. ولأنهم بدءوا الكتابة على صفحة بيضاء، فقد كلفوا أنفسهم لا بتغيير مجتمع قائم وإنما بتأسيس مجتمع جديد تمامًا. إذا كان كتاب «الديمقراطية في أمريكا» يتناول طرق التعايش مع المساواة الجديدة، فإن «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» أقرب إلى تناول ما يجب عدم فعله في هذا الصدد.

رأى توكفيل أن الأعراف الأمريكية شكلت سياسة الأمة الأمريكية؛ في حين أن السياسة في فرنسا هي ما شكل أعراف الأمة. أكد هذا فرانسوا فوريه François Furet — أحد أكثر المؤرخين الفرنسيين ذكاء في العصر الحديث — قائلًا: «في الحالة الأولى قام التاريخ بإخضاع الدولة للمجتمع، أما في الحالة الثانية فقد أسلم المجتمع للدولة.» بالإضافة إلى هذا شحن الفرنسيون ثورتهم بتاريخ طويل من الفواتير الكثيرة متأخرة الدفع، من شكاوى ومظالم واستياء من طبقة أرستقراطية مكروهة وملكية معتلة، وقادوا الثورة نيابة عن ملاك الأراضي من الفلاحين ومن يسكنون المدن من

العمال الكادحين، وكلاهما وضع نصب عينيه آمالًا لا حد لعظمتها. كان النظام في ألمانيا قريبًا جدًّا من النظام الإقطاعي في نهاية القرن الثامن عشر، ومع هذا لم تندلع أي ثورة هناك. ووُجدت في إنجلترا طبقة أرستقراطية أكثر فاعلية وجرأة من الطبقة الأرستقراطية الفرنسية، ومع هذا لم يكن احتمال قيام ثورة عنيفة تحظى بتأييد الناس احتمالًا جادًّا. فلماذا وَجدت أعظم ثورة في العصر الحديث — أعظم حتى من الثورة البلشفية التي اندلعت عام ١٩١٧ من حيث نتائجها الجوهرية — أرضًا خصبة لها في فرنسا؟ ولماذا اندلعت قرب نهاية القرن الثامن عشر بالتحديد؟

مع أن حياة ألكسي دو توكفيل خيم عليها — بل طاردها — شبح الثورة الفرنسية؛ فإنه لم يعمَ أبدًا عن رؤية الجوانب المشرقة الأساسية فيها، ولم يستخف أبدًا بالدوافع العظيمة الكامنة وراءها. فأشار في مقدمة «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» إلى أن من قاموا بالثورة الفرنسية «لم يريدوا أن ينشئوا مؤسسات ديمقراطية فحسب، وإنما أيضًا مؤسسات حرة؛ ولم يسعوا إلى القضاء على الامتيازات فحسب، وإنما أيضًا إلى احترام الحقوق والاعتراف بها. فكان عصر الشباب والحماس والفخر؛ عصر المشاعر الفياضة الصادقة [فروح وردسورث Wordsworth تخيم في أجوائه]، عصر ستحتفظ الإنسانية بذكراه بالرغم من أخطائه. ولمدة طويلة قادمة ستقلق تلك الذكرى منام كل من يريد أن يفسد فرنسا أو يستعبدها».

كان توكفيل قد أصبح خبيرًا في شئون الثورة والثوار. فكتب أن «الثورة يمكن أن تكون في بعض الأحيان عادلة وضرورية، ويمكن أن ترسخ الحرية؛ لكن الروح الثورية تكون كريهة في كل الأحيان، ولا يمكن أن تؤدي إلا إلى الطغيان». وكتب في موضع آخر يقول إنه لا يعتقد أن في فرنسا كلها رجلًا أقل ثورية منه، ولا رجلًا يحمل في صدره كراهية أعمق من التي يحملها لما يسمى بالروح الثورية. ويرجع هذا — ضمن أسباب أخرى — إلى أن «كل الثورات العظيمة ... تجعل الشعب يخطئ في فهم ما يمكن أن يفعله، وبالتالي تخدع كلًّا من أعدائها وأصدقائها.» إن كثيرًا مما قاله توكفيل في قضية الثورة له وزن تنبؤي ثقيل. فمثلًا تأمل ما يلي في ضوء الثورة

الروسية وصعود نجم جوزيف ستالين Joseph Stalin: «يجب أن نلاحظ أيضًا أنه في بداية الثورات من هذا النوع لا يستطيع أعظم الرجال أن يفعل شيئًا، وعلى العكس يستطيع رجل عادي أن يفعل كل شيء في النهاية، إذا ما خدمته الظروف.»

بدأ توكفيل رحلته البحثية في «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» بمحاولة اكتشاف كيفية سقوط العظمة الكامنة في قلب الثورة الفرنسية في هوة النظم الاستبدادية المتناوبة والنظم المضطربة التي تبعتها، والتي لم يبد أنه سيشهد نهايتها. فقال: «سأحاول أن أوضح الأحداث والأخطاء وحالات سوء التقدير التي جعلت هؤلاء الفرنسيين يهجرون مسارهم الطبيعي وينسون الحرية، ويحلمون بأن يصبحوا عبيدًا متساوين لسيد العالم. وسأبين كيف تشكلت حكومة أقوى من الحكومة التي أطاحت بها الثورة وأشد منها استبدادًا، وركزت السلطة كلها في يدها، وكبحت الحريات التي حصلنا عليها بثمن باهظ، واضعةً مكانها أصنامًا عقيمة.» قال لاحقًا في الكتاب: «لم يحدث أبدًا أن كان الجو مهيئًا إلى هذا الحد لمثل هذا الحدث العظيم الذي كانت الأسباب المؤدية إليه متوفرة، ومع هذا لم يتوقع الكثيرون وقوعه.»

يوضح توكفيل في «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» كيف حدث ذلك، وهو يضع الحرية معيارًا للامتياز كالعادة، فالمجتمع القويم هو المجتمع الحر الذي يفسح أوسع مجال — في حدود المعقول — للحرية، إذ إن الحرية وحدها «تستطيع أن تكافح بفاعلية النقائص الطبيعية في هذا النوع من المجتمعات، وأن تمنعها من الانحدار في المنحدر الزلق الذي تجد نفسها على حافته. والحرية وحدها تستطيع أن تخرج المواطنين من العزلة التي وضعهم فيها استقلال أحوالهم؛ وتستطيع أن تدفعهم إلى الاختلاط يوميًّا، وإلى الاتحاد بدافع الحاجة إلى التواصل فيما بينهم، وإلى إقناع وإرضاء أحدهم الآخر لتصريف شئونهم المشتركة ... والحرية وحدها تستطيع أن تُحل مشاعر أسمى وأقوى محل حب الرخاء المادي، وأن تعطي دفعة لطموحات أعظم من الطموح إلى جمع ثروة فقط، وأن تخلق جوًّا يُمكّن الناس من فهم الرذائل والفضائل الإنسانية والحكم عليها».

ما اكتشفه توكفيل في أبحاثه المختلفة هو أنه منذ عصر لويس الرابع عشر أصبحت الحكومة في فرنسا تسير نحو المركزية بخطى أوسع. وبسبب تلك المركزية تخلت الطبقة الأرستقراطية القديمة تدريجيًّا عن مسئولياتها، في حين تمسكت بامتيازاتها، جاعلة نفسها مكروهة بسبب انعدام نفعها؛ فهي تعيش على خيرات الأرض دون أن تقدم شيئًا في المقابل. وبدأت البرلمانات المحلية — التي مثلت قوة في الأقاليم الفرنسية في الماضي — تفقد سلطتها وبالتالي وظيفتها. وسيطرت الحكومة المركزية على النظام القضائي، وكانت الضرائب تُجبى بطريقة مركزية، تحت سلطة وزارة الداخلية، وأُلقيت بشكل رئيسي على عاتق الفلاحين، الذين طُبق عليهم عرف السُخرة؛ أو إجبار المواطنين على العمل في بناء الطرق وصيانتها بلا أجر، وطحَن التجنيد عظام الفقراء. وفي ظل هذه الإجراءات أصبحت البيروقراطية هي الأرستقراطية الجديدة. كتب توكفيل يقول: «إذا لم تقض الثورة على المركزية فإن هذا يرجع إلى أن المركزية هي بداية الثورة وإشارتها.»

«ليس الطغيان هو ما جعلنا على ما نحن عليه، وإنما الطريقة الأبوية في التعامل مع الشعب»، وهذه هي واحدة من أعظم اكتشافات توكفيل. فكانت القوة والعون يتدفقان أولًا من فرساي (موطن «الملك الشمس») ثم من باريس بعد ذلك؛ فالأخ الأكبر[1] لا يراقب وحسب، وإنما يساعد على القيام بكل خطوة في الطريق. ولا يعني هذا أن المركزية بلغت الكمال، وإنما أنها أصبحت منتشرة، فـ«نظام الحكم الأرستقراطي [هو] باختصار قانون جامد يتساهل الناس في تطبيقه» كما أشار توكفيل. عرف توكفيل مدى انتشار المركزية من خلال دراسة وثائق ذلك العصر. وكانت وثائق المحافظين هي الأكثر نفعًا، فالمحافظون — كما أُطلق على أهم المسئولين البيروقراطيين في نظام الحكم الأرستقراطي — يشبهون بيروقراطيي عصره كثيرًا، وكتب يقول: «إذا كنت تشير إلى مسئول الشرطة فإنك تشير إلى المحافظ.»

[1] الأخ الأكبر اسم أطلقه جورج أورويل على إحدى شخصياته التي تمثل الحكومة الفاشستية.

غير أن توكفيل — لأنه توكفيل — عرف أن القوانين والمؤسسات وحدها لا تكفي لا لإلقاء الضوء على شخصية شعب ما ولا لتحريكه، مع أنه أقر أن «التأثير البطيء والدائم للمؤسسات» يمكن في بعض الأحيان أن يكون أكثر حسمًا من الملوك وذوي السلطة. وكتب إلى محاميه وصديقه بير فريسلون Pierre Freslon يقول مردّدًا اللازمة القديمة: «أنا مقتنع تمامًا أن المجتمعات السياسية ليست وليدة القوانين؛ وإنما هي نتاج عواطف رجال تلك المجتمعات ومعتقداتهم وأفكارهم وطباعهم الشخصية وروحهم؛ وهي ثمرة الطبيعة والتعليم.»

عادة ما يُنظر إلى القرن الثامن عشر في فرنسا على أنه «عصر التنوير»، وربما يكون توكفيل هو أول من نادى بتعديل هذه الرؤية؛ فكان يرى أن المفكرين الأحرار — كما أُطلق غالبًا على علماء ومفكري ذلك العصر — ساهموا بنفس القدر الذي ساهم به الجميع في إجهاض الحرية. فمن خلال كتاباتهم غيّروا العواطف والمعتقدات والعادات باسم «العقل»، الذي رأى توكفيل أنه لا يمت بصلة إلى التجربة الواقعية.

يتناول توكفيل تأثير فولتير والشخصيات العظيمة في حركة التنوير الفرنسية في فصل عنوانه: «كيف أصبح المفكرون القادة السياسيين للبلد في منتصف القرن الثامن عشر، وما ترتب على ذلك من آثار» How Around the Middle of the Eighteenth Century Intellectuals Became the Country's Leading Politicians, and the Effects Which Resulted from This. وهو لم يذكرهم جميعًا بالاسم، غير أن مجموعة الفلاسفة والعلماء والأدباء معروفة جيدًّا؛ فهي تشمل ديدرو Diderot ودالمبير d'Alembert وروسو ودولباخ D'Holbach وإلفيتيوس Helvétius وكوندياك Condillac والفيزيوقراطيين وغيرهم. ومع أن توكفيل أدرك أن هناك اختلافات جوهرية بين هذه الشخصيات، فكان يعتقد أن فكرة طاغية واحدة تجمعهم وتستنفر طاقاتهم؛ فـ«جميعهم يعتقدون أنه من الجيد أن نُحل المبادئ الأساسية والبسيطة النابعة من العقل والقانون الطبيعي محل العادات التقليدية المعقدة التي سيطرت على المجتمع في عصرهم.» ومن أهم

هذه المبادئ البسيطة أن العقل (بمفهومه كاستدلال منطقي بحت) أكثر فاعلية من العادات والتقاليد، وأن هناك القليل من الأشياء التي تقل منطقية عن الدين.

كانت نقطة انطلاق المفكرين الأحرار هي النظم السخيفة التي تسيطر على المجتمعات التي ولدوا فيها، مثل المزايا التي يتمتع بها الأرستقراطيون ولا يستحقونها في مقابل الأعباء غير المعقولة الملقاة على عاتق الناس العاديين. لم يكونوا هم أنفسهم يتمتعون بسلطة ملموسة ولا بتجربة غير مباشرة في عالم السلطة. وكانوا يحلّقون — إن صح التعبير — بجناحي حب خالص للنظرية المجردة وكراهية التقاليد. أضف إلى ذلك أن عدم عيش هؤلاء المفكرين في ظل حرية حقيقية أعماهم؛ إذ إنهم شبوا في قيد نظام مركزية الحكومة الذي كان ملوك العصر يفضلونه. وفي هذا يقول توكفيل: «في ظل البعد الشديد عن ممارسة (الحرية) الذي عاشوا فيه لم تصل الخبرة إلى نيران طبعهم فتلطفها؛ فلم يجدوا ما يحذرهم من العراقيل التي قد يضعها الواقع أمام الإصلاحات المرغوب فيها، ولم تكن لديهم أدنى فكرة عن المخاطر التي دائمًا ما تصاحب الثورات، وإن كانت ضرورية.»

يكمل توكفيل واصفًا كيف أنه في ظل غياب طبقة أرستقراطية فعالة ونافعة وغياب حياة سياسية محلية نشيطة؛ وقع الفرنسيون في أسر تخمينات نظرية جاء بها المفكرون الأحرار. وسرعان ما أصبح وضع النظريات يشبه لعبة منزلية يمكن أن يشارك فيها أي شخص له مظلمة سياسية، أو لديه إحساس بأن القوانين والمؤسسات ظلمته في مكان ما أو بشكل ما. والفكرة الرئيسية التي آمن بها المفكرون الأحرار وظهرت لها أشكال مختلفة هي ضرورة تحقيق المساواة بين كل الطبقات. مَن يمكنه أن يمتنع عن التأييد الرسمي لهذه الفكرة غير الأرستقراطيين الذين انحط قدرهم بالفعل؟

أضف إلى هذا أن الإيمان بقوة التعليم الذي ساد فرنسا جعلها أكثر عرضة للتأثر بإغراءات المفكرين الأحرار الذين اتسموا بعقول نظرية، مما سهل على المثقفين مهمة تشكيل أمة عظيمة كهذه تشكيلًا تامًّا. ووراء أطروحات المفكرين الأحرار كمنت فكرة أن التعليم نفسه هو الخلاص

للجميع، بما في ذلك أرواح الرجال والنساء، مع أنهم لم يستخدموا أبدًا كلمة «خلاص» أو كلمة «أرواح». (كتب توكفيل إلى القس الأمريكي لويس دوايت Louis Dwight يقول: «يوجد في فرنسا أناس يحبون التعليم حبًّا أعمى، ويؤمنون أنه فور تعليم الرجال القراءة والكتابة والحساب فإن المرء يجعلهم مواطنين صالحين ورجالًا مستقيمين.») وفي عصرنا هذا بالطبع ما زالت فكرة قدرة التعليم على منح الخلاص منتشرة انتشارًا واسعًا؛ فنيل القسط الكافي من التعليم ينزع الشر، ويبعث على الخير، ويهدي إلى الصراط المستقيم، مما يجعل الحياة أفضل للجميع. فلنهتم بالتعليم، وعندها سيعم الخير والنور.

ألقى توكفيل الضوء على البصمة القوية التي تركها قادة الثورة الأمريكية على الفرنسيين، الذين كانوا يتابعون الأحداث في الولايات المتحدة عن كثب، وكان الكثير من هذه الشخصيات مفكرين أحرارًا على طريقتهم الخاصة، وقال: «يبدو أن الأمريكيين كانوا يطبقون ما فكر فيه كتّابنا، فألبسوا أحلامنا ثوب الواقع الملموس.» ما كان يفتقده المفكرون الأحرار الفرنسيون بالطبع هو البداية الجديدة التي منحتها العناية الإلهية للآباء المؤسسين لأمريكا.

أدخل المفكرون الأحرار العادات الأدبية على السياسة، كما أشار توكفيل. والمشكلة تكمن في أن «ما هو ميزة في الكاتب يعد في بعض الأحيان عيبًا في رجل الدولة، وأن العوامل ذاتها التي عادة ما تُنتِج الكتب الجميلة يمكن أن تؤدي إلى ثورات عظيمة». بلغت الشهرة بالمفكرين الأحرار مبلغها، حتى إن الفلاحين الأميين بدءوا يتكلمون بلغتهم، «فكل ما كان عليهم أن يفعلوه ليصبحوا مثقفين عاديين هو أن يتعلموا الهجاء». يُنهي توكفيل الفصل الذي يدور حول المفكرين والسياسة الثورية بتذكير القراء بأن الأفكار الوهمية التي نادى بها الكثير من هؤلاء الرجال لا تزال حية في عصره، أي بعد مرور مئة سنة على ظهور تلك الأفكار، حتى إنها حية في عقول من يحتقرون الكُتاب ولم يقرءوا في الأدب إلا قليلًا؛ كما أنها حية بيننا في عصرنا هذا.

أدى ما تركته عقول الأدباء من أثر على الناس إلى تنامي «ثقة غير محدودة في العقل وفي أفعال الحكومة». قال توكفيل إن هذا المفهوم لم

يزدهر في القرن الثامن عشر فحسب، وإنما هو مفهوم تفردت به فرنسا، وهو «وليد انعدام الخبرة والعيش في ظل حكومة مستبدة. قضت التجربةُ على الإيمان بالعقل، لكن النظر إلى الحكومة على أنها الإله وطوق النجاة ظل سائدًا». وأُضيف إلى الإيمان بالعقل إيمان الفرنسيين بالمساواة. كتب توكفيل إلى قريبه شاتوبريان يقول: «تثبت التجربة يومًا بعد يوم أن الفرنسيين يميلون بالفطرة إلى السلطة؛ فهم لا يحملون ذرة حب للحرية، أما المساواة فهي معبودهم الأوحد.»

قام المفكرون الأحرار الذين استندوا استنادًا تامًّا على العقل بمهاجمة الدين أيضًا. ففكرهم يقوم على أن الدين هو أعدى أعداء العقل. كان للدين أعداء في كل مكان، لكن في فرنسا وحدها — كما قال توكفيل — أصبحت معاداة الدين شغفًا عامًّا، ودعا إليها بحماس فولتير وغيره، واعتنقتها قطاعات كبيرة من السكان. في البلاد الأخرى كانت الديانات القائمة تتعرض للهجوم عند ظهور ديانات جديدة؛ أما في فرنسا فقد هُوجمت المسيحية دون محاولة إحلال ديانة أخرى محلها، «انجذب العامة نحو الكفر التام بكل ما يتعلق بالدين، وهو ما يناقض الغرائز الإنسانية الطبيعية ويسبب حالة من الألم للروح». كانت هناك أصوات تنادي بالكفر في ألمانيا وإنجلترا وأمريكا؛ لكن في فرنسا وحدها كان لتلك الأصوات صدى جهوريًّا، وفي فرنسا وحدها كان «انعدام التقوى ... سلوى من يحيون حياة تافهة». فالناس يبجلون العقل وليس الله.

كانت رأي توكفيل يتلخص في أننا يجب ألا نلقي باللوم على الكنيسة التي لم تكن أكثر تدهورًا في فرنسا عنها في غيرها من البلاد، وإنما نلقي باللوم على المفكرين الأحرار، الذين رأوا — كما قال — أنه «لكي يهاجموا مؤسسات الدولة كان من الضروري أن يحطموا مؤسسات الكنيسة، التي عملت كأساس ونموذج يُحتذى به»، ذلك أن الملوك منحوا الكنيسة سلطتها الدنيوية وفي المقابل أقرتهم على ما يفعلون. وضاعف من متعة المفكرين الأحرار في الإطاحة بالكنيسة أنها كانت تقوم بالدور الرئيسي في الرقابة على الكُتَّاب والمفكرين.

كتب توكفيل يقول: «لا ريب أن عدم الثقة السائد في كل المعتقدات الدينية في نهاية القرن الماضي ترك أعظم الأثر في ثورتنا بكل جوانبها؛ فأصبح الصفة المميزة لها، وهو أكثر ما ساهم في كسو ملامحها بهذا التعبير المريع الذي رأيناه جميعًا». كان توكفيل قد أشار في «الديمقراطية في أمريكا» إلى أن «الاستبداد يمكن أن يزدهر بلا إيمان، أما الحرية فلا»، وهذا ينطبق بالطبع على استبداد الأغلبية.

نتج عن الهجوم المتصاعد على الكنيسة في فرنسا أن حل الدين السياسي محل الدين الفعلي، وأصبح الكمال الذي قالت المسيحية بوضوح إنه لا وجود له في هذه الحياة؛ ممكنًا في دين السياسة. وكتب توكفيل أن الثورة الفرنسية «أصبحت بمنزلة نوع جديد من الأديان، دين ناقص، صحيح إنه بلا إله ولا شعائر ولا حياة بعد الموت، لكنه مع ذلك ملأ الأرض بجنوده وأتباعه وشهدائه، كما فعل الإسلام». وفي ظل ذلك الدين الجديد الذي لا إله له لم يكن أمام الإنسان أي مرجعية إلا نفسه، فصارت نفسه هي مرجعه. وبموجب هذا النظام الجديد أصبحت الدولة هي ما يصنع الإنسان بدلًا من الله. وبعبارة أخرى عندما تُرك الإنسان لنفسه بلا رغبة إلا في المساواة وما يصاحبها من تحطيم كل الطبقات؛ فقد الإنسان المرساة التي يعتمد عليها، وفقد توازنه واتجاهه. فيما سبق كان الدين يمثل حاجزًا أمام السعي غير المحدود إلى الكمال. ربما كان ماركس Marx محقًّا عندما قال إن الدين هو أفيون الشعوب، لكن دين السياسة يمكنه أن يمد الشعوب بمخدر أقوى وأخطر، ويمكنه أن يكون مهلكًا كالدين التقليدي تمامًا، كما يشهد بذلك عصر الإرهاب، بل يمكنه أن يكون أكثر إهلاكًا، كما تشهد الشيوعية النازية والسوفيتية والصينية. أما توكفيل فرأى أن النتيجة المباشرة لهيمنة دين السياسة هي ضياع حب الحرية.

تغنى توكفيل بحبه للحرية في كل مكان، وقال إنه مستعد أن يمنح حياته للدفاع عنها؛ ولا يوجد لدينا ما يدعونا إلى التشكيك في هذا. فكتب إلى مدام سويتشين مقولة لا تصدر إلا منه، يقول فيها: «أرى أن الحرية هي المصدر الأساسي للخير، فكلما نظرت إليها رأيت أخصب منبع لفضائل

الرجال وعظيم الأفعال. ولا يمكن للسلام ولا للازدهار أن يحلا محلها». لكنه — كما ذكرنا آنفًا — لا يصف بالتفصيل قيمة الحرية، ولا يحاول أن يبرهن على آثارها بدقة. (كتب إدموند بورك Edmund Burke يقول: «من بين كل المصطلحات المطاطة في العالم يعد مصطلح الحرية الأكثر غموضًا».) لكن توكفيل يرى أن الحرية تكفل — كحد أدنى — مساحة لاستقلال الفكر والطموح الشديد والتفاني من أجل القضايا العظيمة. فكتب يقول: «لا تطلبوا مني أن أصف لكم هذه الرغبة السامية [لتحقيق الحرية]، يجب أن تشعروا بها، فهي تدخل من تلقاء نفسها إلى القلوب العظيمة التي أعدها الله لاستقبالها، فتملؤها وتنيرها. يجب علينا أن نكف عن محاولة إفهامها للأرواح العادية التي لم تشعر بها أبدًا.» ربما تضاربت أفكار توكفيل في بعض الأوقات حول الدين، لكنها لم تتضارب أبدًا حول الحرية.

يتضح بجلاء الكيفية التي تعتمل بها الحرية والدين في فكر توكفيل في مراسلاته مع آرثر جوبينو. وجوبينو هو الشاب الذي عينه سكرتيرًا له عندما كان وزيرًا للخارجة، والذي ظل على اتصال به حتى وفاته. تقدم جوبينو في حياة دبلوماسية مميزة إلى حد بعيد؛ فشغل منصب السفير في برن وفرانكفورت وطهران وأثينا وغيرها. كان جوبينو يُكِن لتوكفيل احترامًا كبيرًا؛ فكتب إلى أسرته يقول: «من المستحيل أن أتخيل وجود رجل أكثر صلاحًا ورقة منه»، بينما كان توكفيل يكن احترامًا أقل لجوبينو، لكنه كان دائمًا يشعر نحوه بشعور طيب.

كان جوبينو محبًّا لكل ما هو ألماني، ومتيمًا بالأجناس الجرمانية بصفة عامة. وكان مهووسًا بترتيب الأجناس، مما تسبب في وقوعه في خطأ فكري فادح، حاول توكفيل أن ينبهه إليه منذ البداية. انكشف خطأ جوبينو على الملأ، عندما نشر بحثًا بعنوان «عن عدم تساوي الأجناس البشرية» *Essai sur l'inégalité des races humaine*. في مراسلاتهما حول هذا الموضوع قال توكفيل إنه لن يستطيع أبدًا أن يؤمن بأفكار جوبينو حول ترتيب الأجناس؛ أولًا، لأنها تنتهك معتقداته المسيحية، وثانيًا، لأنها إهانة لإيمانه بأهمية الحرية.

قال توكفيل في إحدى هذه الخطابات إن «النظريات العلمية [يقصد العنصرية]» التي وضعها جوبينو لا تتوافق بسهولة «مع نص المسيحية أو روحها»؛ فالمسيحية مع كل شيء تفترض وجود صلة قرابة بين كل البشر، فهم في الأصل أخوة متساوون؛ أما مذهب جوبينو «فيجعلهم ذوي قرابة بعيدة على أقصى تقدير». وآراء جوبينو تجعل تعليم الأجناس التي وضعها في مرتبة منخفضة وإصلاح أحوالها وتطويرها ضربًا من المستحيل؛ «نتيجة لوجود بعض النزعات المتأصلة فيهم التي لا يمكن تغييرها، والتي تحد بدرجة كبيرة من إمكانية تهذيب بعض النزعات الأخرى».

يكره توكفيل في نظريات جوبينو أنها تقوم على المذهب الجبري؛ فجوبينو يقول إن كل البشر لا يملكون من أمرهم شيئًا. ويتساءل توكفيل: ما النفع الذي يمكن أن تقدمه تلك النظرية للإنسانية؟ وقال: «ألا ترى أن مذهبك يؤدي بطبيعة الحال إلى كل الشرور التي تخلقها عدم المساواة الدائمة، مثل الغرور والعنف واحتقار الإنسان لأخيه الإنسان والطغيان والخسة بكل صورها؟»

رأى توكفيل في نظريات جوبينو نظرة متدنية لقدرة الإنسان؛ وهي نظرة لا يتفق معها. فالآراء العنصرية جعلت جوبينو يفقد أية رغبة في مقاومة الاستبداد، بل جعلته يرى الإنسان على أنه طفل كبير ينتظر سيده. احتج توكفيل على هذا احتجاجًا كبيرًا. فتوكفيل لا يزال يتمسك بالأمل، معتقدًا أن «المجتمعات الإنسانية، مثلها مثل الأفراد، لا يمكن أن تصبح ذات شأن إلا بممارسة الحرية» وقال: «لا، لن أؤمن بأن الأجناس البشرية — التي هي أكرم المخلوقات — يمكن أن تصبح قطيعًا منحطًّا كما تصفها أنت؛ ولن أؤمن بأنه لا خيار لنا سوى أن نسلمها — بلا أمل في المستقبل أو في إيجاد مخرج — إلى عدد صغير من الرعاة الذين ليسوا في نهاية المطاف حيوانات أفضل منا، بل إنهم في الأغلب أسوأ. أرجوك أن تسمح لي بأن أضع ثقتي في كرم الله وعدالته بقدر أكبر مما تفعل.» عندما نقرأ هذا نشعر أننا نريد أن نقوم من مجالسنا ونصفق لتوكفيل.

في خضم هذا الهجوم يؤكد توكفيل اعتزامه أن يبذل أقصى ما في وسعه ليساعد جوبينو حتى يحصل على عضوية أكاديمية العلوم السياسية والأخلاقية. كان توكفيل موهوبًا في عقد الصداقات، ويبدو أن تلك الموهبة نمت مع تقدمه في العمر. كان يشعر بالثقة في الصداقة التي استمرت لقرون مع أصدقائه — بومون وكيرجورلي وجان جاك أمبير Jean-Jacques Ampère وكورسيل — ولدينا أسباب وجيهة تجعلنا نعتقد أنهم أحبوه. إن رجلًا نحسبه ذا طابع بارد وطبيعة كتومة كتوكفيل غالبًا ما يكون ميالًا إلى الإفصاح عما في صدره لأصدقائه المقربين، مطلعًا إياهم بلا تردد على شكوكه وإحباطاته واحتياجاته الإنسانية.

لذا نجده يكتب إلى مدام سويتشين عن قلقه حيال استقبال القراء للجزء الأول من «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة»، فيقول: «كنت أتمنى أن أتمتع بميزة عدم المبالاة بالنجاح، لكنني لا أتحلى بها.» وكتب إلى بومون يقول إنه لا يطيق التفكير في المخطوطة التي كتبها، لأنه متأكد تمامًا من أن مادتها رديئة للغاية، وقال: «هذه المخطوطة الكريهة [التي] تحرق أصابعي، وتثير في — وأنا أراجعها — أبغض شعور (اختيار رائع للكلمات، إذ يكشف لنا عن أن هذا الرعب صار نوعًا من الرعب الحسي). أضف إلى هذا القلق قلقًا على مستقبل الكتاب، الذي يشعر به أي كاتب، وإن كان ينظر إلى نفسه نظرة إيجابية.» عندما ينتقل توكفيل إلى الجزء الثاني من الكتاب يقر لكيرجولي بأنه يغرق في بحر واسع من مواد البحث؛ فهو يعرف الأسئلة الصحيحة ويعرف ما يبحث عنه، «لكن مهما حاولت لا أستطيع أن أكشف النقاب عنها، أشعر أن الموضوع يحجبه عني جسم غريب، يمنعني من لمسه أو رؤيته على نحو جيد». وكتب إلى بومون يقول: «أشعر أنني ضائع في محيط من الأبحاث، ويغلب علي التعب والإحباط أحيانًا وأنا في وسط ذلك المحيط.» فكان يشعر أنه يكتب كتابًا لن يُرضي أحدًا ولن يثير اهتمام أحد في الغالب. إذا كان توكفيل قد كتب «الديمقراطية في أمريكا» ليكون في مرتبة موازية لكتاب «روح القوانين» الذي كتبه مونتسكيو؛ فإنه كان يأمل أن يصبح «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» نظيرًا لكتاب مونتسكيو

«عن أسباب عظمة الروم واضمحلالهم» *Considerations on the causes of the Greatness of the Romans and Their Decline*. كان توكفيل متأكدًا في ذلك الوقت أن هذا لن يحدث.

نُشر الجزء الأول من الكتاب الذي كان توكفيل قلقًا حياله في عام ١٨٥٦، وقوبل بالثناء في كل من فرنسا وإنجلترا، حيث قام صديقه هنري ريف بترجمته. لم يستطع بعض القراء فهم النقاش الرفيع الذي أثاره توكفيل في هذا الكتاب، والبعض الآخر كان متمسكًا بسياساته بدرجة لم تسمح له بقبول الكتاب. لكن النقد الذي قوبل به الكتاب — من النقاد المعتادين — لم يكن كافيًا لمنعه من الصدور في أربع طبعات، أو من تغيير رأي الناس إلى الأبد عن أسباب قيام الثورة الفرنسية.

في مقدمة الجزء الأول رسم توكفيل مخططه الطموح للكتاب كله، وهو أن يلقي الضوء على خلفية الثورة، ثم عملها ثم يبحث في آثارها على المجتمع الجديد الذي أنجبته. وتساءل: «ترى هل سأتمكن من إنجاز هذا؟ ومن يملك الإجابة؟ فمصير الأفراد لا يزال أكثر خفاءً من مصير الأمم.» لم يُنه توكفيل سوى فصلين من الجزء الثاني، وكتب مسودة تحضيرية لسبعة فصول أخرى، وترك وراءه أكوامًا من الملاحظات المشوقة التي كتبها باحثوه، والتعليمات التي كتبها لنفسه؛ لكنه لم يتمكن أبدًا من سرد حقائق الثورة الفرنسية وما جاء في أعقابها. وفي النهاية لا مفر من النظر إلى العمل باعتباره غير مكتمل أو عملًا نصف كلاسيكي. وتبقى النسخة الكاملة من «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» سيجارًا ساحرًا آخر.

الفصل الحادي عشر

بعد ظهيرة أحد أيام شهر أغسطس/آب عام ١٨٥٠ بمدينة شيربور Cherbourg قال ألكسي دو توكفيل البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا لصديقيه ناسو سينيور وجان شارل ريفيه Jean-Charles Rivet — وهو يسير معهما مستعيدًا الذكريات — إنه يحسد خادمه أوجين. وأوضح قائلًا: «إذا كانت السعادة تكمن في توافق آمالنا مع قدراتنا — وهذا ما أؤمن به — فإنه سعيد بلا شك.» أما عن نفسه فيقر قائلًا: «حياتي كلها صراع من أجل أشياء لن أستطيع أن أحصل على أي منها كاملًا.» بعد مرور تسع سنوات وتوكفيل راقد على فراش الموت لا أظن أنه كان سيغير تلك العبارة، ومات وهو يعتقد — ولدينا من الأسباب ما يكفي لقول هذا — أن حياته لم تحقق مستوى النجاح المطلوب.

مع أنه عمل فترات متعددة في الجمعيات الوطنية والمجالس التشريعية ولجنة وضع الدستور في بلاده، وشغل مدة قصيرة منصبًا مميزًا هو منصب وزير الخارجية؛ كان يشعر أنه سياسي ورجل دولة فاشل. وهذا ما أكده فرانسوا فوريه حين كتب يقول: «إن توكفيل لم يتألق أبدًا في الحياة السياسية الفرنسية»، وكان محقًّا في هذا.

يعد كتاب «الديمقراطية في أمريكا» إنجازًا حقيقيًّا، وهو مميز على نحو خاص لأنه كُتِب والمؤلف في سن صغيرة جدًّا، ومع هذا كان من الجلي أن هذا الكتاب بكل المدح والشهرة اللذين حققهما لمؤلفه لم يحقق لتوكفيل المجد الذي يجد فيه راحته. فكان يعتزم — بالرغم من كل شيء — أن يكون

الكتاب انطلاقة لأشياء أعظم. أما فيما يتعلق بـ«نظام الحكم الأرستقراطي والثورة»، فلا بد أنه أثار فيه الشعور بالنقص الشديد وبالتالي الهزيمة. أما كتاب «ذكريات» فهو رائع، لكنه لم ينشر في حياة توكفيل وفقًا لتعليماته، ولذا لم يحظ باعتراف عام بالإنجاز الذي حققه في هذا الكتاب. كان زواجه مستقرًّا بالقدر الكافي، لكنه لم يثمر ذرية، وكان هذا سببًا آخر لتعاسته في حياته.

كثيرًا ما يظهر الشك واليأس في رسائل توكفيل، حتى إننا نتساءل إن كان يعاني من الاكتئاب، على الصعيد المعنوي إن لم يكن على المستوى الطبي، لكن ليس بمقدورنا أن نتحقق من صحة ذلك. قد لا يزيد الأمر عن كون توكفيل رجلًا ينظر إلى الأمور من منظور رفيع، فكان من الطبيعي أن يتسبب ذلك في استيائه من حياته. قال إف سكوت فيتزجيرالد F. Scott Fitzgerald إنه من الطبيعي أن يشعر رجل ذكي بإحباط طفيف عندما يصل إلى منتصف العمر؛ بعد أن فني شبابه، واستحالت العودة بالزمن لتصحيح أخطائه، وتضاءلت فرصته في مراوغة المصير الذي أصبح يراه أمامه والهرب منه، وصار الموت وشيكًا.

غير أن نبرة الكآبة صاحبت توكفيل منذ البداية. كتب سانت بوف أن حزن توكفيل يشبه حزن «إينياس Aeneas عندما بدأ رحلته لبناء مدينة روما وهو لا يزال ينتحب على عِلِّيسَة Dido».[٢] وكان ما أسماه هنري جيمس بـ«تخيل الكوارث»، أي القدرة الدائمة على رؤية أسوأ النتائج متأصلًا في توكفيل؛ وفي جيمس نفسه. لذا رأى توكفيل أنه مهما كانت مزايا الديمقراطية فإنها دائمًا معرضة لخطر الانزلاق في هوة الطغيان. وأثار الأسئلة التالية في المذكرات التي كتبها وهو في أمريكا: «لماذا كلما انتشرت الحضارات قل عدد الرجال المميزين؟ ولماذا عندما تصبح البراعة هبة الجميع يصبح ذوي القدرات الفكرية العظيمة أكثر ندرة؟ ولماذا عندما تختفي الطبقات الدنيا تختفي الطبقات العليا؟»

[٢] «عليسة وإينياس» أوبرا مستوحاة من الإنيادة التي كتبها فيرجيل، تدور حول عليسة ملكة قرطاج وإينياس البطل الطروادي اللذين وقعا في الحب ثم اضطرا للافتراق.

كتب توكفيل بعد اثنين وعشرين عامًا وهو في خضم تأليف «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» يقول: «يتوقع المرء ألا تبقى العظمة الفكرية [في فرنسا] إلا بين من يعترضون على حكومة بلدهم، ويحافظون على حريتهم وسط العبودية. وظهور بعض العقول العظيمة في هذا السياق لن يرجع إلى حدوث شيء عظيم في البلد، وإنما إلى وجود بعض الأرواح التي تحتفظ في داخلها ببصمة العصور الأفضل من عصرنا.» كان توكفيل رجلًا ينظر دائمًا إلى الجانب المظلم وإن كان أمامه الجانب المضيء.

كان رجلًا قضى وقتًا طويلًا منغمسًا في أكثر الأفكار كآبة؛ أي في التفكير في ما كان من الممكن أن يحدث، وخاصة ما كان من الممكن أن يحدث في حياته الشخصية والمهنية. أرجع توكفيل بعض أسباب ما اعتبره فشله إلى الحياة السياسية في عصره. فكتب إلى أوجين ستوفل في أوائل عام ١٨٣٣ يقول: «أحارب بكل قوتي تلك الحكمة الزائفة واللامبالاة المهلكة، اللتين تستنزفان طاقة الكثير من الأرواح الجميلة في عصرنا. وأحاول ألا أندفع نحو عالَمين: الأول عالم أخلاقي يثيرني فيه ما هو جميل وخيّر، والثاني عالم سياسي أنبطح فيه أرضًا على بطني عندما أشم رائحة الروث الذي نسير عليه.» لكنه كرس — كما نعرف — سنوات طويلة من حياته للعالم الثاني؛ العالم السياسي الذي لم يكن ذا طائل يذكر، كما أدرك.

من الواضح أن شكه في قدراته الفكرية التي لا خلاف عليها لم يقل عن ذي قبل. فقال فيما كتبه إلى رويبه كولار عن الفصل الأخير من «الديمقراطية في أمريكا» إن: «هذا الموضوع يثير فيَّ الكثير من المخاوف الأخرى؛ فأنا أشعر أنني أتناول فيه أهم فكرة في عصرنا، وعظمة تلك الفكرة ترفع معنوياتي، لكن قلة كفاءتي تحبطني. فأنا أتبحر في كل ما يمكن أن يُقال حول الموضوع، وأنا أعلم أنني لست الشخص المناسب لأقوله.» لكنه قال ما يمكن أن يقال حول الموضوع، وقاله بالطبع بطرق شتى وتناوله من زوايا عديدة أفضل من أي شخص جاء قبله أو بعده، لكن يبدو أن توكفيل كان يسري في دمه داء الشك بقدراته.

كانت وطأة الأسى ثقيلة عليه، حتى وهو شاب حياته تنبض بالأمل. فبينما كان يحكي لمدام دو جرانسي عن ازدحام أوقاته هو وبومون في بوسطن قال: «إن الهدف الأسمى في الحياة كما تعرفين هو أن ننسى — بأسرع ما يمكن — أننا نحيا.» وكتب إلى أخيه إدوار من واشنطن قرب نهاية رحلته في أمريكا يقول: «لم أعتقد أنه من الممكن أن أعود إلى وطني بكل هذا الظلام في روحي.» وكتب إلى إدوار مرة ثانية بعد ثماني سنوات يقول: إن «ما يحرك الأرواح يختلف، لكن الأرواح لا تختلف؛ تلك الأرواح التواقة النهمة التي تستخف بكل ما هو جميل في العالم، ومع هذا تحتاج باستمرار إلى ما يحركها للحصول عليه، لكي تتخلص من الخدر الموجع الذي تشعر به حالما تعتمد على نفسها للحظات. إنه أمر محزن. لكنه حال كل البشر، وهو ينطبق على بعض الناس أكثر من غيرهم، وينطبق عليّ أكثر من أي شخص آخر.»

وصل شك توكفيل في قدراته إلى حد خرج به من إطار الطبيعة الكئيبة ليضعه في إطار الهستيريا. أشار جورج ويلسون بيرسون إلى ذلك في مواضع كثيرة من كتابه «توكفيل في أمريكا» *Tocqueville in America*، فكتب: «وتوكفيل بطبيعته يشعر برعب شديد من أي شكل من أشكال الشك، لدرجة تكاد تجعلنا نرى في هذه الجدلية [طريقته المبنية على الدمج بين الاستقراء والاستدلال] آلية محكمة من الشك.» نشأ سعيه إلى الكمال من نفس هذا المصدر. فكتب بيرسون يقول: «أما عنه فلم يكن يستطيع أن يترك شيئًا يمر حتى يقتنع أنه «ليس في الإمكان أفضل مما كان»، فكان مدفوعًا بميل شخصي واضطرار نابع من الخوف إلى الترحيب بعذاب السعي إلى الكمال.» وفي أمريكا قرأ وثائق ألفها جورج واشنطن وقارنها بمخطوطات كتبها هو نفسه على عجل وهو في حالة من القلق ونفاد الصبر، وكانت المقارنة تأتي لغير صالحه بالطبع. فلم يضيع توكفيل فرصة يحط فيها من قدر نفسه.

ومع أن توكفيل أرسل مخطوطاته إلى أسرته وصفوة أصدقائه، فقابلته مشكلة الاستفادة من مساعدة الآخرين. أشار بيرسون إلى أن توكفيل «كان عليه أن يتفكر في الأمور بنفسه، لكي لا تشتته أية توجيهات. في الواقع كان

ميزان أعصابه حساسًا إلى درجة أن أي اقتراحات خارجية يتلقاها قبل أن يعزم أمره — أو آراء مخالفة لرأيه تُقال له بعد أن يعقد رأيه — كانت تقلب نظامه رأسًا على عقب، وتجعله يلقي بأفكاره جانبًا، وتسبب له كآبة شديدة تستمر أيامًا.»

يا له من مزيج مدهش من التناقضات هذا الذي جسده ألكسي دو توكفيل! فهو طموح جدًّا لكن متشائم للغاية، مغرور لكن غير واثق من نفسه، شجاع لكن متردد، مقدام لكن قلوق، يتمتع بخلق رفيع جدًّا لكن يسيء الظن في دوافع الرجال، وهو شخص عميق الفكر لكنه لا يتمتع برباطة الجأش، دائم البحث عن الحقيقة لكنه يعرف أنها غير متاحة للأشخاص العاديين. (كتب إلى شارل ستوفل يقول: «أقنعت نفسي أخيرًا أن البحث عن الحقيقة المطلقة «التي يمكن إثباتها» كالبحث عن السعادة التامة؛ سعي خلف المستحيل.») إذا نظرنا إلى توكفيل من بعيد فسنجد أنه يمتلك كل المقومات التي تهيئ له أن يتمتع بحياته بهدوء، لكن عند النظر من قريب سيتبين أنه كان يعاني من أمور أكثر من الاضطراب الطبيعي الناتج عن القلق والشك.

ما السبب؟ لماذا يجد رجل من الواضح أنه كان مستعدًا أن يستمتع بالحياة — بصرف النظر عن ضعف صحته — أن الحياة نضال قاسٍ؟ لماذا حُرِم من السلام النفسي الدائم؟ كتب توكفيل ذات مرة أن أفضل طريقة للفوز بدرجة من الرضا هي: «أن تكون قادرًا على جعل عقلك يعمل في مواضيع نظرية»، لماذا نظرية؟ ربما لأن عقله كان يميل إلى هذا الاتجاه؛ فقال بومون: «لم يتمتع ألكسي دو توكفيل بذاكرة قوية في حفظ الكلمات والأرقام، لكنه كان يحفظ الأفكار كأفضل ما يكون، فحالما تدخل فكرة إلى عقله لا تخرج منه أبدًا.» أما رأي توكفيل في ذلك فيتلخص فيما يلي: «مهما يكن ما يقوله أي شخص فإن الأفكار هي ما تحرك العالم وليس الحاجة العمياء.» ومع هذا لم يكن يثق في الأفكار كما رأينا.

كان توكفيل رجلًا تدور حياته حول فكرة واحدة؛ وهي أن المساواة تغزو العالم بلا هوادة ولا رجعة غزوًا يتعذر اجتنابه. وهذه الفكرة ليست

جديدة تمامًا، لكنها أصبحت في يديه مثمرة للغاية، إذ ولدت الكثير من الأفكار. غير أن توكفيل لم يكن مثل ماركس ومالتوس Malthus وفرويد Freud، فلم تنطبق عليه عبارة «مجنون بفكرة واحدة» التي قالها والاس ستيفنز Wallace Steven. أدت الفكرة به إلى البحث في علم الاجتماع، وتأمل التاريخ، والاهتمام بالفلسفة، وإلى بذل أقصى جهد في تأمل أعظم الألغاز ومحاولة حله؛ واللغز هو: كيف تستجيب الطبيعة البشرية (وهي في حد ذاتها لغز لا حل له) للتفاعلات في بوتقة التجربة التاريخية؟

يقال إن كل الأفكار تنبع في الأصل من السيرة الذاتية للإنسان. ولا يصعب علينا فهم أسباب انشغال توكفيل بفكرة انتشار المساواة ونتائجها؛ فقد خاض مغامرة مع المساواة — أو بالأحرى مع عدم المساواة — في بداية حياته. إن وصول المساواة أدى إلى رحيل الأرستقراطية التي ولد فيها بعد فوات الأوان؛ كم كانت حياته ستختلف، بل كم كانت حياته ستصبح أكثر تألقًا لو أنه عاش في كنف طبقة أرستقراطية مزدهرة. لم يدّع توكفيل أبدًا حب الديمقراطية، لكنه ادعى أنه أدرك حتميتها واستمراريتها، وقال إنه كشف عن أفضل ما يمكن الخروج به منها؛ وكان يعرف — بالإضافة إلى ما سبق — أن الطبقة الأرستقراطية انتحرت وألا سبيل إلى إحيائها. فقال لكاتب ألّف نقدًا عن «نظام الحكم الأرستقراطي والثورة»، مدعيًا أن توكفيل يؤيد عودة الأرستقراطية: «أنا صديق وفيّ وغيور لما ترى أنه الإنجازات الرئيسية للثورة، ألا وهي: الحرية السياسية، وكل ما يأتي تحت مظلة هذا التعبير من حريات شخصية، وإلغاء كل المزايا التي تمنح لطبقة بعينها، والمساواة أمام القانون، والحرية الدينية التامة، وبساطة التشريع.» غير أنه يسهل علينا نظم قصيدة رثاء من ندب توكفيل لوفاة الأرستقراطية في الجزء الثاني من «الديمقراطية في أمريكا»؛ فقال فيه إنه في ظل الأرستقراطية تسمو الأرواح إلى مرتبة أعلى و«تحظى الأفكار العظيمة عن عظمة الإنسان وقدراته وكرامته بعناية واسعة»، بالرغم من أن الأرستقراطية غالبًا ما تكون طاغية وغير إنسانية. والأرستقراطية ترعى العلوم من أجل الحقيقة والجمال الكامنين فيها دون أن تكبلها بقيد الضرورة العملية، وهذا «من

غير الممكن أن يحدث في الدول الديمقراطية». وفي ظل الأرستقراطية يُنتج الحرفيون ما يُرضي أرفع الأذواق، ويقومون بذلك واضعين الكمال نصب أعينهم، وذلك لأنهم يعملون بهدف إرضاء القلة. وفي كنف الأرستقراطية يصبح «هدف الفنون هو إنجاز أفضل عمل ممكن، وليس أسرع أو أرخص عمل». لهذا «تنتج الدول الأرستقراطية عددًا صغيرًا من اللوحات العظيمة، بينما تنتج البلاد الديمقراطية عددًا كبيرًا من اللوحات الرديئة. وتبني الدول الأرستقراطية تماثيل برونزية، بينما تصنع الدول الديمقراطية قوالب من الجص». وما يحدث مع الفنون المرئية يحدث مع الأدب. «في الأمم الأرستقراطية يتمتع بعض ذوي الامتيازات بالعيش في ظروف تسمو فوق النطاق البشري وتعلو عليه، ومن بين ما يتمتعون به من امتيازات حصرية: السلطة والثروة والمجد والذكاء والكياسة وكل أمارات التميز». وهذه هي الحياة التي افتقدها توكفيل لأنه جاء إلى الدنيا بعد فوات الأوان.

غير أن مشكلة توكفيل أعمق من ذاك، فيمكن أن نصفها بأنها مشكلة دينية إلى حد بعيد. عندما أرخى قبضته الممسكة بالعقيدة الدينية، بدأ الشك يداهمه. استحضر في كتاباته الله والعناية الإلهية بسهولة لا تتأتى لكثير من الكتاب المعاصرين، وبطريقة تسمو على الزخارف البلاغية سموًّا كبيرًا. أخبر أستاذه المحبوب الأب ليسيور أنه لا يزال مؤمنًا بتعاليم دينه، لكنه غير قادر على ممارستها. يمكن أن نقيم حججًا قوية على أنه مع اقتراب توكفيل من الموت زاد توقه إلى عقيدة من النوع الذي يجعل ممارسة التعاليم أمرًا ممكنًا.

ومن المؤكد أنه أظهر في كتاباته صداقة وطيدة للدين. كان المؤرخ الكاثوليكي كريستوفر داوسون Christopher Dawson يرى أن توكفيل بوصفه مؤرخًا أعظم من تيير وجيزو، وذلك بفضل «اتساع آفاقه الروحية وقوة إيمانه». ربط توكفيل أيضًا بين الدين والحرية؛ فرأى أن الدين يشجع الحرية تشجيعًا لا غنى عنه، وآمن أن المفكرين الأحرار عندما هاجموا الدين أيدوا بذلك الثورة أعظم تأييد ووقفوا ضد النظام والسلام.

لم ينجح توكفيل أبدًا في التخلص من أثر تلك الكتب التي قرأها في مكتبة الحاكم في ميتز، والتي زلزلت أفكارُها دينَه وهو في السادسة

عشرة من عمره، فقال: «حتى ذلك الوقت كانت حياتي تفيض بإيمان لا يسمح للشك أن يخترق روحي.» وبعد هذا أفسد الشك — الشك في كل شيء — أيامه. فقبل وفاته بنحو عامين ذكر مرة أخرى الصدمة التي تلقاها في ميتز في خطاب لمدام سويتشين بتاريخ ٢٦ فبراير/شباط عام ١٨٥٧. يعد الخطاب وثيقة شديدة الأهمية؛ إذ إنه بمنزلة اعتراف وصرخة من القلب. يبدأ الخطاب بملاحظة خاطئة يدّعي فيها توكفيل أنه «لم يجد أية متعة في دراسة ذاته دراسة دقيقة»، فتوكفيل كان يتأمل ذاته دائمًا وأبدًا. على سبيل المثال كتب في «الديمقراطية في أمريكا» يقول: «ليس عليَّ أن أجوب السماء والأرض لأكتشف شيئًا مدهشًا مبنيًّا على التناقض: على عظمةٍ وتفاهةٍ لا نهائيين، على ظلام دامس وإشراق مذهل، شيئًا يستطيع أن يثير الشفقة والإعجاب والرعب والاحتقار على الفور؛ فكل ما عليَّ فعله هو النظر إلى نفسي ... [الإنسان] دائمًا ما يتلمس طريقه للوصول إلى شيء من معرفة الذات، ودائمًا ما يكون ذلك بلا جدوى.»

ثم غيّر توكفيل مسار الخطاب بسرعة، معترفًا بأنه لا يساوره شك في أن لديه مواطن ضعف؛ فقال: «أؤمن بأن مشاعري ورغباتي أكبر من قدراتي»، غير أن أحد أسباب تعاسته أيضًا هو أنه عاش في وقت لا تجد فيه المثاليات التي يؤمن بها مكانًا في الحياة العامة. ويخبر مدام سويتشين أنه مولع ولعًا غير لائق بالنجاح، «بأن أكون معروفًا ومشهورًا، وهذا ما كان يحركني طوال حياتي. وهو ولع يدفع المرء في بعض الأحيان إلى فعل أشياء عظيمة، لكنه ليس عظيمًا في حد ذاته بالتأكيد.» ظن توكفيل أنه شفي من هذا الداء بعد نجاح «الديمقراطية في أمريكا»، لكن قلقه من كيفية استقبال الناس لـ«نظام الحكم الأرستقراطي والثورة» أعاد الداء إليه. ويضيف: «لم أكن أبدًا رجلًا عاقلًا تمامًا بأي شكل من الأشكال.»

وعلى صعيد أكثر عمقًا يخبر توكفيل مدام سويتشين أنه يتوق إلى الوصل إلى اليقين في عالم لا يمنح هذا اليقين، فيقول: «إن مشكلة الوجود الإنساني دائمًا ما تشغلني وتستغرقني، وأنا لا أستطيع أن أفهم هذا اللغز ولا أن أحيد ببصري عنه. أرى أن وجود الإنسان في هذا العالم لا تفسير

له، وأن وجوده في العالم الآخر مثير للرعب.» يؤمن توكفيل بوجود حياة أخرى بعد الموت، يكافأ فيها الناس ويُعاقَبون على ما فعلوه على الأرض، لكن «كل ما هو خارج نطاق هذا العالم يبدو لي محاطًا بظلام يخيفني».

ثم يشير توكفيل إلى ما حدث في ميتز وتسبب في أن يقع أسيرًا لاكتئاب أسود، وأن يملأه احتقار شديد للحياة قبل أن يعيشها، فكان كالذي أحاطت به المشاكل والأهوال في الطريق الذي لا يزال عليه أن يقطعه في هذا العالم. كان توكفيل يكتب إلى مدام سويتشين في الوقت الذي اقترب فيه من نهاية هذا الطريق، وهو يعاني من نوبات متكررة في رئتيه الضعيفتين، ولا شك أنه شعر باقتراب النهاية.

الخبر السيئ هو أنه في ذلك الوقت — بعد انقضاء ستة وثلاثين عامًا على مشكلة ميتز — كان يشعر بنفس الضياع، وينتابه نفس الإحساس بأنه مدمر. فيقول: «أرى عالم الفكر ينقلب رأسًا على عقب مرة أخرى، وأبقى أنا ضائعًا متحيرًا في هذه الحركة العالمية التي تقلب كل الحقائق التي بنيت عليها معتقداتي وأفعالي وتزلزلها. هنا يكمن مرض محزن ومرعب ... سَعِد من لم يُصَب به أو لم يعد مصابًا به.» ما هو هذا المرض؟ أن تكون مؤمنًا بالله، وتشعر أنك تتمتع بشيء من الفهم للتدابير الإلهية المعقدة، ومع هذا لا تقدر على أن تسلم نفسك لله؟ يبدو أن هذا هو قلب أزمة توكفيل؛ أزمة إيمان. إن عدم قدرة توكفيل على حل هذه الأزمة تركه في اضطراب روحي.

قد يصعب علينا فهم سبب شعور توكفيل بكل هذا الحرمان بعد ضياع إيمانه بالدين في عصرنا هذا، الذي قطع خطوات أوسع نحو العلمانية، والذي يشعر فيه المفكرون والطبقات المتوسطة العليا التي تزعم أنها مثقفة بالفخر بقدرتهم على التكيف الهادئ مع الحياة دون أن يفكروا في الله. لكننا لا نستطع أن نغض الطرف عن هذا السؤال كأنه فضول تاريخي ليس إلا.

نعلم أن توكفيل تربى تربية دينية، ونشأ نشأة ترفرف عليها السعادة نسبيًّا. فهل كان يتطلع إلى إيمان يعيد إليه الثقة والاستقرار اللذين عرفهما في تلك السنوات المبكرة، التي تميزت بثقته في إحسان الله وفي أن كل شيء على ما يرام في العالم؟ كان توكفيل أكثر عمقًا من أن يقبل بالإلحاد

أو اللاأدرية بسهولة أو بلا مبالاة. فالاعتراف بالإلحاد يعد — مع كل شيء — موافقة ضمنية على وقف الاهتمام بألغاز الحياة، أي: بأصل ومعنى الحياة، وبالحكمة وراء الظلم والمعاناة التي تقع علينا في الحياة دون أن نستحقها، وباحتمال وجود حياة بعد الموت. والإيمان باللاأدرية يعنى النظر إلى هذه الأفكار على أنها لا تعدو أن تكون أفكارًا تلح على الذهن، يمكننا تنحيتها جانبًا والالتفات إلى مشاغل الحياة اليومية. ومن هنا يبدو أن الإلحاد واللاأدرية لا يمثلان بديلًا جادًّا يقتنع به عقل خلاق كعقل توكفيل.

في عام ١٨٣٣ كتب توكفيل إلى زوجة المستقبل يقول: «لا أعرف حجم ذكائي حق المعرفة، ولدي ما يجعلني أحكم عليه بأنه عادي للغاية. لكنني أؤمن بأن في أعماقي روحًا أسمى من أرواح معظم الرجال.» وعندما كتب توكفيل كلمة «روح» كان يعني ذلك الجزء المقدس فينا الذي يحتوي على التفرد والطموح إلى فعل الخير وسماحة النفس في أعلى قيمة لهم، تلك القيمة التي منحهم إياها الله لا النفس.

لا شك في أن مخاوف توكفيل من اعتلال الروح في ظل الديمقراطية تنبع من قراءته المنتظمة والدائمة لباسكال. ذكر توكفيل باسكال واقتبس منه أربع مرات في «الديمقراطية في أمريكا». والأهم من هذا أن توكفيل ذكر باسكال بعد أن كتب عن «حب الحقيقة الذي يتسم بأنه متقد ورفيع ونزيه»، فيكتب قائلًا: «لا أعتقد أن باسكال كان سيتمكن من تركيز قوى عقله بهذه الدرجة لكشف أسرار الخالق الدفينة لو كان يضع نصب عينيه هدف تحقيق مكسب عظيم، أو تحركه الرغبة في تحقيق مجد. عندما أرى كيف انتزع روحه من بين مشاغل الحياة ليكرس [نفسه] تمامًا لبحثه هذا، فقتله الهرم وهو في سن الأربعين، بعد أن مزق الحبل الذي يربط الروح بالجسد قبل الأوان؛ أجدني منبهرًا بإدراك أن ما ولَّد تلك الجهود غير العادية لم يكن شيئًا عاديًّا.»

كان توكفيل معجبًا بباسكال إلى درجة لم تترك له خيارًا سوى أخذ ما رأى باسكال أنه أهم الموضوعات على الإطلاق بمحمل الجد، ألا وهو: الإيمان بالغيب ودليل وجود الله. كتب باسكال يقول: «عندما وجد الإنسان

أنه غير قادر على علاج الموت والبؤس والجهل؛ قرر ألا يفكر في تلك الأمور لكي يصبح سعيدًا.» ربما فعل معظم الناس ذلك، أما توكفيل فلا. وكتب باسكال يقول: «المسيحية ديانة غريبة؛ فهي تدعو الإنسان إلى إدراك أنه حقير ومقيت، وتدعوه لأن يطمح أن يكون مثل الله. غير أن هذا يخلق توازنًا بدونه كان شعور الإنسان بأهمية ذاته سيجعله مزهوًّا إلى درجة مقيتة، أو كان احتقاره لذاته سيجعله دنيئًا على نحو مقيت أيضًا.» كان على توكفيل أن ينظر فقط إلى حياته المهنية ليدرك تلك الحقيقة المحورية. ولأن توكفيل كان مريضًا ومحبطًا في نهاية حياته المفعمة بالنشاط، فربما كان أكثر عرضة من ذي قبل للاقتناع بحجج باسكال، ناهيك عن رهانه الشهير: «إن ربحت [بواسطة الإيمان بالله] تربح كل شيء، وإن خسرت لا تخسر شيئًا.»

لا نريد أن نوحي بأن سنوات توكفيل الأخيرة كانت مليئة بالعذاب الديني، فهي لم تكن كذلك، إذ حال اعتداله دون ذلك. فكتب إلى لوي كيرجولي يقول: «كنت دائمًا أعتقد أن العواطف — وإن كانت سامية — تصبح خطيرة عندما يلهبها الحماس وتكون مقصورة على شيء بعينه.» وفي ضيعته الواقعة في نورماندي التي غيرت زوجته من شكلها كان يقضي النهار في العمل على مكتبه، ومدة بعد الظهر في العمل الزراعي في الحقول، والمساء في القراءة بصوت مرتفع مع زوجته أمام مدفأة كبيرة. وقام في عام ١٨٥٧ بآخر رحلة له إلى إنجلترا، حيث شعر بالألفة بين الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية التي كانت تحتفي به أينما حل باعتباره رجلًا عظيمًا. وفي نهاية الرحلة حرص أحد أصدقائه الإنجليز — هو سير تشارلز وود Sir Charles Wood — على أن يُقل توكفيل مركب صغير كان تابعًا للأسطول البريطاني من بورتسماوث إلى شيربور، ولا بد أن توكفيل استمتع بهذه المعاملة التي لا يحظى بها إلا الرجال العظماء.

لم يستطع توكفيل أبدًا أن يعود للجزء الثاني من كتابه عن الثورة الفرنسية؛ فهو لم يصل في المسودة التحضيرية للفصول إلا إلى عام ١٧٨٧، أي قبل الثورة الفعلية بعامين. وتسببت نوبة رئوية أخرى — أصابته عام ١٨٥٧ بعد عودته من إنجلترا بقليل — في إصابته بمزيد من الأمراض. وفي

عام ١٨٥٨ ارتمى هو وزوجته في حضن مناخ كان Cannes الأكثر دفئًا حيث استأجرا فيلا. هناك اعتنت بهما راهبتان من أبرشية بون سوكور Bon-Secours القريبة. لا نعلم متى بدأ توكفيل بالضبط يشعر أنه يموت، لكنه بدأ يدعو أصدقاءه المقربين لزيارته بشيء من العجلة.

توفي ألكسي دو توكفيل في ١٦ أبريل/نيسان عام ١٨٥٩ قبل أن يبلغ الرابعة والخمسين. وأثارت وفاته آخر جدل حوله؛ هل مات وهو مؤمن بالكاثوليكية أم لا؟ في بادئ الأمر ادعى جوستاف دو بومون أن توكفيل لم يكن في حاجة إلى من يعيده إلى الطريق القويم في ساعاته الأخيرة، لأنه لم يرتد عن إيمانه ارتدادًا فعليًّا أبدًا، لكنه بعد ذلك راجع ادعاءه مضيفًا أن توكفيل كانت تنتابه الكثير من الشكوك في الدين. عثر جاردان على وثيقة يشهد فيها بومون بأن توكفيل قال لزوجته قبل وفاته بقليل: «لا تحدثيني عن الاعتراف أبدًا أبدًا أبدًا، فلن يستطيع أحد أن يجعلني أكذب على نفسي وأدّعي الإيمان وأنا غير مؤمن. أريد أن أظل توكفيل، وألا أقع في الكذب!» وهذا القول يذكرنا بجورج سانتايانا الذي قضى سنواته الأخيرة في مستشفى بلو نانز Blue Nuns في روما، وتوسل إلى تلميذه دانيال كوري Daniel Cory ألا يصدق أبدًا أنه عاد في ساعات الاحتضار إلى الديانة التي وُلد عليها، وإن قالت الراهبات هذا.

يضيف بومون أن صديقه القديم استدعى راعي أبرشية كان ليعترف له بعد أن علم أن إعلان الإيمان ليس شرطًا لصحة الاعتراف في عقيدة الكنيسة الكاثوليكية. يقول البعض إن توكفيل فعل هذا ليرضي زوجته التي كانت أكثر منه ورعًا، ويقول آخرون إنه أسرع بالعودة إلى الدين ومات مسيحيًّا مؤمنًا، بعد أن وجد العزاء الحقيقي في طقوس كنيسته.

غير أن كيرجولي وكورسيل — الذي كان كاثوليكيًّا مخلصًا — لم يذكرا أبدًا أن توكفيل عاد إلى الكنيسة، وكانا من أصدقائه المقربين الذين زاروه في أيامه الأخيرة. بعد ذلك ادّعى بعض الكتّاب أن بومون — منفذ وصية توكفيل الأدبية — الذي تخلص من بعض خطابات توكفيل ومخطوطاته وغيّر البعض الآخر — اختلق قصة نقص إيمان صديقه، مع أنه لا يُعرف

عن بومون أنه يحمل أية مشاعر معادية للدين قد تدفعه إلى فعل هذا. ورد جاردان — ببراعته وذكائه المعهودين — أنه بما أنه من المستحيل أن نعرف الحالة الروحية لأي إنسان، فلن يتسنى لنا أبدًا أن نتأكد إذا كان توكفيل قد استعاد إيمانه في أيامه الأخيرة أم لا.

ونهاية حياة توكفيل يحيطها غموض إيجابي. فمن يتبنون ميولًا دينية ما زال لديهم أمل في أن يكون توكفيل قد استعاد إيمانه بالفعل، ومن يستطيعون أن يعيشوا في سعادة بلا دين يفضلون أن يؤمنوا بأن توكفيل استطاع أن يرحل عن الحياة دون أن يلجأ إلى سلوى الدين، كما سيفعلون. ومثلما يرى الليبراليون أن توكفيل لبرالي، والمحافظون أنه محافظ، والأرستقراطيون أنه أرستقراطي، والديمقراطيون أنه ديمقراطي؛ يمكن للمتدينين وغير المتدينين الآن أن يحظي كلٌّ فريق منهما بتوكفيل الخاص به. ومن المؤكد أن ألكسي دو توكفيل — الذي دفن في قرية توكفيل Tocquevilles تحت صليب خشبي — لن يعترض على هذا.

الخاتمة

ترك توكفيل في كتبه الثلاثة ودفاتر ملحوظاته المتعددة ومئات الخطابات رصيدًا غنيًّا ومبعثرًا من الحكمة السياسية. وما كتبه لا يشكل نظامًا أو كيانًا من الأفكار المستقلة أو الأفكار التي يسهل التوصل إليها. كتب إيسايا برلين — وهو شخص توقع البعض أن يجد أفكار توكفيل جذابة للغاية — يقول إن توكفيل «لم يكن من واضعي النظريات المنهجيين، أو رجلًا ميالًا إلى صياغة المبادئ العامة وخبيرًا فيها، ولا مفكرًا يتمتع بمساحة وعمق تفكير يُمَكِّناه من الإبحار في العديد من مجالات الفكر البشري، بدرجة تجعله يستحق لقب فيلسوف». يعترف برلين بأن توكفيل «نابغ في مراقبة ما يجري حوله» وأنه «يعبر عن ملاحظاته الذكية في صيغة حِكَم معبرة بارعة وأقوال مأثورة وأحكام عامة قصيرة مدهشة ولافتة للنظر؛ لكنه نادرًا — إن لم يكن مطلقًا — ما يحرك الفكر بنفس قوة وجرأة هوبز Hobbes أو هيوم أو روسو؛ وهو لا يتمتع بعقل منهجي ووضوح مؤثر مثل ميل Mill، ولا يفتح النوافذ على أعماق لا يسبر غورها بوضوح كهيجل Hegel وماركس». ويطلق برلين حكمًا ختاميًّا يتضمن إدانة يحفها القليل من المدح، ألا وهو: «توكفيل مبدع حقًّا، لكنه لم يحاول قط أن يبني منهجًا أو أن يرفع صوته.»

هل هذا — والكلام لمفكرة غير منهجية هي بيجي لي Peggy Lee — هو كل ما في الأمر؟ بعد قضاء أكثر من عام مع كتابات توكفيل أعتقد أن هناك الكثير جدًّا لنقوله عنه؛ لا بد أن الفكر المنهجي يمثل مصدر راحة

لمن هو موهوب فيه ويحبه، أما فيما يتعلق بالنظم السياسية، فإننا نعتقد أن العالم لديه ما يكفيه (في الوقت الحالي على الأقل). قال توكفيل متأثرًا بفكر باسكال: «المؤسسات البشرية يمكن أن تتغير، أما الإنسان فلا.»

في فرنسا يعيد الكُتاب العظماء كتابة ما كتبه أسلافهم العظماء والإضافة إليه، لذا فعندما نقرأ أعمال بروست دائمًا ما نفكر في ستندال Stendhal وبلزاك، وكيف تشرب بروست فكرهما ثم حلق فوقه بحدة فهمه لعلم النفس، وفي حالة توكفيل فإن سلفيه كانا مونتسكيو (١٦٨٩–١٧٥٥) وروسو (١٧١٢–١٧٧٨). أخذ توكفيل من مونتسكيو حبه للحرية، وفكرة ضرورة دراسة جميع الظروف — التاريخية والطبيعية — المتشابكة التي تشكل ملامح شخصية الأمة، وغير ذلك كثير. لكن توكفيل رفض فكرة أن كل شكل من أشكال الحكومات يرتكز على نمط معين من أنماط السلوك (فالملكية ترتكز على الشرف، والأرستقراطية على الاعتدال، والحكم الجمهوري على الفضيلة، والاستبداد على الخوف). أوضح توكفيل أن العكس هو الصحيح؛ إذ إن أنماط السلوك تولد أشكال الحكومات، كما أن كل نمط ليس حكرًا على شكل بعينه، فعلى سبيل المثال يمكن أن نجد حكمًا ملكيًّا ديمقراطيًّا. وأخذ توكفيل من روسو فكرة انتهاء عصر الأرستقراطية، وحتمية الدخول في عصر الديمقراطية. لكنه كان أقل منه اهتمامًا بالعدالة المثالية وغيرها من الأفكار السياسية المجردة المُتَضَمَّنة في «العقد الاجتماعي» *The Social Contract*، والمفاهيم الواهية الأخرى التي نادى بها روسو مثل «البدائي النبيل». كانت علاقة توكفيل بمن سبقوه من المفكرين كعلاقة بروست بأسلافه؛ فأضاف لما قاله مونتسكيو وروسو بواسطة فهمه لأهمية العادات والقيم والمعتقدات، وبإدراكه القوي للتركيبات والتناقضات المعقدة التي تشكل جزءًا من الطبيعة البشرية والمجتمعات الإنسانية.

يصف جورج ويلسون بيرسون عقل توكفيل بأنه ««نافذ» بطبيعته»، وبالفعل بدا أن توكفيل تمتع برؤية أوسع وأعمق من الآخرين. وتمتع بموهبة نادرة، هي القدرة على أن يكون متحمسًا لشيء وأن يتعامل معه بلا تحيز في آن واحد، بالإضافة إلى القدرة على رؤية النواحي الجيدة في

الأشياء السيئة والنواحي السيئة في الأشياء الجيدة. على سبيل المثال كتب يقول: «أعيب على المساواة ليس أنها تقود الناس إلى السعي خلف المتع المحرمة، وإنما أنها تبتلعهم تمامًا في السعي خلف المتع المباحة.» ومع أنه من المستحيل أن نتخيل اشتغال توكفيل بالتجارة، فإنه كان يدرك أن التجارة «هي العدو الطبيعي لكل المشاعر العنيفة؛ فهي تعشق الاعتدال، وتسعد بالحلول الوسط، وهي الأكثر حرصًا على تجنب الغضب، مما يجعل الإنسان يميل إلى الحرية ويرغب عن الثورة».

معظم الناس — كما يعتقد توكفيل — إما يصدقون الأشياء دون أن يعرفوا السبب، أو لا يعرفون ماذا عليهم أن يصدقوا. لكن هناك احتمال ثالث يتمثل في نوع آخر «من التصديق المبني على التأمل والثقة، ينبع من المعرفة ويبزغ من اشتعال الشك، [و] لن يتسنى إلا للقليل جدًّا من الرجال أن يفوزوا به ثمرةً للجهود التي يبذلونها». لم يكن توكفيل قد بلغ الثلاثين عندما كتب هذا، لكن عند وفاته — وهو في الثالثة والخمسين — كان قد أصبح أحد أفراد تلك القلة التي لن نصفها بأنها سعيدة، وإنما بأنها ثاقبة الفكر.

وتوكفيل لا يُعلى عليه كمحلل للديمقراطية؛ فلم يزد أحد حتى الآن على وصفه لنقاط قوة وضعف الديمقراطية، ولم يصل أحد إلى فهم أكثر صحة لما يمكن ولا يمكن أن تحققه الحكومات الديمقراطية. أدرك توكفيل ما نطلق عليه اليوم العلاقة التبادلية بين المكاسب والخسائر التي تزامنت مع قدوم المساواة إلى العالم الحديث، ونشك أن يكون أي شخص آخر قد نجح في إدراك هذه العلاقة بهذا العمق.

أدرك توكفيل في وقت مبكر أن الديمقراطية هي مثال مميز لأسوأ المعضلات، التي يتعارض فيها جانبان إيجابيان دون إمكانية التوصل إلى تسوية أو حل. والجانبان المضيئان في الديمقراطية هما بالطبع المساواة والحرية. قد يعتقد المرء أنه ليس من الطمع أن يطلب الحصول على العدل التام والحرية الكاملة في آن واحد، لكن تحقيق هذا ليس بالأمر السهل؛ فسن القوانين ضروري لتحقيق عدالة يسهل ضبط ميزانها بدقة، مما يتطلب فرض بعض القيود على الناس؛ لأنه إذا أُطلق العنان للجميع ليفعلوا ما

بوسعهم فسيتخلف الكثيرون بلا أمل في السباق. هناك احتمالان رئيسيان ظهرا على مدار التاريخ، هما مجتمع صالح نبيل، ومجتمع عظيم قاسٍ. أما الاحتمال الثالث الواقع بينهما، وهو المجتمع النبيل والعظيم بالفعل فلم يظهر بعد. يظل الكثيرون منا متعلقين بأمل أنه سيظهر في يوم من الأيام، تمامًا كما يأمل إبليس في دخول الجنة. أما توكفيل فعلم أن هذا لن يحدث في وقت قريب.

غير أن الذكاء الذي أظهره في فهم آلية عمل الديمقراطية ونتائجها، ونفاذ بصيرته في سبر أغوار المعضلة الرئيسية في الديمقراطية؛ ليسا كافيين لتفسير لماذا ظل توكفيل كاتبًا هامًّا حتى يومنا هذا، ولماذا يُتوقع أن يظل كاتبًا هامًّا في المستقبل.

في عام ١٨٣٤ كتب توكفيل وهو في خضم تأليف الجزء الأول من «الديمقراطية في أمريكا» خطابًا إلى شارل ستوفل يبوح فيه بأفكاره حول الأسلوب وحول ما يمنح الأدب طول العمر. ومثل كل الفرنسيين الصالحين يبدأ توكفيل ببافون ونقاش قصير حول مقولته المأثورة الشهيرة عن أن الأسلوب هو الإنسان، لا فرق بينهما. وتوكفيل يعرف أن الإنسان لا يختلف كثيرًا عن أسلوبه، لكن الإقرار بهذا ليس جديدًا. كتب توكفيل يقول: «أرني الكتب التي عاشت لوقتنا هذا وكانت ميزتها الوحيدة تتمثل في الأفكار الكامنة فيها.» لا يوجد الكثير من هذه الكتب، وكان يعرف هذا أيضًا، ولم يضف حتى وقتنا هذا إلى قائمة تلك الكتب إلا القليل. ثم يضيف قائلًا إنه لا يتمتع بأسلوب يرضيه على الإطلاق، ولذا درس الأساليب باهتمام كبير، وتوصل إلى النتيجة التالية: «يتميز الكتاب الفرنسيون العظماء — على اختلاف العصور التي عاشوا فيها — بمنعطفات فكرية مُمَيِّزة، وطريقة لجذب اهتمام القراء خاصة بكل واحد منهم. وأنا مؤمن بأن كل شخص يولد بهذه البصمة المميزة، أو على الأقل أقر بأنني لا أرى سبيلًا إلى اكتساب هذه البصمة ... لكن هناك صفة مشتركة بين كل الكتاب العظماء تعمل بشكل ما كأساس لأسلوبهم، وعلى هذا الأساس يضع كل منهم لونه الخاص. هذه الصفة بسيطة للغاية، إنها «الحس السليم»».

والحس السليم — المتمثل في نظام العرض واستخدام الكلمات بدقة متناهية وإطلاق أحكام متوازنة — يعتبر جزءًا فحسب من الأسلوب العظيم. في حين أغفل توكفيل الصفات التالية، التي كان يتمتع بها في شبابه إلى درجة كبيرة جدًّا، وهي الالتزام الأخلاقي، والرغبة الجامحة في الوصول إلى الحقيقة، والحيادية، والنزاهة الحقيقية في السعي خلف الحقائق.

كان الكاتب الوحيد الذي كتب بالإنجليزية في القرن العشرين وتحلى بنفس الالتزام الأخلاقي الذي ظهر عند توكفيل هو جورج أورويل. إذ تحلى هو وتوكفيل بالشجاعة اللازمة للسير في الاتجاه المعاكس للطابع الفكري الذي ساد في عصريهما، والجرأة لوصف العالم كما رأياه. ولأن كلًّا منهما يحمل رسالة أخلاقية؛ فقد كانا لا يحتملان المزاح، وهذا شيء يمكن اغتفاره. ومع أن جورج أورويل كان بارعًا، فإنه لم يتمتع بعمق ألكسي دو توكفيل، ويرجع هذا إلى افتقاره إلى العنصر الروحي.

تحدث توكفيل عن «الشهرة المحدودة» التي حققتها له كتاباته، لكنه لم يؤمن بأن «كتابات ككتاباتي سيكون لها أي أثر في وقت كوقتنا هذا»، وهو محق في أن كتاباته فشلت في التأثير على الحياة في عصره، ولا يستطيع أحد الجزم بحجم التأثير الذي تركته كتابات توكفيل على الأجيال التي جاءت بعده، مع أن كتاباته دائمًا ما كان يقرؤها أكثر عقول العصر جدية. (في هذا الصدد أوضح روبرت نسبيت Robert Nisbet في مقاله «ليس توكفيلًا واحدًا» أن كل عصر يجد له توكفيل الخاص به، أي أنه يجد في «الديمقراطية في أمريكا» القضايا الأكثر ارتباطًا بما يشغله.) أظن أن ما كان سيدهش توكفيل هو بقاء كتاباته بصفتها جزءًا من الحوار حول موضوع عظيم؛ هو أهمية السياسة في الحياة.

ظلت كتابات توكفيل حية لأن الرجل الذي كتبها انتصر في صراعه من أجل رؤية العالم بثبات ورؤيته ككل، وفعل هذا بنزاهة فكرية اتسم بها بحثه عن الحقيقة، التي أطلقنا عليها بعد ذلك الموضوعية. ومع أن الوصول إلى الموضوعية ليس سهلًا، فإنه أقل صعوبة على الكاتب الذي يتناول الموضوع بعيدًا عن مشاعره الخاصة. لكن توكفيل استطاع أن يصل

إلى الموضوعية دون أن يضيع عاطفته الجياشة؛ عاطفة التوق إلى الابتعاد بالعالم عن الكوارث، وإلى مساعدة الرجال والنساء ليتخلصوا من قيد العبودية ويتمتعوا بالحرية التي تمكنهم من تحقيق أفضل أحلامهم. قال شوبنهاور Schopenhauer إن «الموضوعية عبقرية»، ونضيف أن موضوعية توكفيل — الذي كان دائم التعقل بالرغم مما يعتمل بداخله — هي بالضبط ما كان يقصده الفيلسوف الألماني حين قال هذه العبارة.

المصادر

The Eminent Lives series quite sensibly dispenses with footnotes and elaborate bibliographies, but I would be remiss to the point of immorality if I did not acknowledge the extent to which this book has been made out of the books of the many superior writers who came before me to write about Alexis de Tocqueville. Among these writers, I am most heavily indebted to André Jardin, J. P. Mayer, George Wilson Pierson, Seymour Drescher, James T. Schleifer, Roger Boesche, and François Furet. In my text I most frequently quote from the following among their books:

Furet, François. *Revolutionary France, 1770—1880.* Translated by Antonia Nevill. New Haven, Conn.: Basil Blackwell, 1992.

Jardin, André. *Tocqueville: A Biography.* Translated by Lydia Davis with Robert Hemenway. New York: Farrar, Straus, Giroux, 1988.

Pierson, George Wilson. *Tocqueville in America.* Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996.

Schleifer, James T. *The Making of Tocqueville's Democracy in America.* 2nd edition. Indianapolis: Liberty Fund, 1999.

Tocqueville, Alexis de. *Selected Letters on Politics and Society.* Edited by Roger Boesche; translated by James Toupin and Roger Boesche. Berkeley: University of California Press, 1985.

Finally, I wish to thank Jessica Fjeld, a gracious, penetrating, and talented editor for improving my manuscript in ways too numerous to mention.